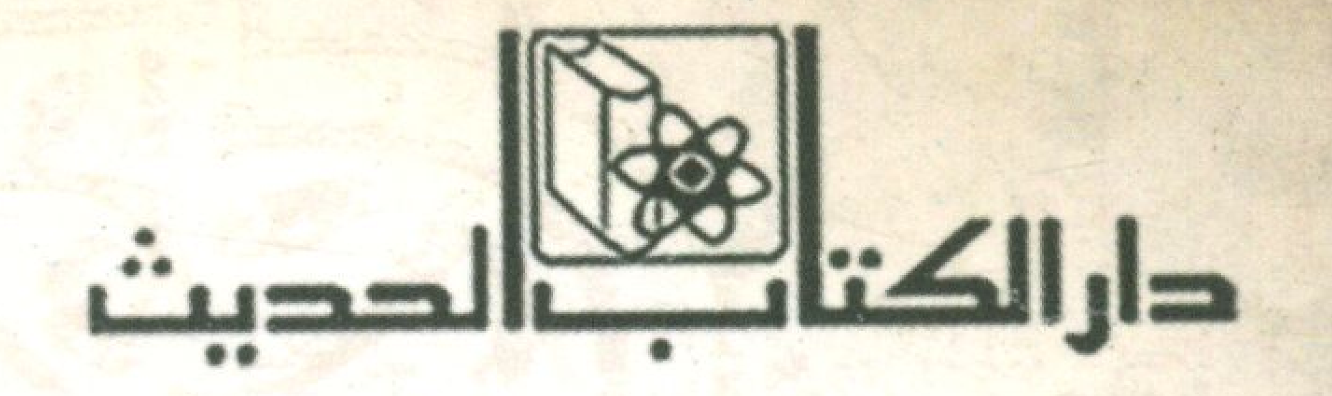


آيات القرآن

وعلاقتها بأحداث السيرة النبوية

أ/ سامية طنطاوى

آيات القرآن

وعلاقتها بأحداث

السيرة النبوية

الجزء الأول

إعداد

سامية طنطاوى

طنطاوى ، سامية.

أيات القرآن وعلاقتها بأحداث السيرة النبوية / إعداد سامية طنطاوى . ـ ط1 . ـ القاهرة : دار الكتاب الحديث، 2012

250 ص ؛ 24 سم

تدمك :7 - 978-977-350-472

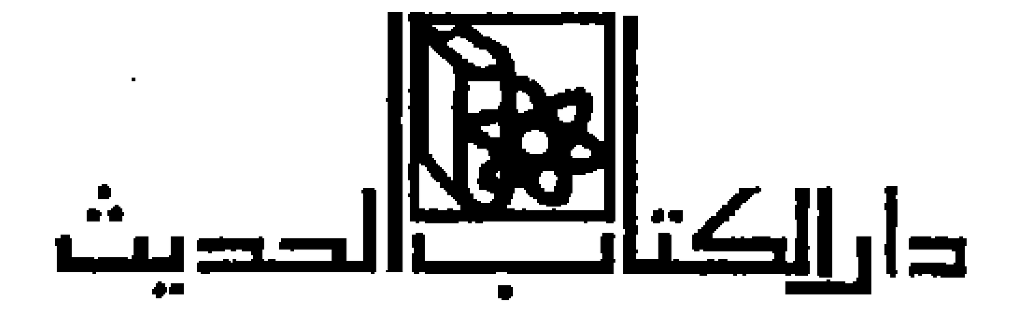
1- السيرة النبوية فى القرآن.

أ ـ العنوان .

229.439

رقم الإيداع / 11006 /2012

1434 هـ / 2013 م



www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr

مُقدّمة

* سأتناول (بإذن الله) فى هذا الكتاب سيرة النبى ﷺ ومعه معجزته الخالدة وهى القرآن الكريم المرتبط بالأحداث، وكما حدثت بترتيب نزولها.. ونحن نعلم أن القرآن كما هو مكتوب فى المصحف مرتبًا ترتيبًا مصحفيًا أراده الله تعالى على هذا الشكل ولم يُرتبه حسب نزوله، بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه وينتهى بآخر آية فيه... لأن آيات القرآن كانت تتنزل حسب الأحداث التى تقع أو إجابة لأسئله تعرّض لها رسول الله ﷺ من الصحابة عن بيان لأحكام مسائل غمضت عليهم. لأنهم كانوا حريصين على إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذى عشقوه. فكانوا يستفسرون عن أشياء فينزل بها نص قرآنى .. ولذلك كان الحق يترك الأحداث تجرى ثم يُنزّل من القرآن ما يُثبّت به الأحكام.. وبعد أن تمت الأحداث، وتمّ المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة يشاء الله -سبحانه- بعد ذلك أن يرتّب الآيات والسور ترتيبًا مصحفيًا.. فكان جبريل يُنزِّل الآيات ويُعلمها للنبى ﷺ ويقول له: ألحق هذه الآية بالمكان الفلانى.. ويقرأ النبى ﷺ هذه الآيات فى الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة.. كما أرادها الله تعالى فى هذا المكان. وتتجلى عظمة الرسول ﷺ حين يُصلى بالآيات ويزيد عليها بما أُمر به. فهو ﷺ يقرأ الآيات التى نزلت عليه فى اليوم متصلاً بها ما نزل عليه من عام قبل ذلك. أو من عامين أو أكثر (لمدة ثلاثة وعشرين عامًا)... وتلك معجزة بكل المقاييس. لأن الفرد العادى إذا تكلم فى موضوع ما لعشر دقائق ثم أراد أن يعيد نفس الكلام بنفس الألفاظ فلن يستطيع ذلك أبدًا. ولكن النبى ﷺ كان يفعل ذلك معتمدًا على قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى].

ثم يأمر صحابته أن يكتبوا، ويأمر الحافظين للقرآن أن يحفظوا.. ثم يقف فى الصلاة ليقرأ الآية التى نزلت من عام ملحقه بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقه بآية نزلت بعدها بشهر أو بالأمس. وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ﷺ بل بأمر ربِّ محمد ﷺ الذى رتب الحروف والآيات ليقرأها الرسول ﷺ كما أراد الله، ثم يأتى جبريل

كل عام ليرتِّب معه ما نزل من الآيات وذلك فى رمضان من كل عام.. حتى إذا جاء رمضان الأخير فى العام الأخير من حياة الرسول ﷺ عرض معه مُرتّبًا مرتين....

إذًا فالمسألة ليست نزولاً للقرآن فحسب ولكنه نزول وترتيب، لقد أراد الحق أن يُرتب أولاً السور الطوال، ويأتى أولاً بالقرآن المدنى.. ثم تتابعت السور حتى اكتملت 114 سورة منها 82 سورة مكية، و32 سورة مدنية. وتكتمل فيها العقيدة بمحاورها الثلاثة:

1- إثبات وجود الله ووحدانيته.

2- إثبات صحة رسالة محمد ﷺ وأنه مُرسل من عند الله، والمعجزة الدالة على صدقه هى القرآن.

3- إثبات البعث بصورة لا شك فيها.. وهذه المحاور الثلاثة تناولها القرآن المكى وجاءت فيها قصص الأنبياء للتأكيد على أن العقيدة واحدة فى موكب الرسالات كلها ولتثبيت فؤاد النبى ﷺ وأصحابه بأنه ليس بدعًا من الرسل. وما يتعرض له سائر الرسل من قبله.

*ثم يأتى القرآن المدنى متضمنًا المنهج (افعلْ ولا تفعلْ)، فجاء الدستور منهجًا شاملاً يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة.. ومن القرآن المدنى والمكى تكونت سور القرآن مرتبًا ترتيبًا مصحفيًا.

* وأردتُ -أنا- فى هذه الرسالة أن أقدِّم القرآن مرتبًا ترتيبًا نزوليًا.. أى كما أُنزل على الرسول ﷺ... والهدف الذى سعيت إليه هو ربط آيات القرآن بأحداث السيرة.. لقد أردتُ أن أرتاد طريقًا -لم أُسبق إليه- لعلنى أفتح به بابًا من أبواب الخير والمعرفة لكلٍّ من القرآن والسيرة فى آنٍ واحد.

* وقد شعرت -على ضوء ما أحسست به من نفسى -أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير المرتبط بأحداث السيرة -لعلنا نستطيع بهذا الربط أن نغوص فى أعماق



الآيات، ولعل ربطها بالأحداث الواقعية وتتبع المعنى الواحد والموضوع الواحد فى طول القرآن وعرضه، وحشده فى سياق قريب، والتدبر فى معانيه وعلى هذا الأساس يعطينا فرصة حق التدبّر فيه كما أمرنا مُنزّله العظيم... والهدف الذى سعيت إليه هو أن أقدم تفسيرًا لمعانى القرآن مع دراسة السيرة النبوية فى آنٍ واحد.

* لقد سبق أن قدمت دراسة موضوعيه لقصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى (عليه السلام) تتبعت أحداثهم وسيرة نبيهم فى معظم سور القرآن ونالت هذه الفكرة استحسانًا من الكثير.. وبعدها لازمنى شعور بالتقصير.. كيف لم أبدأ بسيرة نبينا العظيم وبمعجزته الخالدة.. والآن يلازمنى شعور بالرهبة والخوف وأنا أمضى فى هذه الدراسة.. فشأن القرآن والسيرة مجتمعين أكبر من أن يتعرض له مثلى، لا سيما أننى لا أجد مراجع تكفى لتغطية هذا الموضوع بالشكل الذى أردته ولكنى حرصت على أن أزداد فقهًا فى القرآن وتدبرًا لمعانيه. فالقرآن لا تنقضى عجائبه، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه.. ولكن من يُقدم على التدبر ومحاولة فهم أسرار هذا الكتاب العظيم يُعينه الله ويؤتيه من لدنه فهماً فيه.فالفضل أولاً وأخيرًا لما يفتح الله به لمن أراد.

* لقد صحبت القرآن منذ فتره ليست قصيرة، وتدبرت فى معانيه وتفسير كثير من سوره، ولكننى كلما اقتبست من معانيه علمت أن ما وعيت وعرفت منه لا يزال قليلاً لا يتجاوز المعانى القريبة والأحداث المردَّدة.

فقلت: إنى ما قضيت حق التدبُر فيه كما أُمرنا أن نفعل.

بل يجب أن نُعايش الآيات، ونعلم أسباب نزولها، والحكمة من هذا التنزيل.

* وكلما واجهتنى مشكلة نقص الجوامع أشعر بأن همتى دون هذه المهمة!

وكدت أتوقف! ثم رأيت أن أقطع ما يتيسر لى فى هذا الطريق أفضل من أن أستسلم للعجز فى المراحل الأولى.. وأدعو الله تعالى أن يعيننى ويوفقنى على أن أقطع هذا الطريق إلى نهايته.. وأكرر أننى مستكشفة قاصرة وأن الوادى الذى أستقى منه يسيل على قدرى المحدود، ولكنه يُحث الخطى إلى ما هو أبعد ويُحفّز الهمّة لخدمة القرآن وإماطة الغموض عن روائعه وبدائعه.



* ولقد اخترت من الآيات ومن السور ما يبرز ملامح الصورة التى أردتها وتركت غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه، وذلك حتى لا يطول العرض ويتشتت الموضوع، والإيجاز مقصود لدىّ فى هذه الدراسة التى تحتاج إلى هذا النسق.

رجائي:

تلك هى محاولاتى وأهدافى ورجائى من كل ناظر يطلع على عيب أو تصور أن يدلف عليه ويرشدنى إليه -فالدين النصيحة، والمسلمون بخير ما تعاونوا..، وإنه ليحلوا لى أن أقول ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه "**رحم الله رجلاً أهدى إلىَّ عيوب نفسى**".

* اللهم إن كنت قد أصبت فذلك الفضل من الله، وإن كنت لم أصب فإنما هو من نفسى ومن الشيطان، وأستغفر الله عليه.

﴿...وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]

أسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا لعباده. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلفة



أهمية دراسة سيرة النبى ﷺ

كل من يتعايش مع سيرة النبى ﷺ يزداد حباً له .

نحن ندرس سيرة النبى ﷺ لأن تجربته هى أنجح تجربة على مرّ التاريخ البشرى فقد وُلد يتيماً فى صحراء مكة، ليس له أخوة ولا أبناء ذكور (فقد ماتوا وهم أطفال) ومع ذلك فقد استطاع أن يقود قبائل العرب المتصارعة ويصنع منهم (فى خلال عشرين سنة) ← أمة واحدة تقود الأمم – فالتاريخ قبل بعثته شىء وبعد بعثته شىء آخر، وكأنه حدٌّ فاصلٌ بين أجل قد مضى وأجل سيأتى.

لقد كان على أثر بعثته أن امتلأ العالم بالمساجد التى ترفع النداء للصلاة فى جميع الأوقات ليلاً ونهاراً، وأن ملايين الناس تذهب لتحج وتعتمر كل عام، وتصوم وتفطر فى شهر واحد من شرق الأرض إلى مغربها – فمن الذى يستطيع أن يوحد مليارات من البشر على أمر واحد جامع؟! ثم تظل تجربته خالدة باقية على مرّ الزمن مع أن كل عظيم عرفه التاريخ كان محدود الأثر زماناً ومكاناً.. ثم استطاع أن يوازن بين المادة والروح.

فمثلاً– تجربة سيدنا عيسى(عليه السلام) ← نلمس فيها الجانب الروحى فقط – من الزهد والورع – لكننا لا نجد فيها الحياة الزوجية، أو الأبوة، ولا شخصية الحاكم – لأنه لم يحكم... وفى تجربة سيدنا سليمان عليه السلام ← نلمس فيها شخصية الحاكم العادل الغنى – ولكننا لا نجد فيها شخصية المحكوم المستضعف الفقير.

أما هذه التجربة الخالدة ← توفرت فيها كل الأطوار البشرية ← حاكماً ومحكوماً، ضعيفاً وقوياً، فقيراً وغنياً، محارباً ومسالماً – دخل مكة فاتحًا ولكنه متواضع خافض رأسه... أوذى كثيراً ← فصبر وعلّم البشرية الأخلاقَ والفضيلة والعفو والسماحة – ينهزم فيرضى ويثنى على الله، يجلس بين أصحابه معلماً وهو أمىّ يتلقى كل علمه من الوحى، يقضى بين الخصوم ويفض المنازعات.. كل جوانب حياته وصلت إلى درجة الكمال البشرى.. لذلك يقول عنه رب العزة:



﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

إذاً ← فهو الوحيد الذى جمع كل نواحى العظمة.

* فمن عظمة أخلاقه ← أنه ما غضب لنفسه قط، ما انتقم لنفسه قط، ما كذب قط، ما أخلف وعداً، وعُرف بالصادق الأمين، كان عظيماً فى السلم والحرب.. عندما انتصر على أعدائه الّذين آذوه وقتلوا أصحابه قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، عظيماً فى زهده، يشبه نفسه من الدنيا براكب ينام فى ظل شجرة ثم يذهب ويتركها يقول: (**مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال (نام) فى ظل شجرة فى يوم صيف ثم راح وتركها**).

عظيماً فى شجاعته وتوظيفه لأصحابه ← يضع المناسب منهم فى المكان المناسب فليس هناك أجمل مما وصفه الله به:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].

وقد أوحى الله تعالى إلى رسوله أن يقول معبراً عن الحقائق:

(**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**).. شهد له الأعداء قبل الأحباب.

* فعندما قابل ملك الروم (هرقل) ← أبا سفيان (قبل إسلامه) وكان من ألد أعداء النبى ﷺ وسأله عنه: فقال أبو سفيان: هو رجل ذو نسب، لا يكذب، أصحابه يتزايدون ولا ينقصون ولا يرتدون، وهو يأمر بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم..فخشى هرقل منه..وهذه شهادة من عدوين من أعدائه.

* ولكى نتعرف على شخصية النبىّ ﷺ لابد أن نعرف لمحة سريعة عن جذوره القديمة.. ولابد أن نتعرف على البيئة التى بعث فيها والظروف التى جعلت رسالته أمراً حتمياً..فسأعرض نبذة سريعة عن أحوال العرب فى الجزيرة العربية.



الباب الأول
نظرة سريعة على
تاريخ العرب القديم قبل بعثة النبى ﷺ

ينقسم العرب إلى ثلاثة أقسام:

1) العرب البائدة:

وهم الذين بادوا وانقرضوا ولا نعلم عن تاريخهم شيئًا من عاد، وثمود، والعمالقة، وحضرموت.

2) العرب العاربة: (السبئيون)

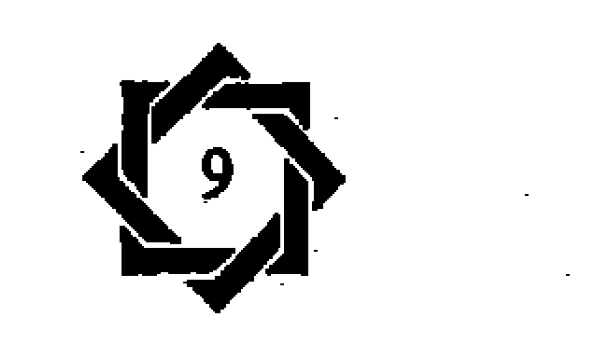
* وهم أصل العرب ←وهم المنحدرون من ولد (سبأ بن يعرُب بن قحطان) ← ومهدهم بلاد اليمن، وبنو عمهم هم العمالقة (بنوعملاق).

* وأصلهم 12 قبيلة تسمى (السبئيون) ومنهم قبيلة (جُرهم) أصهار سيدنا إسماعيل (عليه السلام) هؤلاء هاجروا من اليمن بعد تهدم سد مأرب.

3) العرب المستعربة: (العدنانيون) ← إبراهيم (عدنان بن إسماعيل)

* وهم العرب المنحدرة من نسل إسماعيل (أولاد يعرب) وتسمى (بالعرب العدنانيه) وهؤلاء تعلموا الدين من جدهم وأصل جدهم الأعلى (إبراهيم) -عليه السلام - وكان لا يتكلم العربية ← وُلد فى مدينة (آر) على شاطئ الفرات بالقرب من الكوفة وهاجر منها إلى (حرّان) ومنها إلى (فلسطين) فاتخذها قاعدة لدعوته.

* رحل هو وزوجته (سارة) إلى مصر فأراد بها فرعون كيداً فردّ الله كيده فى نحره فخاف منها، فوهبها (هاجر) التى رهبتها لإبراهيم.



* رزقه الله من هاجر بابنه إسماعيل، وصار سبباً لغيرة سارة فلجأ إبراهيم إلى نفى هاجر، وأذن الله له أن يخرج إلى الحجاز حيث الوادى الأمين المحاط بجبال (فاران)، وأسكنها عند بيت الله المحرم ثم رجع إلى فلسطين.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾[الحج].

* لقد أظهر الله تعالى لإبراهيم أساس البيت الذى بنته الملائكة للناس جميعاً من قبل آدم وكان قد طمس فى الطوفان وغيره فبعث الله ريحاً فكشفته، ولذلك يقول الحق:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[آل عمران].

* جاء إبراهيم مع هاجر وإسماعيل إلى هذا المكان لأول مرة وتركهما به وكان يرتحل إليهما كل فترة – ولا نعلم عدد مرات الارتحال – إلاّ أن المصادر حفظت لنا خمس رحلات.

1) وهذه هى **الرحلة الأولى**.. وعندما وصل بهما إلى البيت قال:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

* لقد عرف إبراهيم مكان البيت، وإنه فى مكان لا زرع فيه ولا ماء، ولكنه لبّى نداء الله. ثم تتلقى السيدة هاجر الأمر من إبراهيم بأن تسكن فى هذا المكان القفر، ثم تسأل إبراهيم عندما بدأ الرحيل: إلى من تتركنا؟

* فقال: إلى الله... فقالت: إذاً فلن يضيعنا الله (رضيت بالله).

* ثم أخذت تسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلّها على موقع للماء (إنها تأخذ بالأسباب) مع علمها أنها فى صحبة المسبب الأعظم، وسعت سبعة أشواط إلى أن تفجر ماء (زمزم) من تحت قدمى ابنها.



* لقد دعا إبراهيم ربه أن يأتى الناس إلى هذا المكان لإقامة الصلاة وأن يكون لهؤلاء المصلين إقامة ومعيشة لها مقومات الحياة من المأكل والمشرب فدعا إبراهيم:

* ﴿ ... فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] ← نلاحظ أنه تعالى لم يقل (أفئدة الناس) وإلاّ لازدحمت عليه كل الناس من كافة المعتقدات،ولكنه قال (أفئدة من الناس) ← أى المسلمون فقط.

* (والهوى) ← قد يكون (هَوَى) ← بمعنى السقوط السريع وكأنه مقهور عليه أو يكون (هَوِى) ← أى ميل القلوب لا ميل القوالب كأن الشوق يجعل الناس مقذوفة إليها، ولقد تقبل الله دعاء إبراهيم ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق (القصص): ﴿ ... أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ... ﴿٥٧﴾ ﴾ كلمة (يُجبى) ← من الجباية وكأنه أمر مفروض، أى أن الثمرات لا تأتى إلى الحرم اختياراً من الناس بل يأتون بها قهراً.

* فهناك مزارع كثيرة فى خارج مكة وقد وُقف إنتاجها وخصص لمكة فقط.

لقد أسبغ الله على أهل الحرم بنعمة الطعام ونعمة الأمن وجعلها الله للناس قياماً وأمناً وجعل فيها (ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ) ← أى ثمرات الفصول الأربعة قادمة من كل البلاد وحالياً نجد فيها ثمرات البترول والنمو الحضارى وكل كماليات الحياة.

2) الرحلة الثانية:

حدثت أحداث هذه الرحلة بعد أن صار عمر إسماعيل 13 سنة قبل ميلاد إسحاق.

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ



﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٠)﴾[الصافات].

*لما لم يجد إبراهيم فائدة من دعوته لقومه قال إنى ذاهب ومهاجر لنصرة دين الله فى كل مكان ومادمت ذاهباً إلى ربى فإنه سيهدينى إلى المقام المناسب لدعوتى.

* ثم أخذ يدعو ربه أن يهب له الذرية الصالحة – لم يتمنَّ الذرية لتكون ذكرى أو عزوة له بل أرادها لتحمل رسالته وترث دعوته إلى الله فقد خشى ألاّ يتسع عمره لتبليغ منهج الله، فبشره الله بغلام وبشره بصفته من قبل وجوده – بأنه سيكون غلاما"حليما" والحلم عادة "صفة الرجال"، ولكن هذا الغلام سيكون حليماً فى صغره. وفعلاً ظهر هذا الحلم فى أول اختبار تعرَّض له حين قال له أبوه إنه رأى فى المنام أنه يذبحه..فماذا قال الغلام؟

(يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ) ←

وهذا هو الحلم بمعنى: أنه يتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاقه.

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ) ← لقد بلغ الغلام مع أبيه السعى أى كبر وهو على نفس سعى أبيه لأن الغلام لا يكلف بالعمل إلاّ على قدر طاقته وتحمله،وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع أبيه بقدر ما يقدر عليه ويترك ما لا يقدر عليه أبوه.

(قال يا بنى إنى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى) ← وهنا يظهر الحلم فى عظمة الردِّ، فهو لم يقل: افعلْ ما تريد ولكنه قال:**(افعلْ ما تؤمر)**←

لأن طاعته هنا ليست لمرادات أبيه إنما هى طاعة لله فهو يدرك تماماً أن أباه تلقى الأمر من الله، وإن جاء الأمر فى شكل رؤيا فهو يعلم رغم صغره – أن رؤيا الأنبياء وحى وحق – لقد أكَّد إسماعيل إدراكه لهذا الابتلاء.

(فَلَمَّآ أَسۡلَمَا) ← هما معاً استسلما لأمر الله وأذعنا لحكمه وسلَّم كلٌّ منهما زمام الأمر لله – فهمَّ إبراهيم بالذبح وإسماعيل بالانقياد.



* لقد ابتلى إبراهيم فى شبابه - حين أُلقى فى النار - فنجح فى الابتلاء. وفى هذه المرة وهو شيخ كبير الابتلاء فى ابنه الذى هو أحب إليه من نفسه والذى تمناه من الله.

(وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ) ← أى ألقاه على وجهه حتى لا يراه أبوه ساعة ذبحه فتأخذه الشفقة به فلا يذبح، ولكى لا يراه إسماعيل فيوغر صدره عليه.

وعندما ألقى الولد على وجهه، وأخذ إبراهيم السكين فى يده هنا ناداه ربه ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات].

ناداه الله بأن يرفع يده عن ولده..لقد نجحا فى اختبار قوة العقيدة والانصياع التام لأمر الله..وجاء الفداء.

(وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) ← وهو الكبش الذى أنزله الله فداء لإسماعيل.

وتركنا عليه فى الآخرين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات].

لقد استحق إبراهيم هذه المنزلة فى جميع الأمم من بعده أن يُسلِّموا عليه كلما ذكر فيقولون (سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ).

* فلو ذبح إبراهيم ولده ← لصارت سنة من بعده أن يتقرب الانسان إلى الله بذبح ولده ولكن بصبر إبراهيم عوفى الولد والوالد من هذا الابتلاء وعوفى البشر من بعده من هذه المحنة، فكلما ذكر قلنا (عليه السلام) لأنه حمانا من هذا الموقف الصعب.

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ) ←

* وكذلك كما فعلنا مع إبراهيم نجزى كل محسن - وهو الذى لا يقف عند حدّ الواجب المطلوب منه إنّما يتعداه إلى الزيادة من جنس ما فُرض عليه وكلف به فهذا هو الإحسان - أن نتقرب إلى الله بأكثر مما فُرض علينا دليل على عشق التكاليف.



* هذه القصة تؤكد لنا أن الذبيح هو إسماعيل وليس (إسحق) - كما يدّعى أهل الكتاب - لأن قصة الذبح حدثت فى أرض الحجاز (عند البيت الحرام) ولم تحدث فى أرض الشام - والدليل من التوراة ←

* أنه جاء فى الإصحاح (23 فى سفر التكوين) ← (وأوحى إلى إبراهيم أن اصعد بابنك الوحيد جبل فاران وقدمه قرباناً لى) - والمعلوم أن إسحق لم يكن أبداً ابنه الوحيد فقد وُلد إسماعيل قبله بـ 14 عاماً وجاء ذلك فى الإصحاح (24) (وُلد إسحق وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة).

أيضاً لقول النبى ﷺ (أنا ابن الذبيحين إسماعيل وعبد الله).

الرحلة الثالثة:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾[إبراهيم].

* زار إبراهيم إسماعيل بعد أن تزوج من جُرهم ولكنه لم يجده، كان مسافراً فى تجارة فاشتكت امرأته من ضيق العيش، فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغيّر العتبة..ففهم إسماعيل مراد أبيه فطلقها.

الرحلة الرابعة:

* كانت بعد أن تزوج إسماعيل من امرأة أخرى وجاءهما إبراهيم فلم يجد إسماعيل أيضاً.. وأثنت الزوجة على حياتها فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يثبت عتبة بابه.

الرحلة الخامسة:

* عندما جاء الأمر لإبراهيم أن يرفع هو وإسماعيل القواعد من البيت.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ



أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

* جاء الأمر بأن يرفع إبراهيم البعد الثالث فوق القواعد وهو الارتفاع.. وبمجرد أن فرغا أرادا أن تمتد حلاوة التكليف إلى ذريتهما، وأن يصل منهج الله إلى كل من فى الأرض، ويستمر التكليف فى ذريتهما إلى يوم القيامة.

* ثم دعا إبراهيم أن يرسل لهم رسولاً منهم يبلغهم منهج السماء..وفى هذا الدعاء رد على اليهود الذين أحزنهم أن الرسول ﷺ جاء من العرب وأن الرسالة كان يجب أن تكون منهم..فهم جاءوا من ذريه إسحق، ومحمد ﷺ جاء من ذرية إسماعيل..فلا حجة لما يدعونه أن الله فضلهم على سائر الشعوب، إنما الحقيقة أن الله تعالى سلب منهم النبوة لأنهم ظلموا فى الأرض والله لا يعطى عهده للظالمين..فأراد الحق تعالى أن يقول: إن هذا النبى من نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام..جاء النبى ﷺ ← يتلو على قومه آيات القرآن ويعلمهم كيفية تطبيق المنهج ويطهرهم. أى يقودهم إلى طريق الخير.

ثم إستمر ابراهيم في الدعاء قائلاً:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

❖ والفرق بين (البلد) و(بلداً) هو:

* أن كلمة (بَلَدًا) ← تعنى أن المكان كان قفراً ومهجوراً ← فيكون دعاء إبراهيم أن يصبح هذا المكان بلداً مسكوناً، وأن يكون آمناً، وأن يكون فيه رزق لمن يسكنه / والدعاء بالأمن هنا المراد به – (**الأمن العام**) ← أى عدم الترويع أو الخوف عموماً.

* أما قوله فى سورة إبراهيم (ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا) ← هذا الدعاء بعد أن صار المكان عامراً أى أصبح بلداً وآمناً فيكون الدعاء بالأمن هو (الأمن الخاص) ← لكل خلق الله – ففى هذا المكان يحرّم قطع الشجر، ويحرّم الصيد، حتى الجماد (الحجر الأسود) فهو يُقبّل ويحترم، حتى فاعل الجريمة لا يمسّ – أى أنه أمن يشمل كل الكائنات، وقد حرّم الله هذا المكان إلى يوم القيامة كما جاء فى حديث النبى ﷺ يوم فتح مكة.

(إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وأنه لا يحلّ القتال فيه، ولا يُعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلاّ من عرفها، ولا يختلى خلاها) حديث.

* والمعنى: إن كل بلد يتحقق فيه الأمن العام، ولكن هذا البلد يتحقق فيه الأمن الخاص الذى يشمل كل الكائنات.

* وهذا الأمر – بتحقيق الأمن العام، والأمن الخاص ← هو أمر تشريعى تكليفى (عُرضة أن يطاع أو أن يُعصى) وليس أمراً كونياً تسخيرياً (بكنْ)

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة].

* وبعد ذلك جاء الأمر من الله تعالى فى أن يؤذن فى الناس بالحج ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج].

* لم يشأ الله تعالى أن تقتصر رؤية بيته المحرم وزيارته على أهله والمجاورين له بل أراد أن تشيع هذه النعمة بين خلقه جميعاً فيذهبوا لرؤية بيته فأمر إبراهيم (عليه السلام) بأن يؤذن فى الناس ليُعْلِمَهم بهذه الشعيرة.



* وتعجب إبراهيم من سيستمع إليه فى الصحراء الواسعة الشاسعة والوادى غير مسكون، فناداه ربه: أن عليك الأذان وعلينا البلاغ.

* وقال كيف أقول؟ فقال الله (**قل يا أيها الناس: كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق**) فسمعه من بين السماء والأرض حيث تولى الله تعالى إيصال هذا النداء إلى كل الناس - فى كل زمان وكل مكان - وسيسمعه البشر جميعاً وهم فى عالم الذّر وفى أصلاب آبائهم - فأدِّ ما عليك واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك.

(وَأَذِّن - يَأْتُوكَ) ←

* أى يأتى الناس رغماً عنهم ودون اختيارهم وكأن قوة خارجية تجذبهم للحج لأن الله حكم فيه بقوله: (يَأْتُوكَ) - أما فى باقى الأركان فقد تركت لاختيار المكلف.

* وقد ثبت أن (موسى) حج بيت الله - أمّا (عيسى) ← فلم يحجُ لأنه سيأتى فى آخر الزمان ويحجّ البيت ويزور قبر النبى ﷺ لأنه لم يمت بعد.

(يَأْتُوكَ رِجَالًا) ← أى يسيرون على رجليهم وهم القاطنون بجوار الحرم.

(وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ) ← والضامر هو الفرس أو البعير المهذول من طول السفر.

(يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) ← أى يأتيه من كل طريق بعيد.

(لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) ←المنافع المادية الدنيوية ← كالبيع والشراء أو المنافع الدينية الأخروية← كالالتزام التام بكل أوامر الله ونواهيه والتوبة و...

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) ← لأن كل أعمال الحج مصحوبة بالتلبية فهو يلبّى نداء الله أولاً ولا تشغله الدنيا عنه خاصة فى الأيام المعلومات وهى أيام التشريق (يوم النحر وثلاثة أيام بعده).

(عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ← أى يشكرون الله على أنه خلق لهم الأنعام وسخرها لهم - فلولا هذا التسخير ما حدث الانتفاع بها.



(فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ) ← البائس ← هو الذى يظهر عليه الفقر، أمّا الفقير ← فهو محتاج الباطن وإن كان ظاهره اليُسر.

* فمن رحمة الله أنه جعل الغنى هو الذى يبحث عن الذبائح ويذبحها ثم يتحمل مشقة البحث عن الفقير ليعطيه وهو مستريح - فهذا من شرف الفقير - أن جعله الله ركناً من أركان إسلام الغنى.

* (ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ) ← أى ليقضوا حوائجهم من - الحلق والتنظيف - ويزيلوا الأدران التى لحقت بهم بعد التحلل من الإحرام.

* (وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ) ← إن كان عليهم نذور لله فعليهم الوفاء بها.

* (وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) ← يعنى طواف الإفاضة بالبيت القديم.

وكلمة العتيق هنا تعنى أنه غالٍ ونفيس فهو أقدم وأندر بيت، ويكفى أن رؤيته تغفر الذنوب، كذلك فهو معتوق من السيطرة والعدوان فقد حفظه الله من الاعتداءات.

صورة المجتمع العربى الجاهلى

أولاً: الحالة السياسية (الإمارة وصور الحكم)

1) الملك في اليمن:

* فى سنة 300م توالت الاضطرابات على مملكة سبأ وحضرموت وتتابعت الحروب الأهلية وانهارت التجارة لسيطرة الرومان على طريق التجارة البحرية فأدى هذا الضعف إلى← دخول الرومان فى عدن وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن.

* فى سنة 450 م وقع السيل العظيم الذى هدّم (سد مأرب).

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[سبأ].

(لِسَبَإٍ) ← هو اسم علم على رجل هو (سبأ بن يعرب بن قطحان) كان أول من سبى فى العرب وأخذ من الناس غنائم ... وهو أول ملوك اليمن (التبابعة) ومفردها (تُبع أى ملك) وسكن بعض أولاده أرض العراق فكانت منهم الأكاسرة جمع كسرى (ملوك الفرس)، ومنهم القياصرة (جمع قيصر ملوك الشام).

﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[ق].

ملحوظة:

* يُسمى ملك مصر (الفرعون أو المقوقس فيما بعد)، وملك الحبشة ← النجاشى، وملك الهند ← بطلميوس.



* عاش قوم سبأ فى نعمة وسعة فى أرض مأرب باليمن وكان فى مساكنهم (آية) واضحة تدل على قدرة الله وعلى وجوب شكره، هذه الآية هى:

(جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) ←

ومادام الله قد وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ← فلابد أن يكون فيهما عجائب. فقالوا: إن هذه البساتين الممتدة يميناً وشمالاً كانت زاخرة بشتى أنواع الثمار وكانت المياه تجرى بين جبلين فسدّوا ما بينهما ببناء محكم جداً هو (سدّ مأرب) وجعل الله فيهما آيات معجزات فكان لا يُرى فيها آفات ولا حشرات ولا زواحف وكانت النساء يسرن تحت الأشجار وعلى رأسهن (المكتل) فتمتلئ بالثمار التى تتساقط فى المكاتل بدون جهد منهن... إذًا كان لا عمل لهم فى ناتج تلك الجنات إلا أن يشكروا المنعم ليزيدهم من الخيرات.

(كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ) ←

* هذا الرزق هو رزق الله بدون أسباب من العباد أى أنه رزق مباشر مثل رزق أهل الجنة يأتى بلا عمل ولا تدخل من العباد (مثل رزق بنى إسرائيل فى التيه من المنّ والسلوى).

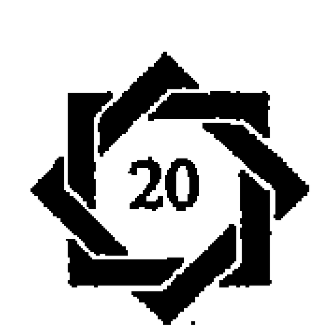
(وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ) ←

* فأنتم لا عمل لكم إلا شكر الله ليزيدكم من الخيرات وما فى هذه القرية فكله طيب تأكلوه هنيئاً مريئاً – لأنه رزق الله المباشر وكل ما فى القرية طيب – الماء والهواء والتربة – ولكن إياكم أن تغتروا بالنعمة وتظنوا أنها من عملكم أو أنكم أوتيتموه على علم منكم.. ثم لم يقصر النعمة فى الدنيا فحسب – بل تعدت نعمته عليهم إلى الآخرة (وَرَبٌّ غَفُورٌ) يتجاوز عن زلاّتكم.

* فماذا كان ردّ فعلهم؟

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) ←

* أعرضوا عمّا أمروا به..زعموا أنهم يأكلون من سعيهم ومهارتهم ثم لم يشكروا الله على النعم، أنساهم الترف فأعرضوا بتعمد.



والحق يقول عن هذا الإعراض المتعمد: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه).. وسوف يأتى الجزاء على قدر الإعراض.

* وكانت نتيجة الإعراض ←أن تهدم السدّ العرم وأرسل الله عليهم سيلاً جارفًا اجتاح أراضيهم فأفسد مزارعهم وأجلاهم عن ديارهم.

(وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) ←

* ومن العجيب أن الله تعالى ← جعل من الماء كل شيء حيّ ولكنه جعله أيضاً وسيلة للإهلاك (أهلك به قوم نوح، وفرعون وجنوده، وأهل سبأ) - وهذا من طلاقة القدرة حيث (يوجه الشيء للحياة فيحيا وللهلاك فيُهلك).

* ثم تبدلت الجنتان بجنتين آخريين من صفاتها أنهما:

(ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ) ← ذواتى ثمار ← لكنها ثمار مُرة تعافُها النفس، وأشجارها (وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) ←وشجر مليء بالشوك لا ثمر فيه - والسدر هو شجر النبق وهو قليل الفائدة..وسماها الحق (جنّة) على سبيل التهكم.

* ومن رحمة الله أنه حتى فى عقابه لم يجعلها خاوية تماماً.

(ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ) ←

* أى ما سبق ذكره من الأكل الخمط، والأثل، والسدر كان جزاء كفرهم لنعمة الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جهدهم وسعيهم.

* ثم يقول الحق أنه لا يجازى إلاّ (ٱلْكَفُورَ) ← بصيغة المبالغة ولم يقل (الكافر) من رحمته بعباده فهو لا يجازى إلى المُصر على الكفر المتمادى فيه.

* ثم يمنّ الحق عليهم بنعمة أخرى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ].



* جعل الله بين أهل سبأ وبين القرى التى بارك فيها (وهى مكة وبلاد الشام) قرى حيث إن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين الشام واليمن فجعل الله لهم فى الطريق (قرى ظاهرة) أى متقاربة متواصلة كانت بمثابة استراحات فى الطريق وذلك لبعد المسافة بين اليمن والشام فأراد الحق أن ييسر لهم تلك الرحلات وأن يقطعوها بلا مشقة.

(وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ) ←أى جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة..فالقرى ظاهرة لهم فى سيرهم وقريبة منهم يرونها فى طريقهم بلا مشقة موزعة على طول الطريق..وهذا يعنى أنهم لا يحتاجون لحمل كثير من الزاد لأن القرى فيها مؤنة الطريق، ويعنى أيضاً أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل.

(سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ) ←

* ويكون السير فى الأيام وفى الليالى آمناً، ويجدون فى الطريق (محطات للقيلولة، ومحطات للبيتوتة)، ولا يروعهم شىء من الناس أو من الوحوش.

﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ].

* لم يعجبهم أن قارب الله بين القرى، ولم يقدّروا هذه النعمة، بل بلغ بهم الجهل والحماقة أنهم دعوا الله تعالى أن يباعد بينهم وبين القرى المباركة، ويجعل الطريق صحارى بدلاً من تلك القرى العامرة (مثلهم فى ذلك مثل بنى إسرائيل حين سئموا طيب العيش فطلبوا البصل والثوم بدلاً من المنّ والسلوى).

* وسبب هذه الدعوة أن الأغنياء يريدون أن يحرموا الفقراء غير القادرين من السفر للتجارة معهم..لأن كثرة القرى والاستراحات يُسهل السفر على الفقراء (حيث يركبون الدواب الضعيفة) فطلبوا أن يُحرموا من هذه الراحة لكى يحتكروا هم التجارة ويستأثروا بها دون غيرهم ← فكانت نتيجة هذا الجشع أن جعلهم الله أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم، ومزقهم الله كل ممزق بعد أن كانوا أمة متحدة فجعلهم الله عبرة لغيرهم.



* تمزق أهل اليمن فاحتلها الأحباش وحلّوا محل بنى حميَر، وذهب المناذرة إلى العراق (المنذر بن نعمان)، وذهب الغساسنة إلى الشام، ونزلت خزاعة إلى حجاز مكة، والخزرج الى يثرب ومن بقى منهم فى اليمن استعمرهم الحبشة على يد أبرهة وأرياط.

2) ملك المناذرة في الحيرة بالعراق:

كانت الفرس تحكم بلاد العراق - منذ استيلاء قورش سنة 550 ق.م عليها. ثم أخذت الولايات العربية تتناوب عليها إلى أن هاجرت القبائل اليمنية بعد دمار سد مأرب ولكنه حكم تحت وصاية الفرس ليظل عرب العراق متحفزين لعرب الشام المحكومين من الرومان - واستمرت الأوضاع هكذا حتى سنة 630 ميلادية - وبعد البعثة النبوية فُتحت على يد (خالد بن الوليد) - وكان آخر ملوكهم (النعمان بن المنذر).

3) ملك الغساسنة بالشام:

فى القرن الثانى الميلادى تدفقت هجرات القبائل العربية من اليمن بعد دمار سد مأرب فسارت إلى مشارف الشام واستقرت بها، (ثم سيطر عليهم الرومان) ليكونوا منهم جبهة ضد الفرس، وذلك بعد أن تنصّرت هذه القبائل (وهم الغساسنة) وكانت عاصمتهم (بصرى) وظل هذا الوضع قائماً حتى فتحت بلاد الشام فى موقعة (اليرموك سنة 13هـ) فى عهد عمر بن الخطاب.

4) الإمارة بالحجاز (العدنانيون) خزاعة وبنو بكر:

كانت ولاية مكة لإسماعيل وأبنائه حتى وفدت قبيلة (جرهم) فى القرن (20 ق. م) فانتقلت الزعامة لهم وظلت معهم حتى أواسط القرن الثانى الميلادى ← حيث ضعفت جرهم وجارت وظلمت فحاربتهم خزاعة وبنوبكر وأجلوهم من مكة (بعد حكم دام 21 قرنًا).

* جاءت هذه القبائل مهاجرة من اليمن بعد دمار سد مأرب، واستمرت ولايتهم على مكة وكانوا يقيمون بأمر الحجيج، وإنساء الأشهر الحرم.



وفى سنة 440م استولى (قصىّ بن كلاب) على أمر مكة، حيث جمع رجالاً من قريش وأخرجوا خزاعة من مكة – وبذلك صارت السيادة التامة لقريش بزعامة (قصىّ) وهو الرئيس الدينى للبيت، وأول أمير من قريش على مكة.

من مآثر قصىّ بن كلاب:

1) تأسيس دار الندوة – ملحقة بالمسجد لتكون مقراً لمهام الأمور وهو رئيسها.

2) كان له اللواء (أى لا تعقد راية ولا لواء لحرب إلاّ بأمره).

3) قيادة القوافل التجارية.

4) حجابة الكعبة وسدانتها فلا يفتح باب الكعبة إلاّ هو.

5) سقاية الحجيج.

6) رفادة الحجيج ← أى إطعامهم.

وكان قصىّ قد فرض على قريش خراجاً تخرجه فى المواسم لخدمة الحجيج.

* وبعد أن مات قصىّ اقتسم أبناؤه الثلاثة (عبد الدار، وعبد العزى، وعبد مناف) هذه المهام – فتولى عبد مناف ثم من بعده ابنه (هاشم) أمر السقاية والرفادة وبعد موته تولاها من بعده ابنه (عبد المطلب بن هاشم) جدّ النبى ﷺ.

* كانت أحوال قريش الاقتصادية مستقره فكانوا يعيشون فى رغد على خلاف باقى القبائل التى كانت تعيش على شظف العيش وكانوا يعيشون على رحلتى الشتاء والصيف.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش].



ثانياً: الحالة الاجتماعية في المجتمع العربى الجاهلى:

* نشأت فى المجتمع الجاهلى كثير من العادات السيئة التى هبطت بالمجتمع العربى كثيرًا:

1- فكان القمار وشرب الخمر من العادات المتأصلة فيهم ثم حرّمها الله تدريجياً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[المائدة].

كل هذه الأشياء حرمها الله تعالى لأنها خبث وقذارة حيث إن الخمر تُذهب العقل والعقل هو الذى يميز بين الإنسان والحيوان.. فالحيوان تُحفظ حياته بالغريزة التسخيرية أمّا الإنسان فله أن يختار بين البدائل ولا يكون هذا الاختيار إلاّ بالعقل، ولذلك حرَّم الله تغييبه حيث إن غريزته لا تقوى على حمايته ولا على حماية الآخرين منه.

2- كانت أحوال المرأة فى غاية التدهور والإسفاف، ليس لها أى حقوق مالية، لا تمتلك ولا ترث بل يرثها الرجل مثلها مثل أى متاع..وقد حرَّم الحق كل هذا فجعل للمرأة نصيباً مفروضاً حدَّد قيمته وجعله من حدود الله.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء].

* لقد كان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات وعنده امرأة جاء وليّه وألقى ثوبه على امرأته فتصير ملكاً له، وإن لم تقبل فإنه يرثها كرهاً، وإن لم يكن له هوى فيها فهو إمّا يحبسها عنده حتى تموت، أو يزوِّجها لرجل آخر ويأخذ مهرها لنفسه..**لذلك جاء القرآن بالقول الفصل:**



* بأنه لا يحق لأحد أن يمنعها من حقها الطبيعى فى أن تتزوج ممن تريد بعد انقضاء عدة زوجها. ثم أمر بالمعاشرة بالمعروف.

1) نكاح الاستبضاع:

* وكان هناك نوع من أنواع النكاح يسمى (نكاح الاستبضاع) - فكان يطلب للمرأة الأشراف ليطؤوها من أجل أن تنجب ولداً يرث صفات الكمال التى يحملها الواطؤون لها.. فحرَّم الله كل هذا بقوله:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [النساء].

* أراد الحق حماية الأعراض..فلا يلغو أحد فى عرض الآخر..فمن تأتى بالفاحشة تحبس فى البيت وتمنع عن الحركة الخارجية حتى يأتيها الموت أو يقام عليها حدّ الرجم.

2) نكاح زوجة الأب:

أيضًا كان هناك قضية منتشرة فى هذا المجتمع الجاهلى وحرَّمها الإسلام تحريماً قاطعاً فى (سورة النساء ص 81) آية 22 (قضية النكاح).

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء].

* كان الولد ينكح زوجة أبيه (إن كانت غير أمة)..ثم أراد الحق أن يقطع على الولد أى أمل فى التطلع إلى امرأة أبيه بل يجب أن ينظر إليها كأنها أمه (إلاّ ما قد سلف) ← أى أن الزمن الجديد بعد الإسلام لا يحلّ أن يكون فيه مثل هذا الحدث حتى لو كان عقد النكاح قد تمّ قبل الإسلام لذلك جاءت (ما) ولو جاءت (من) لكان الحكم ←أن من تزوجها قبل الإسلام تبقى معه ولكن (ما) تعنى أنه لا يصح فى المستقبل أن يوجد أى شىء البتة من هذا النكاح ويجب التفريق بين الزوجين.



* ثم يصنف الحق هذا النكاح بأنه (إِنَّهُۥ كَانَ) ← أى قبل أن يُحَرّم.

* (فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا) ← أى أن الفطرة تأبى مثل هذا الفعل إلاّ أن الناس عندما فسدت فطرتهم أقبلوا على هذه الأفعال ولذلك كان يُسمى مثل هذا النكاح فى الجاهلية بنكاح (المقت) والولد الذى ينشأ منه يسمى (المقتى) أى المكروه.

* ولذلك جاء الحكم بتحريم ما اجترأت عليه الجاهلية وتجاوزت وتخطت فيه الفطرة.

3) نكاح زوجة الابن من الصلب:

* أيضاً جاء الإسلام وحرَّم الزواج من زوجة الابن إذا كان من صلبه.

﴿ ...وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء].

وكلمة (مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ) ← تدل على أن هناك أبناء ليسوا من الأصلاب وهم أبناء التبنى وكانت هذه المسالة شائعة فى الجاهلية، فجاء الإسلام وحرَّم أن ينسب لأحد طفلاً لم ينجبه لأنه سيصير أخًا لبناته ويدخل على المحارم..وجاء هذا النهى - بعد ذلك - على يد رسول الله عندما تبنى مولاه (زيد بن حارثة) وأراد الله يُحرّم التبنى فقال:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب].

وهذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحدًا ولا حتى رسول الله.

* لقد تصرَّف الرسول ﷺ فى هذه المسألة بالكمال البشرى والعدل البشرى لأنه أراد أن يعوِّض زيدًا عن والده لأنه اختار أن يبقى مع النبىّ فكان ذلك وفاء لزيد ولكن الله صوّب هذه المسألة بالكمال الإلهى والعدل الإلهى فلا غضاضة أن يُصوب الكمال البشرى بالكمال الإلهى - لا العكس - لذلك أنزل الله تعالى:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ...﴿٥﴾ ﴾[الأحزاب].



فما فعله الرسول هو (قسط) أى عدل وما عدّله الله فهو (أقسط). ولا يؤخذ هذا على النبى ﷺ على أنه خطأ لأن الذى صوَّب هو الله الذى أرسله وقد صوّب له فعلاً فى إطار البشرية وفعل البشر لا يتساوى مع فعل الله.

4- وكانت الدعارة، والبغاء، والمجون، والسفاح منتشراً وكذلك اتخاذ الأخدان، فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الفواحش بقوله تعالى:

﴿ ... فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ... ﴾ [النساء].

وحرَّم ذلك على الرجال أيضاً بقوله تعالى:

﴿ ....وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ...(٥) ﴾[المائدة].

5- وكان وأد البنات (أى قتلهن أحياء) مشهوراً فى المجتمع المكّى فجاء القرآن منددا بهذا:

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾[التكوير].

* وكانوا يحزنون إذا رزقوا بالبنات ويستحيون من لقاء الناس، فإمّا يمسكها على إهانة أو يدفنها تحت التراب كما جاء فى سورة النحل (آية 58، 59).

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾ [النحل].

* كانوا يستقبلون البشارة بالأنثى استقبال الناقمين الكارهين فتسود وجوههم من شدة الانقباض من الغيظ ويكظم غضبه حتى تنتفخ عروقه ويحدث له احتقان.

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل].

يتخفى من القوم مخافة أن يقال له أنجبت بنتًا..وهو متردد لا يعرف ما يفعل بها؟ أيحتفظ بها مع الهوان والمذلة؟ أم يدسّها فى التراب ويدفنها فيه حيّة؟



* فساء ما يحكمون فى الحالتين - (حالة الإمساك على مذلة أو حالة الدفن فى التراب).

* ملحوظة: (لقد اكتشف العلم الحديث أن تحديد جنس الجنين يرجع إلى الرجل وليس إلى المرأة) فهو شىء فوق أسبابه وهو إنما يُقدِّره الله له .

❖ **فبعث الله رسوله ﷺ يقول:**

(من كان له ثلاث بنات فأدبهن وعلمهن ورحمهن كان له الجنة) حديث .

* فنظم الله أمر المرأة ورفع قدرها وصان كرامتها وجعل الاهتمام بها من أسباب دخول الجنة.

6- أيضا كان قتل الأولاد (ذكورًا أو إناثًا) منتشرًا لوجود الفقر أو توقع المجاعات لانقطاع المطر والقحط الشديد. فحرم الإسلام ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام].

* الشركاء كانوا يزينون للناس قتل أولادهم..فإن كانوا فقراء يخوفونهم من ازدياد الفقر عليهم، وإن كانوا أغنياء يقولون لهم إن الأبناء سيأخذون منكم أموالكم ويفقرونكم، أو أنهم قد يقتلون فى الحروب بعد أن يكبروا.

* فحرم الإسلام قتل الأولاد فى الحالتين: إمّا فقر موجود بالفعل أو فقر متخوف منه.

﴿ ... وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].

هنا (الإمْلاَق) وهو الفقر موجود بالفعل..إذًا فهم مشغولون برزق أنفسهم، لذلك يطمئنهم الحق بقوله: (نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) أى نرزقكم ثم نرزقهم.



﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء].

* وفى هذه الحالة (الإملاق) غير موجود ولكنهم يتخوفون مجيئه مع مجيء الأولاد فيطمئنهم الحق بقوله لا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر فأنتم تملكون رزقكم وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم.

7- كانت العصبية القبلية هى أساس المجتمعات (**انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا**) فجاء الإسلام وقال: انصر الأخ المسلم إن كان مظلوماً وأمّا إن كان ظالماً فامنعه من الظلم وبذلك تكون قد نصرته.

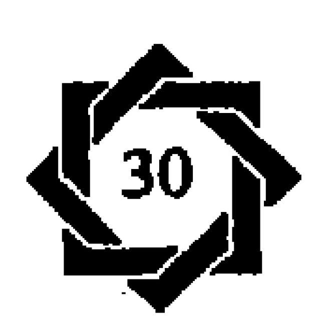
ثالثاً: الحالة الدينية في بلاد العرب:

* كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم - يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائره..ولما طال الزمن، وفترت الرسل، وانقطع الوحى نسوا وحرفوا فى أصول الدين فانحرفوا إلى الشرك (الأوثان - والأصنام).

1- الوثنية:

نشأت فيهم هذه الفكرة لما رأوا أن عباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء هم أقرب خلق الله إليه وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة، ولذلك تظهر على أيديهم بعض الخوارق والكرامات..فظنوا أن الله أعطاهم شيئاً من القدرة والتصرف فى بعض الأمور التى تخص الله وحده، فهم بذلك يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله وبين عباده، فلا ينبغى لأحد أن يعرض حاجته على الله إلاّ بواسطة هؤلاء لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يردّ شفاعتهم، فلا ينبغى القيام بعبادة الله إلاّ بواسطتهم، لأنهم بفضل مرتبتهم سيقربونهم إلى الله زلفى.

﴿ ...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ...﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].



هؤلاء المشركون بمجرد قولهم إن {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} فهذا اعتراف منهم أن الله هو الذى ينفع ويضر ولكنهم يدَّعون هذا الادعاء الباطل ويتمسكون به بالرغم من أن قضية الشفاعة هذه قضية لا وجود لها فهو سبحانه لم يبلغهم أن هناك شفعاء يتشفعون لديه بل هو القائل:

﴿ . . . قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ . . . ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ . . . ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجرات].

أى أن قضية الشفاعة هذه قضية مفتراة لا وجود لها لذلك فهى ليست فى علم الله والحق سبحانه منزَّه أن يوجد فى ملكه قضية حقيقية ولا يعلمها، ومنزَّ على أن يُشرك به، لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه، وسبحانه القوى القادر لا يحتاج إلى أحد لمساعدته فى شيء.

* إذًا فإن كان من تقدم له الشفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الشفعاء.فهل هناك شفاعة دون إذن المشفوع عنده؟ يقول سبحانه فى (سورة طه): ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[طه].

* هم جعلوا قبور هؤلاء الصالحين وأضرحتهم ومواضع نزولهم أماكن مقدسة يقدمون إليها النذور والقرابين، ويخضعون لهم بالطاعات، وهذه الأضرحة والمقرّات ← هى التى تسمى بالأوثان.

أما عبادة الأصنام والتماثيل:

* فأول من أتى بها من الشام هو (**عمرو بن لحىّ**) **الخزاعى**..وكان عمرو محترماً فى قومه يتبعون ما يشرّعه لهم. سافر (عمرو بن لحىّ) إلى الشام فرآهم يعبدون الأصنام فظن أنه حق – لأن الشام محل الرسالات والرسل فأحضر معه صنم (هُبل) ووضعه فى جوف الكعبة ودعا أهل مكة إلى عبادته فأجابوه، ثم انتشرت الأصنام فى بلاد العرب.

* ويُذكر أن (عمرو بن لحىّ) كانت له رئى من الجن، فأخبرته الجن أن أصنام قوم نوح (**وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسرًا**) مدفونة فى جدة، فأتى بها ودفعها إلى القبائل



فاتخذوها آلهة، وهكذا انتشرت الأصنام حتى صار لكل قبيلة صنم، وامتلأ المسجد الحرام بالأصنام، ولما فتح الرسول ﷺ مكة وجد حول الكعبة 360 صنماً أسقطها جميعاً وأمر بحرقها.

* وهكذا كان (عمرو بن لحيّ) أول من غيّر دين التوحيد واتبعه العرب ظانين أن ما أحدثه (عمرو) بدعة حسنة فكانوا يحجون إلى هذه الأصنام والأوثان ويطوفون حولها ويذبحون لها على أنصابها أو يذبحون بأسمائها فى أى مكان آخر وهذا ما حرّمه الله تحديداً قاطعاً فى قولة تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...(١٢١) ﴾ [الأنعام].

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ...(١١٩) ﴾ [الأنعام].

* ومعنى أن نذكر (اسْمُ اللَّهِ) فقط (وليس اسم الشركاء) على الذبيحة ← أى أنك لم تجترئ على هذا الذبح إلاّ لأن الله سخرها لك.

* أيضاً حرّم الحق ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ (٣) ﴾ [المائدة].

كانوا أيضا يخصّون هذه الأصنام بنصيب من حرثهم وأنعامهم، وكانوا يخصون الله أيضا بنصيب منها - هذا النصيب كان ممكن نقله إلى الشركاء، أمّا ما يخص الشركاء فلا ينقل بأى حال إلى الله (المقصود بنصيب الله هو الصدقات).

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام].

* فعلى الرغم من أن الله تعالى هو الذى ذرأ (أى خلق) الزرع والأنعام إلا أنهم يتصرفون فيه بالتحليل والتحريم كيف يشاءون.. فقسّموا الزرع والأنعام قسمين -جعلوا لله قسماً وللشركاء قسماً آخر، ولم يتركوا الذى خلق ليقسّم هو!

وياليتهم أنصفوا ورضوا بقسمتهم فيذهب قسم الله للصدقات على الفقراء، بل كانوا يسرقون حق الله..فإذا ما جاءت آفة للزرع أو للأنعام فأهلكته فهم يأخذون ما خصصوه لله ويعطونه للشركاء ويقولون: إن الله غنى.

أى بالرغم من أنهم هم الذين قسّموا إلا إنهم لم يوفوا بالقسمة التى وضعوها.

وكان من أنواع التقرب إلى الشركاء أيضاً ← **النذور في الحرث والأنعام:**

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

* وهنا تمادى فى الشرك..فهم قسموا الحيوانات وحجزوا قسماً للأصنام وهذا القسم لا يأكل منه أحد ولا يؤخذ لبنها ولا يركبها أحد أى لا ينتفع بها إلاّ الشركاء.

* كل هذا الافتراء فعلوه، ثم قالوا إنه متلقى من الله ومأمور به منه سبحانه.

* ثم هناك افتراء آخر وهو:

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام].

يقودهم الباطل إلى باطل آخر ← ادّعوا أن ما فى بطون هذه الأنعام – من لبن وأجنة (إذا نزلت حية) فهى للذكور فقط، محرّمة على النساء.

وإن مات منها شيء فيمكن للنساء أن يشتركن مع الرجال فيها.

* وفى الأنعام ابتدعوا أموراً زائدة فى الحلال والحرام نزل فيها قول الحق: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة].



(بَحِيرَةٍ) ← هى الناقة التى تشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد.

(سَآئِبَةٍ) ← هى الناقة المقدمة كنذر (إذا برئ أحد من مرض ،أو قدم من سفر أو....) فهى نذر سائب ولا يتعرض لها أحد.

(وَصِيلَةٍ) ← كانت الناقة إذا ولدت ذكرًا أكلوه وإذا ولدت أنثى يستبقونها كوعاء للنسل، أمّا إذا ولدت الناقة فى بطن واحدة ذكراً وأنثى فهم لا يذبحونهما لأن الأنثى وصلت أخيها فحرَّمته عليهم.

(حَامٍ) ← وهو الفحل الذى يُلقّح الإناث لو أنتج من صلبه عشرة أبطن يتركونه ينطلق كما يريد يحرم ذبحه ويُحمى ظهره من أن يُركب.

* وكل هذه الأمور من اختراعات أهل الكفر يفترون بها على الله، فالحق سبحانه خلق هذه الأنعام ليستمتع بها الإنسان وسخرها له وليستفيد الكل بها.

2-الحُمس:

1- الوقوف بالمزدلفة بدلاً من عرفات:

هناك أيضاً بدعة ابتدعها أشراف مكة المعروفون بـ (الحُمس) أى المتحمسين لدين إبراهيم (عليه السلام) – لقد رأت قريش أنهم لا يُطالبون بما يُطالب به سائر الناس – لأنهم أهل الحرم – ولذلك لا يذهبون مع الناس إلى عرفات– والله يريد بالحج المساواة بين الناس – فغيروا شريعة الحج بالنسبة لهم فقط. فهم يقفون فى المزدلفة بدلاً من عرفات لأنهم أهل الحرم وساكنوه فلا ينبغى لهم أن يخرجوا من الحرم إلى الحِلّ فلا وقوف لهم بعرفة ولا إفاضة منها إنّما الإفاضة تكون من المزدلفة ليتميزوا عن غيرهم وقد أنهى الحق هذه البدعة فى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة].

2- الطواف عرايا لغيرهم:

* وابتدعوا بدعة أخرى فى الطواف ← وهى التحريم لغير الحُمس أن يطوفوا فى ثياب قديمة قد عصوا الله فيها فالأفضل لهم أن يطوفوا عرايا كما ولدتهم أمهم ويتجردوا من كل ثياب ملوثة بمعصية الله ! أمّا قريش فكانوا يطوفوا فى ثيابهم ويحق لهم أن يُعيروا غير الحُمس ثيابهم ليطوفوا فيها ثم يلقونها ولا تستخدم بعد ذلك - ومن لم يجد يطف عرياناً - وهذا شىء ابتدعوه وادعوا أن الله أمرهم بذلك فأنكر الله عليهم ذلك وقال:

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف].

3- الدخول من الأبواب الخلفية بعد الحج:

وبدعة أخرى ابتدعها المشركون المعروفون بـ (الحُمس) المتشددون فى الدين والمتحمسون له فكانوا إذا حجّ الفرد منهم (ثم رجع من الحج) لا يدخل بيته من الباب لأنه أشعث أغبر من أثر أداء المناسك ويدخل من ظهر البيت. وصارت هذه البدعة حكماً من أحكام عبادات الحج أضافوها إلى الشريعة تشدداً منهم ولم يرد الله أن يُشرعه (والفكرة منها ← حتى لا يطلع على شىء يكرهه فى زوجه أو أهله)!.

وجاء القرآن بمناسك الحج، ونفى هذه العادة المألوفة عند العرب فقال:

﴿ ... وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

أى لا تجعلوا المناسك مسائل شكلية، فنحن نريد أصل ٱلۡبِرَّ ← وهو الشىء الحسن النافع ثم لا يترك الحق لنا تحديد ما هو الحسن النافع ولكنه حدَّده لنا بأنه من اتقى.

4- النسىء:

وبدعة أخرى وهى (ٱلنَّسِىٓءُ) ← وهى تأخير وتقديم الأشهر الحرم حتى يستحلوا القتال فى الأشهر التى حرَّمها الله، فأنزل الله تعالى:



﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة].

و(ٱلنَّسِيٓءُ) ← هو تأخير شهر وجعله مكان شهر آخر..وذلك لأنهم كانوا أصحاب حروب فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متتالية لايغيرون فيها. وهى (ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم) وقد كان هذا الحكم متبعاً كبقية من شريعة إبراهيم ورثة إسماعيل وبقى مع أحكام الحج - والحكمة من تحريم الثلاثة أشهر المتتالية كان لأجل أداء مناسك الحج - فحرم الله قبل الحج← (شهر ذو القعدة) يقعدون فيه عن القتال - حتى يذهب الحجيج إلى الحرم آمنين - ثم ←(شهر ذو الحجة) لإتمام مناسك الحج - ثم شهر بعده وهو← (المحرم) ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين.

* وحرّم (رجب) ← فى وسط الحول ← لأجل زيارة البيت والاعتمار فيه فيزوروا الحرم ويعودوا إلى بلادهم آمنين..هذه هى الحكمة من تحريم القتال فى هذه الأشهر ولذلك يقول الحق:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ... ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة].

* أى أنه منذ أن خلق الله السماوات والأرض وخلق هذه الشهور الاثنى عشر كتبت عند الله فى (اللوح المحفوظ) بهذا الترتيب الذى أراده الله وجعل هذه الأشهر الأربعة حُرمًا كحكم من أحكام الله..فلابد من الالتزام به ولا يُقبل ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها تبعاً لمصلحتهم وذلك ليوافقوا العدد وإن لم تكن هى نفسها التى حرمها الله - وذلك ليبرروا لأنفسهم أنهم غير عاصين لشريعة الله..لقد كانوا أصحاب حروب فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها فرفضوا الاستمرار فى هذا التحريم فكانوا يحرمون من شتى شهور العام أربعة أشهر حتى يوافقوا العدد المحرَّم ولكن يخالفوا التخصيص أى (المعدود) فيحلون

(المحرم) عاماً إذا أرادوا القتال ويحرمونه فى عام آخر - إذا لم تدع للقتال داعية عندهم. لذلك يقول الحق إن هذا (زيادة في الكفر) ← لأنهم جمعوا بين (الكفر فى العقيدة والكفر فى التشريع) فعبثوا بحرمات الله. حين جاء رجل من كنانة إلى موسم الحج وقال: إنّا قد حرمنا شهر (صفر)، وأخرنا (المحرم) ← ففى هذا العام (صفران) وفى العام المقبل نقضيه فنجعل فيها (مُحرّمين) ففعلوا ذلك وسار العرب على هذه البدعة حتى استدار التحريم على مدار السنة كلها حتى نزلت الآية وأبطل الإسلام هذا كله وأمر بترتيب الشهور على ما رتبها الحق يوم خلق السماوات والأرض.

لذلك قال النبى ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع:

"إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً - منها أربعة حرم (ذو القعدة - ذو الحجة - المحرّم - رجب) الذى بين جمادى وشعبان ".

* هذه هى عادات العرب التى كانت سائدة قبل البعثة فكانت حاجة هذه الشعوب ملحة إلى دين سماوى يُهذب هذه الاعتقادات والعادات البائدة.

* وبالرغم من أن اليهودية والنصرانية قد وجدتا سبلاً للدخول إلى الأرض العربية - إلا أنهما لم ينتشرا لأنهما لم يدخلا إلاّ بعد فسادهما وتحريفهما فلم ينتفع بهما فى بلاد العرب وظلت حاجة البشر ماسَّة إلى ديانة سماوية سليمة تصحح العقيدة.

كيف دخلت اليهودية والنصرانية إلى بلاد العرب؟

أولاً: اليهودية:

كانت لليهودية هجرتان إلى بلاد العرب:

الهجرة الأولى: كانت فى عهد الفتوح الفارسية والأسر البابلى على يد بختنصر سنة 550 ق.م (التدمير الأول للهيكل) فهاجر اليهود من أرض الشام إلى الحجاز.

الهجرة الثانية: كانت بعد الاحتلال الرومانى للشام على يد (تيطس) سنة 70 م (التدمير الثانى للهيكل) حيث رحل اليهود إلى الحجاز واستقروا فى يثرب، وخيبر، وفدك، وتيماء.



* وكانت هجرتهم أساسا إلى يثرب ← لأنهم كانوا يتطلعون إلى النبيّ المبشر به فى التوراة والإنجيل وأنه سيخرج من جبال (فاران) وأن مهجره سيكون فى يثرب ذات النخيل والأرض السبخة (السوداء) فنزلوا فيها رجاء أن يبعث فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه ويستردوا ملكهم المسلوب، ولذلك كانوا يستفتحون على مشركى العرب ويقولون: إن نبياً قد أظل زمانه وسيؤمنون به ويقتلونهم مثل قتل إرم وعاد.. وجاءت هذه الحادثة فى (سورة البقرة).

﴿ ...وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

* وفى هذا الوقت ذهب ملك اليمن تبع (تبان الأسعد) الحميرى إلى يثرب حيث ترك ابنه فى يثرب وذهب هو إلى الشام فى تجارة..فوقع خلاف بين ابنه وأهل يثرب فقتلوه. ولما رجع تبَّع حنق عليهم فقاتلهم - وكان فى يثرب يهود - فجاءه حبران من أحبار بنى قريظة وقالا له لا تفعلِ إنك قبل أن تخرب يثرب يهلكك الله..فهذا البلد هى مهجر بنى مكتوب فى التوراة فبدأ تبع يسأل وما هى التوراة والتوحيد؟ ويجيبه الأحبار.

* فأعجبه دين التوحيد فتهود..وترك يثرب وذهب إلى مكة ومعه الأحبار قاصدين اليمن لنشر الديانة اليهودية بها..وفى الطريق توجه إلى مكة، وكانت قبيلة (هذيل) تسكن بالقرب منها وهم يكرهون أهل مكة وأهل اليمن فأرادوا أن يوقعوا بين تُبع وأهل مكة. فذهبوا إليه وقالوا هل لك من الجواهر والكنوز، ففى هذه القرية بيت مملوء بها.. فطمع تُبع وجهّز نفسه ليهدم الكعبة ويأخذ الكنوز فقال له الأحبار: إن الهركيين يريدون إهلاكك..ما علمنا ببيت على الأرض له عظمة هذا البيت..إنه بيت الله ونصحوه أن يطوف به..وقالوا: لولا أنه ملىء بالأصنام ونحن علماء دين لطفنا به..فطاف تُبع..ولما نام رأى رؤية أنه يكسو الكعبة فصنع كسوة من الصوف..ثم رأى رؤية أنه يكسوها بأفضل من الصوف وأمر بأن تصنع كسوة من المحمل.. ومنذ ذلك الوقت والعرب يصنعون الكسوة كل عام..وكان فى أول الأمر يصنعون الكسوة فوق الأخرى إلى أن جاء (عبد المطلب) وخشى أن تتهدم الكعبة من ثقلها بعد أن تبتل بمياه الأمطار.

* بعد أن عاد تُبّع إلى اليمن ← دعا أهله إلى اليهودية وبمعاونة الأحبار تهود أهل اليمن.

* وبعد أن مات تبّع (تبان الأسعد) وتوالى أبناؤه على الحكم، تمكن أحد أبنائه (يوسف ذو نواس) من إحكام السيطرة على اليمن.

ثانياً: دخول الديانة النصرانية:

* وفى أثناء حكمه حدثت حادثة فى (نجران) ← وهى أن جاءها رجل نصرانى راهب من الشام لنشر الدعوة فى إفريقيا فوثبت عليه عصابة وأسروه وباعوه إلى رجل فى (نجران) وصار عبداً عنده فكان يخدم سيده ويتعبد وكان له كرامات..فدخل عليه سيده ووجد عنده نوراً - فسأله..فأخذ يشرح له ديانته، وكانوا فى نجران يعبدون شجرة..فقال له: لو غلب إلهى إلهك لكان هو أظهر.

* فأنزل الله صاعقة على الشجرة فأحرقتها أمام أهل نجران فآمنوا به ودخلت النصرانية نجران..ثم هاجر بعضهم إلى اليمن وكانوا يتعبدون فى السرّ مخافة اليهود.

* (الملك ذو نواس) كان عنده سحرة..ثم انتقى شابًا فطنًا وأراد أن يُعلِّمه السحر فكان يرسله إلى ساحر يقطن الجبل..كان الشاب فى صعوده إلى الجبل ذاهبًا إلى الساحر يمر على راهب يتعبد فى صومعته..فأعجب الغلام به وأخذ يجلس إليه يتعلم منه النصرانية وأوقف ذهابه إلى الساحر..علم الملك بذلك فأتى به وأمر بقتله.

* ثم حاول إقناع الغلام أن يقلع عن النصرانية ولما رفض أخذ يعذبه، ثم قرر قتله.

* أخذه الجنود فى قارب لإغراقه فى البحر فقامت عاصفة قلبت القارب فغرق الجنود ونجا الغلام.

* ثم أخذوه فوق الجبل ليلقوه من فوقه، فحدث زلزال أسقط الجنود فماتوا إلاّ هو وكلما حاول قتله بطريقة لا يستطيع..فقال له الغلام: اجمع الناس وعلقنى على شجرة ثم خذ نبلى وسهمى ونقول جميعاً: (باسم الله رب الغلام) ثم تضربنى..فجمع الناس وضرب الغلام باسم الله فقتله.

* فقال النا... لم يستطع قتله إلاّ بإذن الله..فدخل النصرانية أكثر من 20 ألفًا (الغلام ضحى بنفسه واستشهد من أجل الدعوة).

* الملك (ذو نواس) اليهودى غضب بشدة لدخول شعبه فى النصرانية فأمر بحفر الأخدود وأمر بإشعال النيران فيه وأحرق فيه كل المؤمنين (حوالى 40 ألفًا).نزلت فى هذه الحادثة.

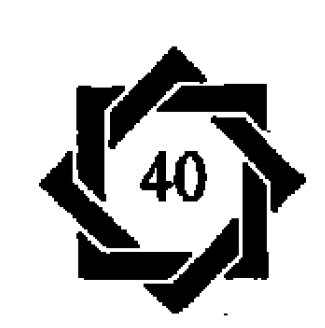
﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج].

* نجا من أخدود (ذو نواس) رجل اسمه (دوس) ذهب إلى ملك الروم يستنجد به (وكان القيصر متدينًا بشدة) ولكن اليمن بعيدة فأرسله إلى النجاشى فى الحبشة لينصره ويثأر للنصارى..فجهز النجاشى جيشاً عظيماً من 70 ألف جندى يرأسهم (أرياط) ومعه (أبرهة) وانتقلوا بالسفن إلى اليمن وبدأ القتال مع (ذى نواس) فهزموه وسيطر الأحباش على اليمن.

* كان احتلال الأحباش لليمن 525م البداية الحقيقية لانتشار النصرانية حيث بدأت البعثات التبشيرية الرومانية تنشر الدعوة.

* أرياط حكم اليمن وبدأ يظلم الناس ظلماً عظيماً وظلم الأحباش أيضاً فلم يصبر عليه أبرهة فتقاتل معه واستطاع أرياط أن يضرب أنف أبرهة فشرمه فسُمى (أبرهة الأشرم)..ثم قتل أبرهة أرياط واستولى على حكم اليمن.

* غضب النجاشى منه غضباً عظيماً فأراد أبرهة أن يسترضيه فبنى كنيسة عظيمة مكان سد مأرب المتهدم وأسماها (القليس) وأخذ يأمر العرب ليحجّوا إليها لتتحول تجارة العرب إلى اليمن..علم بأمر الكنيسة جماعة من العرب عرفوا (بأهل النسىء) ← وهم قوم كانوا يعظمون الكعبة أشد تعظيم ويعظمون الأشهر الحُرُم وكانوا هم المسؤولون عن تأخير وتقديم هذه الأشهر حتى يصير القتال حلالاً فإن لم يفعلوا وقاتلوا فيها سميت هذه الحروب (بحرب الفجار) سورة التوبة (إنما النسىء زيادة فى الكفر).



* واحد من أهل النسيء الذين يعظمون البيت أشد تعظيمًا علم بأمر هذه الكنيسة فتسلل إلى القليس ولطّخ جدرانها فغضب أبرهة غضباً شديداً ولما عرف أن أهل النسيء هم أهل الكعبة صمم أن يهدم الكعبة..فجهز جيشاً وأخذ فيله (محمود) ليهدم به الكعبة وفى طريقه استطاع أن يهزم كل من تصدى له من العرب..حتى وصل إلى مشارف مكة فأخذ 200 بعير كانت (لعبد المطلب) فذهب إليه عبد المطلب ليسأله أن يردّ عليه الإبل.. فقال أبرهة: لما رأيتك عظّمتك والآن تكلمنى فى الإبل وتترك البيت الذى تقدسه..فقال له جملته الشهيرة: أنا رب الإبل أماّ البيت فله رب يحميه..فأمر بإطلاق الإبل..فأمر أهل مكة أن يخرجوا إلى الجبال القريبة..ولما أمر الفيل بالتحرك فى اتجاه مكة برك ورفض التحرك وأرسل الله عليهم طيراً أبابيل..وجاءت هذه الحادثة فى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل].

* وكان هذا الحادث قبل ميلاد النبى ﷺ بخمسين يومًا..وبعد أن قُتل أبرهة تولى ابنه (يكسوم ابن أبرهة) ثم (مسروق بن أبرهة) عرش اليمن..وطال ظلمهم لأهل اليمن فاستنجد أحد أبناء (حمير بن سبأ) بالفرس فأرسلوا إليهم جيشاً فقتلوا (مسروق بن أبرهة) وأخرجت الحبشة منها بعد استعمار دام 72 سنة وأمّر كسرى ابنه حاكمًا على اليمن إلى أن بعث النبى ﷺ.

* اعتنق النصرانية من العرب (الغساسنة وقبائل تغلب، وطيء) المجاورين للرومان.

* كذلك كان هناك من العرب من يدين (بالمجوسية) ← عبادة النار فى العراق وسواحل الخليج الغربى، (والصابئين) ← عبدة الكواكب.

* وكانت هى ديانة قوم إبراهيم (الكلدانيين) فى العراق.



* كانت هذه هى ديانات العرب حين جاء الإسلام بعد أن (حُرفت اليهودية) وصار أحبارها أربابًا من دون الله كل همهم الحظوة بالمال والرياسة وأضاعوا التوراة بالتحريف والتبديل وفقاً لأهوائهم.

* أمّا (النصرانية) فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان ولم يعد لها أى تأثير حقيقى على نفوس الناس لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها.

* وبعد هذا العرض لأحوال العرب - نعلم أن الناس عربًا وعجمًا قد ضلّوا سواء السبيل، وأن العرب لم يبقَ منهم أحد على دين الله..فلما كان هذا هو حال الناس فى الضلالة وعدم الهداية كانت هناك ضرورة مُلحّة لدين سماوى جديد يهدى به الناس إلى الطريق المستقيم، ويطهر المجتمع من كل هذا الجهل والخرافات فكان لابد أن يأتى الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والضياء بعد الظلام الحالك الذى غطى حياة البشرية كلها فوراً يفجر ينابيع الرحمة.

الباب الثانى

قبل البعثة

نسب النبى ﷺ (أسرته - مولده - ونشأته)

حديث:

(إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم) هو ﷺ:

محمد ﷺ

عبد الله ← تزوج ← آمنة بنت وهب

عبد المطلب ← العباس - ضرار - المقوم - حمزة - عبد مناف - الزبير - عبد الكعبة - حجل - أبو لهب - قثم - الحارث - الغيداق

هاشم (عمرو) ← أسد - الشفاء - صيفي - عمرو - نضلة - الأرقم

عبد مناف ← قلابة - عبد شمس - تماضر - المطلب - نوفل - أميمة - عبيد - ريطة

قصي (زيد) ← عبد العزى - عبد الله - عبد - تخمر - سبرة

كلاب ← زهرة - فُغم

مرة ← تيم - يقظة

كعب

لؤي ← خزيمة - سامة - عامر - سعد - عوف - الحارث



غالب ← تيم - قيس

فهر ← جُمل - مالك - أسد - جُوْن - ذئب - الحارث - عوف - محارب

مالك ← الحارث

النضر (قيس) ← يخلد - الصلت - خزاعة

كنانة ← سعد - عوف - غزوان - مليك - الحارث - عمرو - غنم - مخرمة - ملكان - ملك - جرول - عبد مناة - عامر

خزيمة ← أسد - أسدة - عبد الله - الهون

مدركة ← غالب - هذيل - سعد - قيس

إياس ← عامر - عمير

مضر ← الفاس

نزار ← ربيعة - إياد - أنمار

معد ← قناصة - قنص - العرف - سنام

عدنان ← الديث - أبي - العي - عدين

1) قصىّ بن كلاب

* هو من قبيلة (قريش) ← وكلمة قريش من التقرش ← أى التجمع ← والذى جمعهم هو (قصىّ بن كلاب) الذى رأى أنه سليل آل (إسماعيل) وأنه هو وأبناؤه أولى بالكعبة من خزاعة وبنى بكر فقاتلهم وغلبهم ثم أخرجهم من مكة واشترى ولاية البيت بعد أن ظلت فى ولاية خزاعة 300 سنة وكان ذلك فى سنة 450م..وقام ببناء (دار الندوة) ليجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته - وتولى بعد ذلك الحجابة (أى صيانة الكعبة ومفاتيحها)، والسقاية، والرفادة (إطعام الحجيج)، واللواء (القوافل)، والقيادة (الجيش).

* ولما كبر قصى سلَّم مفتاح الكعبة لأكبر أبنائه (عبد الدار) وأعطاه السقاية والرفادة واللواء - وأعطى أخوه (عبد مناف) بقية المناصب التى آلت إلى أبنائه (هاشم والمطلب - ونوفل وعبد شمس) وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام.

2)هاشم بن عبد مناف:

* تولى هاشم(السقاية والرفادة) عندما اقتسموا المناصب مع بنى عبد الدار وهاشم كان اسمه (عمرو) وفى أيامه حدثت مجاعة كبيرة فى مكة فأخذ عمرو فى إطعام الناس (بأن يهشم الخبز فى المرق) فسموه (هاشماً) لأنه أول من هشَّم الثريد.

* وهو أول من اتفق مع الفرس والروم على وصول التجارة إليهم فشنَّ الرحلات التجارية صيفًا وشتاءً وأقام الأحلاف مع القبائل لتأمين هذه الرحلات.

* خرج هاشم فى تجارة إلى الشام، فلما قدم يثرب تزوج من (سلمى بنت عمرو) من بيت النجار، وأقام عندها فحملت منه ثم خرج إلى الشام فمات فى الطريق ودفن فى (غزة) وولدت سلمى ولدًا سمته (شيبة) لشيبة كانت فى رأسه سنة 497م.

* تربَّى (شيبة) فى بيت جده فى يثرب حتى صار غلامًا.



* لما علم (المطلب) ← أخو هاشم - بخبر ابنه رحل فى طلبه ولكن أمه رفضت فى أول الأمر ولكنه أقنعها أن يأخذه لينشأ وسط قومه ويرث ملك أبيه ويحيا بجوار الحرم فأذنت له.

* وعندما قدم (المطلب) إلى مكة ومعه الغلام (شيبة) على بعيره ظن الناس أن الغلام هو عبد للمطلب فقالوا: هو عبد المطلب فصار يعرف بهذا الاسم بدل شيبة ورباه عمه - حتى توفى وتولى عبد المطلب مهام عمه - وأحبه قومه وعظم قدره بينهم.

3)عبد المطلب:

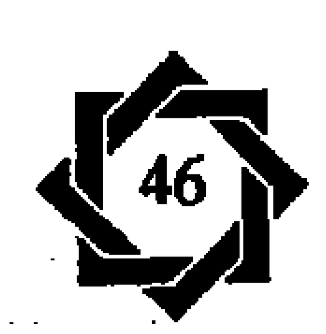
* لما مات (المطلب) وثب أخيه (نوفل) على ممتلكاته ومهامه - ولم ترد قريش نصرة (عبد المطلب) على عمه، فاستنجد بأخواله من يثرب فجاءوه ونصروه على عمه ومكنوه من ميراثه ومن مهام عمه (السقاية، والرفادة).

* فلما حدث ذلك تحالف (نوفل) مع أخيه (عبد شمس) على (بنى هاشم)، ولما رأت (خزاعة) ذلك قالوا نحن أحق بنصرته من بنى النجار - لأن أمه كانت من خزاعة - فتحالفت خزاعة مع بنى هاشم ← وهذا الحلف هو الذى صار سبباً فى فتح مكة بعد ذلك.

من مآثر عبد المطلب: حفر بئر زمزم

كان من مهام (عبد المطلب) تدبير الماء للحجيج - فتذكر زمزم - ذلك البئر المبارك الذى اندفع بالماء قديماً - فى زمن إسماعيل - ثم خربته جُرهم وطمسته قبل رحيلهم من مكة.

* فرأى عبد المطلب فى المنام رؤية أنه يحفر البئر..فذهب يبحث عن مكانه ومعه ابنه الأكبر الحارث ولم يكن عنده غيره - ولما رأى أهل مكة هذا أرادوا منعه ولكن أصرَّ فتركوه وهم يسخرون منه لأنه ليس لديه أولاد كثيرون يساعدونه فنذر (عبد المطلب) أنه لو رُزق بعشرة من الأولاد ليذبحنّ أحدهم عند الكعبة.



* أثناء الحفر عثر (عبد المطلب) على غزالى الكعبة والسيوف والدروع التى دفنها الجراهمة قبل رحيلهم..ثم استكمل الحفر حتى ظهر البئر وخرج الماء.

* وهنا أرادت قريش أن تنتزعه من (عبد المطلب) لكنه تمسك بموقفه واتفق معهم على الاحتكام إلى الكهنة - واختاروا (كهنة بنى سعد) فى الشام فذهبوا إليها..وفى الطريق نفذ الماء وأوشكوا على الهلاك، وفزع عبد المطلب إلى الله يدعوه، وإذا بعين من المياه تنفجر تحت ناقته، فعرفت قريش أن الماء لعبد المطلب، وهذا تخصيص من الله له فرجعوا.

واقعة الفيل:

* هذا الحادث وقع قبل مولد النبى ﷺ بـ 50 يومًا..عندما أقبل أبرهة وجيوشه لهدم الكعبة ليصرف الناس للحج إلى كنيسة القليس..حتى وصل أبرهة إلى مكان يسمى (المغمس) قرب مكة وأخذوا 200 بعير لعبد المطلب فجاءه عبد المطلب فلما رآه أبرهة عظّمه واحترمه، فكلمه عبد المطلب فى أن يرد عليه إبله فقال له أبرهة: لقد أعجبتنى حين رأيتك ولكنى زهدت فيك حين تكلمت تطلب منى بعيرك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك فقال:(أنا صاحب الإبل وللبيت رب يحميه) فردّ عليه الإبل وأرسل الله طيراً تحمل ثلاثة أحجار من جهنم لا تصيب أحدًا إلاّ تقطع وجعلهم كعصف مأكول (أى ورق الشجر بعد أن أكلته الماشية) وهلكوا جميعاً وعاد أهل مكة إلى بيوتهم آمنين..وبعد العودة بخمسين يوماً وُلد النبى ﷺ سنة 751م .

* وكان هذا الحادث مقدمة يقدمها الله تعالى لنبيه وللعالم لكى يلفت أنظار الجميع أن هذا البيت هو البيت الذى اصطفاه الله تعالى للتقديس.

* فلو قام أحد من أهله بالدعوة إلى الله فيه ← فهذا هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين قد استولوا على هذه القبلة مرتين بينما هو كان مع المسلمين (مرة من الفرس على يد بختنصر سنه 580 ق.م ومرة من الرومان على يد تيطس سنة 70م).

* أما البيت الحرام ← فلم يتم الاستيلاء عليه من قبل نصارى الحبشة – وهم المسلمون إذ ذاك – بينما أهل الكعبة كانوا مشركين.

* وفى هذا تفسير للحكمة الخفية فى نصرة المشركين على أهل الإيمان بصورة تفوق عالم الأسباب.

4)والد النبى ﷺ عبد الله الذبيح الثانى:

بعد أن أصبح لعبد المطلب عشرة أبناء من الذكور..أخبرهم بنذره فأطاعوه وقيل له اقترع بينهم أيهم يُنحر؟

* فخرجت القرعة على أصغر أبنائه (عبد الله) وأحبهم إليه..فأتى به إلى الكعبة ليذبحه – فمنعه أهله وأشاروا عليه أن يستعلم من العرافة ما يفعل بنذره..فأمرته أن يقترع بين عبد الله وعشرة من الإبل فإن خرجت على عبد الله فيزيد عشراً من الإبل.

* اقترع عبد المطلب فوقعت القرعة على عبد الله فأخذ يزيد الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها..وكان دية الرجل فى العرب عشراً من الإبل فصارت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل وأقرَّها الإسلام.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ...﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة النساء].

لذلك يقول النبى ﷺ **(انا ابن الذبيحين إسماعيل وعبد الله)** .

وعلى أثر نجاته من الذبح اختار عبد المطلب لولده (عبد الله) ← آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب..ولكن قدَّر الله أن يموت عبد الله فى رحلة إلى الشام ودفن فى المدينة وعمره آنذاك 25 سنة.

الباب الثالث

ميلاد النبى ﷺ

(الإثنين - 12 ربيع الأول - 21 أبريل سنة 571م) عام الفيل

عندما وُلد رسول الله ﷺ خرجت جارية أبى لهب (ثوبية) تبشر سيدها بولادة ابن أخيه - فخرج أبو لهب وأطلق حريتها.

سماه جده (محمداً) وكان الاسم غير معروف..يقول أردت أن يكون أكثر من يُحمد بين أهل الأرض وأهل السماء على كريم أفعاله.

* فمن يُحمد قليلاً ← فهو محمود.

* فإن حُمد كثيراً ← فهو محمد.

* وإن حَمد هو الله- ← فهو حامد.

فإن كان أكثر الحامدين ← فهو أحمد وهذا اسمه فى الإنجيل.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ . . . ﴿٦﴾ ﴾[الصف].

* وظل (الحمد) معنى ظاهراً فى حياة رسول الله وبعد مماته.

* فأول كلمة فى رسالته هى ← ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة].

وآخرها أيضاً ﴿ ...وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[يونس].

ومنهجه هو﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ...﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء].



وينطق لسانه بالحمد بعد الأكل والشرب وارتداء الملابس وعند اليقظة والمناجاة ودعاؤه ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ...(٧٠) ﴾ [القصص] وكذلك يوم القيامة سيكون قول أتباعه عند دخولهم الجنة:

﴿ ...ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ...(٤٣) ﴾ [الأعراف].

* وهو حامل لواء الحمد يوم القيامة، وعند الشفاعة يسجد ويحمد الله بمحامد يُلهم بها لم يعرفها غيره..ويقول النبى ﷺ [أنا محمدٌ وأنا أحمد وأنا الماحى(الذى يمحو الله بى الكفر)، وأنا الحاشر (الذى يحشر الناسُ على قدمى)، وأنا العاقب (الذى لا يعقبه نبىّ).]

* ونلاحظ أن هناك روابط تربط بين النبى ﷺ وبين كل عربى.

* فجده كنانة ← من اليمن، وجده إبراهيم ← من العراق.

* وجدته هاجر ← من مصر، وأبوه ← من مكة.

* وأخواله ← من المدينة، وجده (هاشم) ← دفن فى غزة.

* وأحفاده ← عاشوا فى الأردن وفى المغرب العربى.

* وأم أيمن مرضعته ← من السودان وحليمة السعدية التى أرضعته أيضاً ← من البادية.

* وأمه السيدة آمنة وهى حامل رأت نورًا يخرج منها يصل إلى أرض الشام (وهى أرض المحشر) حيث تقوم القيامة على رسالته..ولذلك يقول النبى ﷺ **(أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام)** وفى هذا إشارة واضحة إلى عموم رسالته وانتشار دينه.

نشأة الرسول ﷺ من المولد إلى البعثة

1- من الميلاد إلى سنتين: (عند حليمة السعدية)

المراضع:

1) أرضعته أمه في الأسبوع الأول.

2) أرضعته ثويبة (جارية أبي لهب) مع عمه (حمزة) ومن بعده (أبو سلمة).

3) ثم أرضعته (حليمة السعدية) وإخوته من هذه الرضاعة هم ← (عبد الله، أنيسة، الشيماء) بنى الحارث (أبناء حليمة) ثم أرضعت من بعده (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ابن عم الرسول ﷺ.

* وبعد سنتي الرضاعة فطمته حليمة وأعادته إلى أمه لكنها ترجتها أن يبقى عندها فترة أخرى فوافقت وعادت به حليمة حتى وقعت له حادثة (شق الصدر) فأحست بالخوف عليه فأعادته إلى أمه مرة أخرى.

2- من سنتين إلى ست سنوات: (عند أمه آمنة)

كفلته أمه آمنة بمساعدة مولاة أبيه بركة (أم أيمن)..وعندما بلغ عمره 6 سنوات أرادت أمه أن تزور قبر أبيه بيثرب فخرجت تصطحب ابنها وخادمتها (أم أيمن) وكان هذا أول سفر للنبي ﷺ ← ذهبت إلى المدينة التي سيذهب إليها مرة أخرى بعد 50 سنة مهاجراً.

* وعند رجوعها، وفي الطريق مرضت آمنة ثم وافتها المنية عند (الأبواء) خارج المدينة ودفنت بها أمام عينيه ووصلت به (أم أيمن) إلى مكة فسلمته إلى جده عبد المطلب.

3- من 6 سنوات إلى 8 سنوات: (عند جده عبد المطلب)

كان جده هو ثاني الكفلاء – وكان قد اقترب من التسعين من عمره..رقّ له الجد رقة لم يرقها لأحد من أولاده فكان يؤثره على الجميع..وقبل أن يموت الجد وصّى عمه أبو



طالب أن يكفله من بعده.. ومات الجد وذاق النبى مرارة اليتم لثالث مرة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى].

4- من 8 سنوات إلى 25 سنة (عند عمه أبى طالب)

كان عمه هو ثالث الكفلاء، ونهض بكفالته على أكمل وجه، وكان لعمه عشرة من الأولاد، وقامت زوجته (فاطمة بنت أسد) برعايته مع أبنائها العشرة.

* عندما كبر النبى ﷺ بعض الشىء عرض على عمه أن يعمل ليعاونه - فعمل فى رعى الغنم وهى مهنة الأنبياء، ويتعلم منها الصبر والصلابة وتحمل المشاق.

❖ **وعندما بلغ النبى ﷺ سن (الخامسة عشرة)** ← عرض على عمه أن يعمل معه فى التجارة، فأخذه معه فى رحلة إلى الشام، وهناك عرفه راهب اسمه (بحيرى) عرفه من صفاته، فسأل عمه أن يردّه إلى مكة ولا يقوم به إلى الشام خوفاً عليه من اليهود ففعل عمه.

❖ **وفى السنة العشرين من عمره** ← شارك قومه فى (حرب الفجار) فكان يضرب بالنبل دفاعاً عن حرمة الأشهر الحرم التى اعتدت عليها بعض القبائل، وبعد انتهاء هذه الحرب أقامت قريش حلفاً هو:

حلف الفضول: لإبرام المعاهدات وفض المنازعات، ونصرة المظلوم وردّ الحقوق. وشهد محمداً هذا الحلف فتعلم منه فن صنع معاهدات السلام.

❖ **وفى (السنة الخامسة والعشرين) من عمره** ← وكان النبى ﷺ يعمل فى التجارة مع عمه، فسمعت عنه السيدة (خديجة بنت خويلد) وكانت تستأجر الرجال فى مالها، وقد بلغها ثناء الناس عليه، فعرضت عليه أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام، فخرج ومعه غلامها (ميسرة)، ويعود النبى ﷺ سريعاً محققاً مكاسب كبيرة، ويخبرها غلامها بما رأى منه من صدق وأمانة.. فرغبت فى الزواج منه، وعمرها يومئذ حوالى 45 سنة، وكانت قد تزوجت من قبله مرتين الأولى من (أبى هالة) التميمى، والثانية من (أبى هند) المخزومى - فكانت

كل من هالة وهند ربيباً للنبى ﷺ، ورثت السيدة خديجة أموالا طائلة من زوجيها ومن أبيها فكانت تستأجر الرجال ليتاجروا فى مالها.

5- (من 25 سنة إلى 40 سنة):

رأت السيدة خديجة فى رسول الله ﷺ كل ما يرغبها فيه فتحدثت مع صديقتها (نفيسة بنت منبه) عن رغبتها فى الزواج منه، فذهبت إليه نفيسة وفاتحته فى الزواج من خديجة فوافق، وذهب إلى أعمامه وخطبوها إليه، وتزوجها وهو يصغرها بخمسة عشر عاماً، واستمر هذا الزواج خمسة وعشرين عاماً وكانت ثمرته أربع بنات وولدين وهم: (السيدة زينب - رقية - أم كلثوم - فاطمة - القاسم - عبد الله).

* مات القاسم وعبد الله فى صغرهما أمّا البنات فأدركن الإسلام وأسلمن إلاّ أنهن أدركتهن الوفاة فى حياة النبى ﷺ سوى فاطمة فقد توفيت بعده بستة أشهر.

❖ ولما بلغ (خمسة وثلاثين سنة):

تعرضت مكة لسيل عرم انحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة على الانهيار فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها واتفقوا على أن لايدخلوا فى بنائها أى مال حرام (لا من ربا، ولا زنا، ولا مظلمة لأحد)..فجمعوا المال الحلال ولم يكن المال كافياً لإتمام البناء فأخرجوا حجر إسماعيل خارج جدرانها..وكان هذا عندهم أهون من بنائها كاملة بمال حرام، وكانوا يهابون هدمها فابتدأ (الوليد بن المغيرة) بالهدم وقال: اللهم إننا نريد الخير.. ولما لم يصبه مكروه اتبعه الناس فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ثم اشتركت القبائل فى البناء لكل قبيلة جزء..ولما انتهوا من البناء وبقى أمامهم وضع الحجر الأسود فى مكانه اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه، واشتد الخلاف حتى كادوا يتحولوا إلى حرب ضارية فى أرض الحرم.

فعُرض عليهم أن يُحكِّموا أول من يدخل عليهم من باب المسجد فارتضوا وشاء الله أن يكون هو رسول الله ﷺ فاستبشروا وقالوا: رضينا بالصادق الأمين..فطلب رداء ووضع الحجر فى وسطه ثم جمع رموز القبائل وكبراءها ليرفعوا العباءة معاً وعليها الحجر ثم أخذه بيده ووضعه فى مكانه..وبذلك انتهت المشكلة.



الباب الرابع
بعد البعثة

(التمهيد لنزول الوحى – 3 سنوات الدعوة سرية – 10 سنوات الدعوة جهرية)

1- التمهيد لنزول الوحى:

استمر الإعداد البدنى والنفسى أربعين سنة، ثم جاء الوحى بالرسالة التى استمر نزول الوحى بها ثلاثاً وعشرين سنة.

وفى سن الثامنة والثلاثين: بدأت التمهيدات فى صورة

1) سلام الحجر والشجر عليه.

2) الرؤيا الصادقة ← فكان لا يرى رؤيا فى نومه إلاّ جاءت كفلق الصبح.

3) ثم حُبب إليه الخلوة، فكان يعتزل الناس ويعتكف فى غار حراء يتعبد فيه..فلما كان رمضان من السنة الثانية لعزلته – وفى يوم الإثنين من ليلة 21 من رمضان – أنزل الله إليه جبريل على هيئة رجل بالقرآن ﴿... شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ...﴾ [البقرة]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر].

الله تعالى أنزل القرآن كما أنزل من قبل كل الكتب السماوية ولكن الفرق بين القرآن وبين تلك الكتب:

1. أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ثم تكون له معجزة أخرى تثبت صدقه فى البلاغ عن الله، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه هو عين معجزته وذلك لأن القرآن جاء منهجاً للناس فى كافة الزمان والمكان. أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها فى فترة محدودة.



2. وقد نزلت هذه الكتب بمعناها لا بنصها. أما القرآن فقد نزل بالنصّ وبالمعنى فهو تنزيل من رب العالمين، يقول الحق عنه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء].

* أى أن هذا القرآن هو كلام الله ولم يقله محمد من عنده - فهو لم يسبق أن وقف خطيباً فى قومه ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أن له أى تجربة فى الخطابة أو الشعر ولم يكن أبداً صاحب قول..والمقصود من هذا المعنى أنه لو كان محمد قد افترى القرآن فقريش أقدر منه على الافتراء لأنهم أصحاب التجربة فى القول والخطابة فهم أهل البلاغة والفصاحة.

* وليس القرآن وحده تنزيل رب العالمين بل كل الكتب السماوية أنزلها الله على رسله ولكن بمعناها لا بنصها..لذلك يقول عيسى عن القرآن (**سيجعل الله كلامه فى خمسه فيكلمهم بكل ما يوصيه به**) ← وفى هذا إشارة إلى ذلك النبى الذى سينزل عليه الكتاب وإلى أنه سيكون أمياً حافظاً للكلام.

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)

لم يكن الوحى من عند الله إلهاماً أو نفثاً فى الروع إنما آتاه روح القدس وأمين الوحى على هيئة رجل يقول له: قل كذا وكذا.

* أى أن القرآن لم يثبت إلاّ عن طريق (الملك) يأتيه فتظهر عليه علامات يعرفها ويحسها فيتفصد جبينه بالعرق، وكان جلساء الرسول ﷺ يعرفونه ساعة أن يأتيه الوحى فكانوا يسمعون فوق رأسه كدوىّ النحل أثناء نزول القرآن عليه، وكان الأمر يثقل على الرسول ﷺ حتى إنه إن أسند فخذه على أحد الصحابة يشعر الصحابى بثقلها كأنها جبل، وإذا نزل الوحى والرسول ﷺ على دابته يثقل عليها حتى تنخ به كما قال: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل].

ولم تهدأ مشقة الوحى نسبياً على رسول الله إلاّ بعد أن فتر الوحى عنه وانقطع مدة (اختلفوا فيها هل هى عدة أيام أم عدة شهور) فبقى رسول الله ﷺ فى هذه الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة والدهشة ولكن الله أراد ذلك الانقطاع ليذهب ما كان قد وجده من الروع والمشقة وليحصل له التشوق إلى العود فلما حصل له ذلك وأخذ يترقب مجىء الوحى أكرمه الله بالوحى مرة ثانية..وبعدها نزلت (سورة الضحى) ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى].

لقد أشاع المشركون فى هذه الفترة الإشاعات الكاذبة حول سبب تأخر الوحى، وتهزأ به امرأة أبى لهب فتقول: يا محمد ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك.

* فأقسم له الله بـ(الضحى والليل) ← أى وحق النهار الذى ترتفع فيه الشمس وينشط فيه الناس، وحق الليل إذا هجع وسكن فيه الناس أن ربك ما تركك وما انقطع وحيه عنك وما كرهك ربك أبدا، ولكنك تحتاج إلى وقت لترتاح فيه ولتجدد نشاطك كما يحدث فى النهار والليل.



وكلمة (نزل به) تفيد نزول القرآن من علو، من عند الله، وليس من وضع بشر يصيب ويخطئ ويجهل ما سيحدث مستقبلاً، ولذلك يلزم الانقياد له.

(الروح الأمين) ← سمى جبريل (الروح).

لأن الملائكة أرواح مطلقة بلا أجساد مادية – أمّا البشر فهم مادة فيها الروح.

* وهذا (الروح) أمين على ما يبلغه من القرآن.

فهذا القرآن الذى سينزل ← مُصان عند الروح الأمين، ومصان عند النبىّ الأمين لذلك يقول الحق:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة].

(أقاويل تصغير أقوال).

أى أنه لو افترى محمد أى أقاويل من عنده لم يقلها الله لأخذه الله بالقوة والقدرة (وعبّر عنها باليمين) أى أنه أخذ شديد سريع ثم لقطعنا وتينه – وهو الشريان الرئيسى بالقلب الذى إذا قُطع مات صاحبه – وهذا تعبير لم يسمع عنه العرب من قبل فهو تعبير من مبتكرات القرآن، ثم إن أحداً لن يستطيع دفع هذا العقاب عنه.

* وفى هذه الآية أقوى الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله لأنه لو كان من تأليف الرسول ﷺ لما نطق بهذه الألفاظ وما فيها من تهديد ووعيد وكذلك فيها إشارة إلى أنه بلغ القرآن دون زيادة حرف أو نقصان حرف.

(على قلبك) ←

أى أن القرآن سينزل على قلبه مباشرة، مع أن الأُذن هى أداه السمع، ولكن سمع الأذن لا قيمة له إذا لم يسمع القلب ما تسمعه، فالقلب محلُّ التلقى ومحل التكليف ومستقر العقائد، وإليه تنتهى مُحصّلة وسائل الإدراك بعد أن تُعرض البدائل على العقل ويختار منها



ثم ينقلها إلى القلب لتستقر به لذلك تسمى (عقيدة) يعنى أمر عقد القلب عليه فلا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتبحث من جديد.

- لقد ترسخ فى القلب وأصبح عقيدة ثابتة.

- وكان الوحى يأتيه على صورتين:

الصورة الأولى: أن ينقلب الملك إلى بشر وهذه الصورة ليس فيها إجهاد كبير على رسول الله؛ لأن التحول يكون من جهة الإرسال وليس من جهة النبى ﷺ.

أما الصورة الثانية: فقد كان فيها مشقة على الرسول؛ لأن الملك يظل على طبيعته والتحول يحدث للنبى ﷺ وكان هذا التحول يقتضى عملية كيماوية تصيبه بالجهد فيقول بعد أن يُسرَّى عنه (زملونى) من الرعشة والبرد.

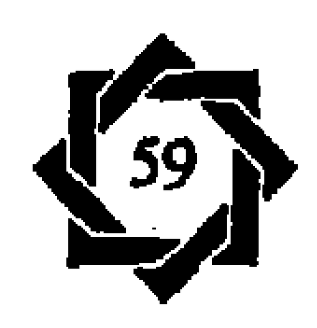
- وكان الملك يأتيه كل مرة بآيات كثيرة توازى ربعين أو ثلاثة أرباع مرة واحدة فإذا ما سُرّى عنه قال: اكتبوا عنى..ثم يقرأ الآيات كلها عليهم مع وضع كل آية فى مكانها من سورتها، ثم يقرؤها عليهم فى الصلاة فتكون هى هى كما أملاها عليهم، ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه.

- ولما كان لحرصه على حفظ القرآن يُردد خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه فأنزل الحق عليه:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى].

أى سنجعلك حافظاً وواعياً لما يقرأه الملك عليك بحيث لا تنساه بأى حال من الأحوال إلا لو شاء الله أن يُنسيك منه شيئا وهذا يعنى أن الحق قادر على أن يقرئ رسوله قراءة لا ينساها وهو أيضاً قادر على أن يزيل من صدره ما يشاء إزالته ونسيانه لما حفظ - وهذه الآية تدل على المعجزة من الوجهين.

- ويقول فى موضع آخر فى سورة القيامة.



﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة].

أى لا تتعجل عندما تسمعه من أمين الوحى (جبريل) بل تمهل وتريث حتى ينتهى من قراءته فإننا قد تكفلنا بجمعه فى صدرك فبعد أن يقرأ عليك فاتبعه ولا تسبقه بها، ثم إن علينا بعد ذلك بيان ما خفى منه وتفسير آياته.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه].

أى بعد أن تكتمل الآيات فلك أن تقرأها كما تحب.

وهذه الظاهرة من معجزات النبى ﷺ ومن عجيب أمر تنزيل القرآن. فالنبى ﷺ ينزل عليه عدة أرباع أو سورة كاملة ثم حين يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أنزلت لا يُغير منها حرفاً واحداً ويقول للكتبة ضعوا هذه الآية فى سورة كذا وضعوا هذه السورة فى الموضع كذا..فالسورة لا تنزل مرة واحدة وإنما تنزل متفرقة ومع ذلك يقرؤها مرتبة آية آية، ونحن لا نجد شخصاً يتكلم لمدة خمس دقائق مثلاً ثم يعيد ما قاله بالنص، ولكن النبىّ ﷺ كان يفعل ذلك بقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ).

(لتكون من المنذرين) ←

والمنذر ←هو الذى يحذر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فيتجنب ما يقوده إلى الشر (لكن البشارة تكون لمن آمن فقط) فيكون الرسول منذرًا كما أنذر الرسل السابقون.

(بلسان عربي مُبين) ←

فإن كان القرآن قد نزل على قلبك فسيأتى هنا دور اللسان العربى الذي يخرج القرآن إلى الناس فيسهل قراءته وحفظه، ونزل القرآن باللسان العربى لأن العرب هم أمة الاستقبال للدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم فلابد أن يفهموا كل ما جاء فى القرآن ثم يبلغوه مترجماً إلى من يدعوهم إلى الإسلام.

(وإنهُ لَفى زُبُرِ الأولين) ←

(إنه) ← تعود على القرآن أو على الرسول ﷺ.

و(زبر) ← جمع زبور ← وهو الكتاب المسطور – أى أنه مذكور ومسطور فى كتب الأولين.

كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى].

– فالعقائد وأصول الدين والقصص والأخلاق كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء، ولا يتغير إلا الأحكام لتناسب العصر والأوان الذى جاءت فيه.

* إذاً صفة رسول الله والقرآن فى عموم مبادئه ذكرا فى التوراه وفى الإنجيل.

لذلك يقول الحق فى (سورة الأعراف)

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]. **ويقول سبحانه على لسان عيسى وهو يخطب فى قومه:**

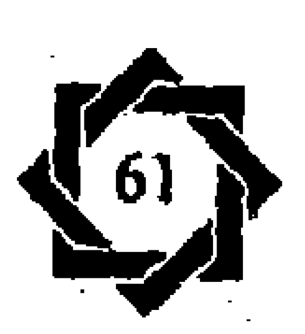
﴿ . . . وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ . . . ﴿٦﴾ ﴾ [الصف].

– إذاً فالواجب على من سيتلقون القرآن أن يؤمنوا به.

2– بدء نزول الوحى: (النبوة):

وأول ما جاء به الملك كانت آيات سورة العلق:–

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].



وهذه الآيات هى أول ما نُزِّل على الرسول على الإطلاق. أما ما ورد من أحاديث تفيد أن أول سورة نزلت هى (الفاتحة) فمحمول على أن أول سورة نزلت كاملة هى الفاتحة، كذلك ما ورد من أحاديث فى أن أول آيات نزلت هى صدر سورة المدثر فمحمول على أن أول ما نزلت بعد فتور الوحى لمدة (يقال إنها بضعة شهور) أمّا صدر سورة العلق فكان نزوله قبل ذلك..ثم نزلت بقية السورة بعد شيوع خبر البعثة وتحرش قريش لإيذائه.

ومنذ اللحظة الأولى التى نزل فيها القرآن نزل مقروناً (باسم الله) فهى أول الكلمات التى نطق بها الوحى عند أول نزوله، ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية.

* لقد كان محمد ﷺ فى غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بينهما قول الحق (اقرأ) ← قال الرسول ﷺ ← ما أنا بقارئ ← وكان الرسول منطقياً مع قدراته ← ثم تردد القول ثلاث مرات، جبريل بوحى من الله يقول له (ٱقْرَأْ) الله تعالى يتحدث بقدراته التى تقول للشىء (كن فيكون) بينما الرسول ﷺ كان يتحدث ببشريته التى تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هى التى ستأخذ هذا النبى الذى لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة لأن كل البشر يعلمهم بشر ولكن محمداً ﷺ سيعلمه الله تعالى ليكون معلما لأكبر علماء البشر يأخذون عنه العلم والمعرفة..لذلك جاء الجواب من الله:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق].

* أى أن الله تعالى الذى خلق الخلق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله، وسيكون ما تقرأه وأنت النبى الأمى إعجازا ليس لهؤلاء الذين يسمعونه منك فقط لحظة نزوله ولكن للدنيا كلها حتى قيام الساعة.وقال (باسم ربك) بوصف الربوبية حتى يستشعر كمال الرأفة والرعاية بشأن المربوب.

* (ٱلَّذِى خَلَقَ) ← لأن الخلق هى أعظم النعم التى يترتب عليها كل شىء.

* (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ) ← فمن كان قادراً على أن يخلق الإنسان من نقطة دم عالقه فى جدار الرحم ثم يجعله ينمو فيسمع ويرى ويعقل ← فهو قادر على أن يجعل منك يا محمد قارئاً وإن لم تسبق لك القراءة.



﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق].

* نحن حين نتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله تعالى لأنه يسَّر لنا العلم على يد بشر مثلنا، أما إذا كان الله هو المعلم، وأن ما سيُعلمه له سيظل علماً للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض فيكون الله (الأكرم) بصيغة التفضيل.

* الحق يريد أن يلفتنا ← إلى أن محمداً ﷺ لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ولكنه يقرأه باسم الله، أى لأن الله هو الذى أقدره على ذلك وبسّره له علماً وقدرة ومعرفة.

* فالله الذى علم الإنسان الكتابة بالقلم فجعله قادرًا على ضبط العلوم والمعارف قادر على أن يعلمك القراءة وأنت لا تعرف الكتابة ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك (وكفاك بالعلم فى الأرض معجزة).

(علم الإنسان ما لم يعلم) ←

أى علَّم الإنسان بالقلم وبدونه ما لم يكن يعلم من الأمور على اختلافها.

ملحوظة:

لا يوجد بيان ولا دليل أقطع على فضل العلم والقراءة والكتابة من افتتاح الله كتابه وابتداء الوحى بهذه الآيات..وفى ذلك دلالة على أن زمن عصا موسى قد انتهى وحان زمن طلب العلم والعمل به.

❖ رجع رسول الله إلى السيدة (خديجة) وهو يرجف فؤاده فقال: زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع وأخبر خديجة بما حدث له فقالت له:

(لا تخف إن الله لا يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ (وهو الثقل ويدخل فى حمل الكل إعانة الفقير)، وتُكسب المعدوم (أى تعطى ما لم يعطه غيرك للفقراء) وتُقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر).



❖ ثم ذهبت معه إلى ابن عمها (ورقه بن نوفل) وهو المسيحى الوحيد فى مكة وعمره 90 سنة فأخبره النبى ﷺ بما حدث له فثبته وأكد له أنه نبىّ آخر الزمان وتمنى لو عاش حتى يدركه فيتبعه..ثم بعد أيام يموت ورقة.

❖ وبعد انقطاع الوحى (ليذهب ما كان وجده من الروع) وليحصل له التشوق إلى العود فلما حصل له ذلك أخذ يترقب مجيئه وأكرمه الله بالوحى مرة ثانية فبعد أن اعتكف فى غار حراء شهراً وفى أثناء هبوطه إلى الوادى رأى الملك جالساً بين السماء والأرض فامتلأ منه رعباً ورجع إلى زوجته يقول (زملونى، ودثرونى وصبوا علىّ ماء باردًا)فنزلت (سورة المدثر) (آية 1:7).

3- بدء نزول الرسالة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ [المدثر].

هذه الآيات هى مبدأ الرسالة، وهى متأخرة عن النبوة بمقدار مدة فتور الوحى (أى أنه نُبِّى باقرأ، وأرسل بالمدثر).

- وفى هذه الآيات نوعان من التكاليف:

(قُمۡ فَأَنذِرۡ) ← (1) الإنذار ← أى ابدأ بالرسالة فحذِّر الناس وأنذرهم من عذاب الله (والإنذار) ← هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه فتحث الإنسان على ألاّ يقبل أو يقدم على ما يضره - فهو دفع الضرر (أى درء المفسدة) وهو مقدم على جلب المنفعة (البشارة).

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ) ← (2) تطبيق المنهج ← فقم للأمر العظيم والعبء الثقيل الذى ينتظرك فقد مضى عهد النوم والراحة فقم وأنذر الناس من عذاب الله إذا ما استمروا فى شركهم - واجعل تكبيرك وتعظيمك لربك وحده دون سواه.

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ) ← (3) طهّر ثيابك ← لأن الطهارة شرط الصلاة، وطهّر نفسك أيضاً أى واظب على الطهور الحسى والمعنوى فى كل الأحوال.



(وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ) ← (4) والمراد (بالرجز) هنا ← الأصنام والأوثان أى داوم على ما أنت عليه من ترك عبادة الأصنام والأوثان.

- وهذه أربعة أوامر (افعلْ).

- ثم نهاه عن فعل ما لا يتناسب مع خلقه الكريم.

(وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ) ← أى عليك أن تبذل الكثير من المال والفضل لغيرك ولا تظن أن ما أعطيته كثير، أو ولا تتمنى أن يرد لك هذا الغير أكثر مما أعطيته (أى لا تعط العطية وتلتمس أكثر منها).

(وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ) ← أى وطن نفسك على الصبر على التكاليف وأن تتحمل المشاق فى سبيل الدعوة بعزيمة وصبر (هذه ست وصايا من المنهج).

- امتثل رسول الله ﷺ للأمر وقام وظل قائماً أكثر من عشرين عاماً لم يسترح ولم يعش لنفسه بل ظل قائماً يدعو الناس لله حاملاً عبء العقيدة والكفاح منذ أن تلقى التكليف.

ثم نزلت عليه صدر سورة (المزمل) على أثر سورة المدثر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل].

يا أيها المتزمل بثيابه المتلفف بها رهبة من عبدنا جبريل - قم الليل متعبداً بعد أن تأخذ قسطًا للراحة - نصف الليل للعبادة ونصف للنوم والراحة ووصف الحق نصف الراحة بالقلة للإشعار بأن النصف الثانى العامر بالعبادة والصلاة هو الأكثر ثواباً وقرباً من الله، والوقت القليل المتخذ للنوم والراحة قد يكون نصف الليل أو يكون أقل من النصف بأن يكون فى حدود الثلث ولك أن تزيد على ذلك بأن تجعل ثلثى الليل للعبادة وثلثه للنوم والراحة.

- فقد رخَّص الله تعالى لنبيه فى أن يجعل نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه للعبادة والباقى للنوم والراحة.



- وخصَّ الليل بالعبادة لتكون أكثر خشوعاً..هذا وقد استمر وجوب الليل على الرسول ﷺ حتى بعد فرض الصلوات الخمس على أمته مداومة له على مناجاة ربه ويدل على ذلك قوله:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء].

وهذه الخصوصية لرسول الله ﷺ فرضت عليه وإن ترك له مساحة من الحرية فى هذه العبادة فالمهم أن يقوم جزءاً من الليل ولعل هذا التهجد فى حق الرسول هو ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل].

- وكان التهجد ليلاً والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى الرسول القوة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الشاقة وهى حمل المنهج وتبليغه.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل].

- فى الوقت الذى ينام فيه الناس ويتثاقلون عن العبادة تقوم أنت بين يدى ربك مناجياً متضرعاً فتتنزل عليك الرحمات والفيوضات.

- (فمن يقتدى بالنبى ﷺ ويتبع هذه السنة فله نصيب من هذه الرحمات).

- فقيام الليل يعطى قوة إيمانية وطاقة روحية؛ وذلك لأن مهمته فوق مهمة الخلق؛ فالعبء ثقيل ويحتاج الاتصال بالحق ليستعين به على قضاء مهمته.

- وهذا المقام ليس فرضاً على المسلمين لكن من يتأسى برسول الله ويتشبه به يدخل بهذه النافلة إلى مقام الإحسان.

﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات].

تحدثت آية المزمل عن التكليف بقيام الليل ثم تتحدث آية الإسراء عن الجزاء وهو ﴿ ...عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء].



- والمقام المحمود ← هو مقام الشفاعة يوم القيامة حيث يحمل النبى ﷺ لواء الحمد ويشفع؛ لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء.

(وابعثه الله المقام المحمود الذى وعدته) فمن يدعو تحلّ عليه شفاعته.

- (محمود من كل الناس من لدن آدم وحتى قيام الساعة - يوم تتشفع كل أمة بنبيها فيردّها ويقول النبى ﷺ أنا لها).

- بدأ النبى ﷺ بعرض دعوته على الأقربين وكان معه أربع سور هى (اقرأ، والمدثر، والمزمل، والفاتحة) وفيها مختصر المنهج.

- آمنت زوجته (خديجة)، وابن عمه (علىّ بن أبى طالب) وصاحبه (أبو بكر ابن أبى قحافة) وكان أعرف الناس بالقبائل وأنسابها، ومولاه (زيد بن حارثة).

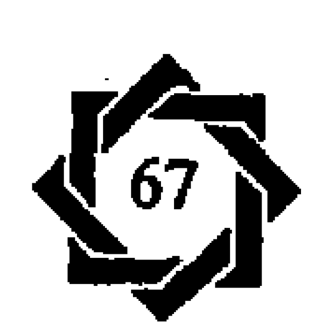
- ثم نشط (أبو بكر) للدعوة فأسلم على يديه ستة من المبشرين بالجنة هم (عثمان ابن عفان - طلحة بن عبيد الله - الزبير بن العوام (ابن عمته صفية) - عبد الرحمن بن عوف - سعد بن أبى وقاص (ابن خال النبى) - أبو عبيدة بن الجراح (أمين الأمة وبطل أُحد).

- ثم زاد العدد ودخل السابقون الأولون فى الإسلام قبل مرحلة الجهر بالدعوة وكان عددهم 130 رجلاً وامرأة، ويقول الحق عنهم:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة].

- (وَٱلسَّٰبِقُونَ) ← هم الذين كان سبقهم سبق زمان وسبق اتباع، وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة وسبقوا إلى النصرة فى المدينة.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة].



- ثم يأتى بعدهم في المرتبة:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الواقعة].

- ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول:

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة].

- فإذا قال أحد: وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ولم نلحق بزمن النبى؟

فيقول الحق أن هناك قلة من الآخرين سيأتون بعد زمان النبى ﷺ ولكنهم سينالون المرتبة الرفيعة ويصلون إلى منزله الصحابة السابقين.

- كان الصحابة - فى هذه الفترة - يستخفون بصلاتهم فكانت هى العبادة الوحيدة التى تؤدى (كانت ركعتين قبل الشروق وركعتين قبل الغروب) أتاه جبريل فعلمه الوضوء والصلاة وكان ذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس فى رحلة الإسراء والمعراج.

- وهكذا مرت ثلاثة أعوام والدعوة مقصورة على هؤلاء النفر من المسلمين ولم يؤمر النبىّ ﷺ بالجهر بها إلا أن قريشًا قد عرفت بها ولكنهم أعرضوا عنها ولم يهتموا بها حيث لم يتعرض الرسول لدينهم ولم يطلب منهم ترك آلهتهم.

الباب الخامس

الأمر بالجهر بالدعوة (من سنة 34 ــ 63)

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء].

السنة الرابعة:

أمر الحق نبيه الكريم بأن يجهر بالدعوة وأرشده بأن يبدأ بعشيرته الأقربين ثم يدعو المؤمنين. فأنزل الحق فى هذه المرحلة (سورة الشعراء) والتى تسمى بالسورة (الجامعة) لأنها تضمنت الحديث عن قصص الأنبياء وعن مواقف المرسل إليهم من رسلهم كنوع من التسلية والتعزية للرسول وحتى يعلم أنه ليس بدعاً من الرسل فما سيتعرض إليه من قومه من إعراض واستهزاء وتكذيب وإيذاء تعرض له جميع الرسل من قبله ثم بشره الحق بنصرته ونصرة أتباعه وأنذرت أعداءه بسوء المصير.

كما أورد الحق فيها (الأدلة على وحدانية الله وعلى أن البعث حق، وعلى صدق الرسول فيما يبلغ عن الله).

– وهذه هى المحاور الثلاثة التى دارت حولها كل السور المكية (سور العقيدة).

– ثم ختمت كل قصة من قصص الأنبياء التى تناولتها السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[الشعراء].

وقد تكرر هذا التذييل ثمانى مرات لتأكيد تكرار الأحداث مع كل رسول.

تناولت السورة قصص:

موسى مع فرعون وإبراهيم مع قومه ونوح وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، مع أقوامهم وكيف كانت عاقبة هؤلاء المكذبين.



ثم تناولت قصة النبى ﷺ بدءًا من نزول الروح الأمين بالقرآن على قلبه ثم الأمر بالجهر بالدعوة ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء].

مقتطفات من سورة الشعراء

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الشعراء].

يسلى الحق رسوله حتى لا يحمل نفسه فوق طاقتها ويعلمه أنه لن يستطيع أن يكره الناس على الإيمان، فهؤلاء المشركون كلما تأتيهم آية تلو الأخرى تدعوهم إلى الله فإنهم يعرضون عنها، فقلوبهم مليئة بالعداوة لرسول الله، وفى هذه العداوة ينتقلون من الإعراض إلى التكذيب ثم الاستهزاء فهؤلاء(فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ). ﴿ ...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]. أى غداً سيعلمون عاقبة تكذيبهم فهم لم يقتصروا على الإعراض والتكذيب إنما تعدى الأمر منهم إلى الاستهزاء، ألم يقولوا:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾[الفرقان]. ثم يلفتهم الحق إلى الآيات الكونية ولكن مهما تعددت الآيات فهم لا يؤمنون لذلك؛ يكرر الحق هذا التذييل عقب كل قصه:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء]. هؤلاء الذين كفروا وأصروا على كفرهم هم لم يكفروا رغماً عن الله ولكنهم كفروا بما أودع الله فيهم من اختيار فلو أراد الله أن يجبرهم على الإيمان لفعل بدليل أنهم مقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة (كالموت والمرض والأقدار........)ولكن الله يعطيهم الاختيار ويعينهم على ما يختارون لأنه تعالى يريد أن يؤمن الناس بقلوبهم لا بقوالبهم وهذا هو الابتلاء الذى من أجله خلقنا.

و كلمه العزيز تعنى أنه لا يغلب ولا يقهر ولكن هذه الصفة لا تكفى فى حقه لأنها تفيد المساواة للمقابل فلابد أن يزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب لذلك يقول الحق: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ



مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف].

ثم يذكر بعدها صفة الرحيم فهو سبحانه مع عزته رحيم حين يغلب ألم يرسل إليهم الرسل؟ ألم يتابع لهم الآيات؟!

ويدعوهم إلى النظر والتأمل لعلهم يثوبون إلى رشدهم؟ ثم أمهلهم ولم يأخذهم بعذاب الاستئصال كما أخذ الأمم السابقة حين كذبت رسلهم؟ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

* أما أمة محمد ﷺ فقد قال في شأنها في سورة الأنفال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

* ثم يأخذ السياق بعد ذلك إلى موكب الرسالات ليسلي النبي ويعطيه عبرة من الرسل والمرسلين ألم يقل الحق فيهم: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس].

فالمسألة قديمة قدم الرسالات.

فيا أيها الرسول الكريم ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر] ولا تقتل نفسك همًّا وغمًّا بسبب تكذيبهم لك وإعراضهم عن رسالتك ثم يقول الحق: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء].

فلقد اقتضت حكمة الله أن يكون دخول الناس في الإيمان عن الاختيار والرغبة وليس عن طريق الإلجاء والقسر.

فاصبر(فسوف يأتيهم أنباء العذاب الذى كانوا يستهزئون به) عندما تحدثهم عنه وهو واقع بهم لا محالة ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله سبحانه.

القصة الأولى - قصة موسى:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشعراء].

* ثم حكى الحق لرسوله الكريم جانبا من قصة موسى (عليه السلام) عندما ذهب إلى فرعون وقومه.. إلى أن انتهت قصتهم بهلاكهم وإغراقهم ونجاة موسى وقومه.. ثم يختم الحق هذه القصة بنفس التعليق.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء].

أى أن ما حدث من أمور عجيبة تخرج عن المألوف وتستوجب الالتفات إليها والتأمل فيها لآية تقنع العقل بأن الله هو الذى أجراها على يدى موسى وتدل على صدق رسالة الرسول (موسى) وبلاغه عن الله، ولكن المحصلة النهائية كانت أن من آمن بهذه الآيات كانوا قلة.

وبعد كل ما حدث من حيثيات فإن الله هو العزيز الذى لا يُغلب ومع عزته وقوته فهو أيضًا الرحيم بكل خلقه ويقبل التوبة لمن يتوب ويرجع إلى ساحته.

وبعد الانتهاء فى إيجاز مبسط لقصه موسى يتكلم الحق عن قصة إبراهيم عليه السلام، ولم تأت القصص مرتبة ترتيباً تاريخيًا؛ لأن القرآن ليس سردا للتاريخ ولكن الهدف من القصص هو التقاط مواضع العبرة والعظة، واتخاذ الأسوة من تاريخ الرسل لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة.

والمتأمل لرسالة موسى نجد أنه جاء ليعالج مسألة هى قمة العقيدة ويواجه من ادعى الألوهية. أما إبراهيم (عليه السلام) فقد جاء ليعالج مسألة الشرك بالله وعبادة الأصنام فعندهم طرف من إيمان بدليل أنهم إذا ضاق عليهم الخناق قالوا: ﴿ ...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ...﴿٣﴾ ﴾[الزمر].

لذلك كانت قصة موسى أولى بالتقديم هنا.



أى اقرأ على المكذبين من قومك نبأ رسولنا إبراهيم -عليه السلام- الذى يزعم قومك أنهم ورثته ومتبعوه فى الديانة وذلك لكى لا يغتروا بقوتهم ولا ينخدعوا بسيادتهم على العرب فمكانة قريش إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام، فلولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة، فلو انهدم البيت فى حادثة الفيل ما كان لهم سيادة ولا سيطرة، فما دام أن الله فعل هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾[قريش].

ولقد كان محمد ﷺ هو دعوة أبيه إبراهيم عندما دعا ربه ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ...﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[الشعراء].

ثم أورد الحق قصة إبراهيم وكيف أنه قد بدأ دعوته إلى أبيه وإلى أقرب الناس إليه لا الغريب، والدعوة التى توجه أولا للقريب لا بد أنها دعوة حق وخير لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ثم لأقرب الناس إليه.

ولو لم تكن خيرا لقصد بها الأباعد والغرباء عنه.

و نلاحظ أن جدل إبراهيم -عليه السلام- مع قومه بدأ من قبل أن يرسل حيث إنه عليه السلام كان ناضجا ومتفتحا منذ صغره لذلك قال الله عنه:

﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء].

وكذلك كان نبينا -عليه السلام- كارها للأصنام معترضا على عبادتها من قبل أن يرسل؛ لذلك كان يعتزل الناس ويلجأ إلى الغار يفكر فى الإله الحق. فإن الإنسان لو تفكر برشد لانتهى إلى الحق بدون رسل، لأن دين الله هو دين الفطرة التى لو توفرت لدى الإنسان لاهتدى إلى الحق.



لقد جادل إبراهيم -عليه السلام- قومه بالعقل ولما لم يجدوا ردًا قالوا إنهم مقلدون لآبائهم. فقال إبراهيم: لا تلقوا بأخطائكم على الآباء، ولا تعلقوا عليهم بها أنتم فيه.. ثم أعلنها دعوة صريحة (عداوته للأصنام) تحداهم حتى نجحت دعوته ولم يصبه أي ضرر من هذا التحدى.

ثم أوضح لهم أسباب وحيثيات هذه العداوة وسر هذا التحدى فيقول (ﷺ)فالذى خلقنى ورزقنى من عدم هو الذى يهدينى بمنهجه الذى هو (قانون الصيانة).

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾[الشعراء].

و نلاحظ هنا ضمير التوكيد (هو) فقد أكد الحق نسبة الهداية والإطعام والسقاية والشفاء إليه تعالى لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى فقد يدعى واضعو القوانين من البشر أن ما وضعوه جاء لهداية البشر مثلما ادعى مؤلفو (الشيوعية والرأسمالية والوجودية وغيرها...) أنها جاءت لصالح البشر وإنها طريق هدايتهم أو يظن البعض أن الأب هو الرازق لأنه هو الجالب أو أن الطبيب هو الشافى، لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسائل؛ أما فى المسائل التى لا يدعيها أحد فيأتى الفعل فيها دون توكيد.

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ ﴾[الشعراء].

لأن الحياة والموت بيد الله تعالى ولم يدعيها أحد واستخدم (ثم) لتفيد العطف مع التراخى لأن بين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة.

ثم أخذ إبراهيم يدعو ربه قائلاً:﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾ [الشعراء].

خطيئتى بمعنى (خطايا) أى ليست خطيئة واحدة، إنه أدب عال مع الله وهضم لعمله. فالإنسان مهما عمل من خير فهو دون ما يستحق الله تعالى لذلك كان طلب المغفرة من الطمع....وما هى تلك الخطايا؟

قوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ ﴾ [الأنبياء]. عندما حطم الأصنام وادعى أن كبيرهم هو الذى حطمها.



وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ ﴾ [الصافات]. لم يكن مريضا مرضًا جسمانياً وإنما مرضاً نفسيا لأنه لا يستطيع الوصول إلى دليل مادى لمجادلة قومه، وقوله للكواكب والقمر والشمس ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ ﴾ [الأنعام] وكان هذا نوع من الجدل الارتقائى ليصل معهم إلى الحقيقة وقوله لفرعون إن سارة أخته فهى أخته فى الدين.

ويجب أن ننظر هنا متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه؟

عرض المنهج بعد أن ذكر حيثيات الألوهية واعترف لله بالنعم السابقة وأقر بها، فقد خلقة من عدم وأمره من عدم ووفر له كل مقومات الحياة.

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضى على كبرياء النفس ويصفى روحه فيصير أهلا لمناجاة الله وأهلا للدعاء (فمن يعترف بالنعم السابقة يأتى له النعم اللاحقة) ومن لا يقر بالنعم السابقة لا يأتى له مزيد من النعم. فإبراهيم – أبو الأنبياء لم يجترئ على الدعاء بشىء آت إلا بعد أن ذكر لله النعم السابقة وشكره عليها فوافق قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [إبراهيم].

و دعا إبراهيم ربه. رب هب لى حكما.

(التحق بهم فى العمل).

(وأنه فى الآخرة لمن الصالحين).

لم يدع إبراهيم بشىء من الدنيا وقال فى دعائه: (هب لى...) والهبة هى العطاء دون مقابل...كأنه يقول يا رب أنا لا أستحق فاجعلها لى هبة من عندك....أريد (حكماً) أى أن يستطيع أن يحكم على الأشياء.

أولا: فإن كانت خيرا يعمل بها أى أن يصنع الشىء بعد حكمه عليه فى موضعه ويعمل بما علم ثم يلحق بالصالحين فى العمل والسوء لينال بعدها الجزاء وليس المراد أن يلحقهم فى الجزاء إنما فى العمل.



فاستجاب له سبحانه فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام].

لقد أطلعه الله على علم الغيب (على المخلوقات غير المحسوسة) بين الجنة والنار والملائكة ودعاء آخر:

- ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء].

أى اجعل لى ذكرا حسنا يذكر بحق وصدق (ليس كما نفعل الآن فى حفلات التأبين بتكييل المدائح والثناء على المتوفى بالكذب) وأن يتعدى الذكر الحسن حياتى إلى من بعدى. وقد استجاب له الحق فى هذه فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الصافات].

- ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء].

ثم دعا لنفسه بجنة النعيم الدائمة فى الآخرة وقد أجابه الله إلى هذه فقال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

ولم ينس إبراهيم أن يدعو لمن رباه:

- ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء] هذا الدعاء كان قبل أن يعرف أنه عدو لله ولم يستجب الله له فى هذه لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

لقد وعد إبراهيم -عليه السلام- أباه أنه سيستغفر له ربه فى قوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم].

لأن إبراهيم يعلم أن ربه يحبه وسيكرمه فى استغفاره لأبيه ولكنه لما عرف أنه عدو لله تبرأ منه.



﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

أتى إبراهيم -عليه السلام- بالمسألة التى تشغل بال الناس جميعًا والتى يقول عنها الحق:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الكهف].

ومع أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا فهذا لايمنع نفعها لصاحبها إن أحسن التصرف فى ماله فأنفقه فى أوجه الخير وأحسن تربية أولاده، ولكن هذه أيضًا لا تستقيم إلا إذا ﴿ ...أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[الشعراء].

أى أخلصْ فى هذا كله.. وإلا فالرياء يحبط العمل ويجعله هباء منثوراً أى أنهما نافعان بشرط أن تأتى الله بقلب سليم صالح، ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك والنفاق والرياء.

وبعد أن ينتهى السياق القرآنى قصة إبراهيم عليه السلام ينتقل إلى قصة أخرى.

القصة الثالثة: قصة نوح

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[الشعراء].

ومن كذب رسوله فقد كذب الرسل كلهم، حيث إن أصول الدين واحدة فى كل الرسالات.

(أَلَا تَتَّقُونَ) هذه هى الكلمة التى تأتى على لسان كل الرسل.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[الشعراء].

ثم يكرر الأمر بالتقوى ويأتى به صريحاً بعد أن أتى به فى صورة الإنكار، وثمرة التقوى هى طاعة الأوامر واجتناب النواهى. وهذه لايأتى بها إلا رسول خاص بالمنهج ومبلغ للدعوة.

وهذه الآية تكررت فى سورة الشعراء خمس مرات (قالها نوح وهود، وصالح، ولوط وشعيب) ومرة سادسة قالها موسى فى الآية 18 سورة الدخان.

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[الشعراء].

هذه العباره لم يقلها موسى ولا إبراهيم -عليهما السلام- وذلك لأن موسى جاء يدعو فرعون الذى رباه وإبراهيم يدعو أباه (عمه) الذى رباه والابن لا يطلب الأجر من الأب.

أما نوح فقد قالها وهو يعنى أنه يستحق أجراً على عمله هذا (فهو غير زاهد فيه) ولكنه لا يريد أخذه من قومه. فسوف يقوّمه القوم بمقاييس بشرية، لذلك فمن الأفضل أن يتركه ويأخذه من الله. لأنهم لن يستطيعوا أن يُقوّموا ما يقوم به من أجلهم. فهو قد جاء بمنهج هداية فى الدنيا ونجاة فى الآخرة، وهم لن يقوّموا هذا العمل، ولن تسمح إمكانياتهم ولا علمهم بتقديره.. ولكن الله تعالى هو القادر على أن يكافئه على عمله فهو الذى أرسله.

ثم كان موقف المرسل إليهم هو الإعراض والتكذيب ثم الاستهزاء ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ ﴾[الشعراء].

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ ﴾ [الشعراء].

﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ ﴾[الشعراء].

﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠ ﴾[الشعراء].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢ ﴾[الشعراء].

القصة الرابعة قصة هود:

ثم يتحدث الحق عن قصة هود وكيف كذبت عاد التى لم يخلق مثل حضارتهم وليس عجيبا أن تختفى هذه الحضارة تحت الرمال حين ثارت وابتلعت كل ما أمامها وطمرت قصورهم وأبنيتهم الضخمة التى بنوها بكل هذه الفخامة ليخلدوا فيها، ولكنها سرعان ما زالت.

لقد وصفتهم الآيات بصفات ثلاث:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[الشعراء]. أرادوا التطاول فى البنيان بقصد التباهى والعبث. لابقصد النفع العام وبطشوا فيها جبارين.

لكن لم يتركهم الله عز وجل يستمرون على هذا الحال. فبعد أن أرسل لهم رسولهم (هود).

يقول لهم: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[الشعراء].

وكان ردهم عليه:

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[الشعراء]. أى أرح نفسك سواء وعظتنا أم لا فلن نتبعك.

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[الشعراء].

إن هذا الذى جئت به ما هو إلا عادة من سبقوك من الرسل، كان خلقهم الكذب والاختلاف ونحن مثل ما سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم فى عدم الإيمان بالبعث ولا بالرسل فلا تحاول زحزحتنا عمّا نحن فيه فنحن يستوى عندنا وعظك وعدمه.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾[الشعراء].

نعم لقد أهلكهم الله ولم تستطع حضارتهم أن تصونهم أو أن تمنعهم من أخذ الله العزيز المقتدر فأهلكهم.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ ﴾[الحاقة].

فأنذر يا محمد قومك لأنهم هم أضعف من قوم عاد التى زالت حضارتها تماما، إن فى إهلاك هذه الحضارة لأمرًا عظيمًا يلفت الأنظار ويدعو للتأمل.

وسميت بـ (الحجر) لأن المنطقة كلها من الحجارة وهم ينحتون فى هذه الحجارة بيوتهم.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الشعراء]. ثم يقصّ الحق طرفاً من قصة (قوم صالح).

وقد تكررت هذه اللقطات فى عدة مواضع من القرآن وذلك لأن القرآن لا يعالج أمة واحدة فى بيئة واحدة بخُلق واحد إنما يعالج بيئات مختلفة بها آيات مختلفة، فكان لا بد أن يجمع الله للنبى ﷺ قصص كل الرسل ليأخذ من كل واحدة منها لقطة، لأنه سيكون منهجًا للناس جميعًا فى كل زمان وفى كل مكان.

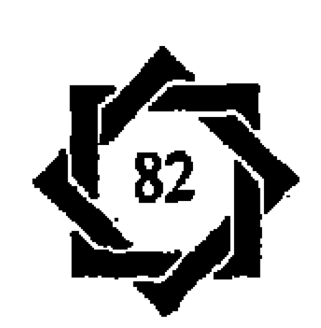
أما هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله فى سياق واحد فقد كان كل واحد منهم مرسلاً لأمة بعينها فى زمن مخصوص ومكان مخصوص. أما محمد ﷺ فقد بعث ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد، ومنهج واحد مع تباين بيئاتهم. إذاً لا بد أن يذكر الحق لرسوله طرفا من سيرة كل نبىّ سبقه ليثبّت فؤاده. فكان ﷺ كلما تعرض لموقف يحتاج إلى تثبيت يثبّته الله، فيقول له تذكر ما كان من أمر الرسل قبلك.

فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت.

قوم صالح كانوا يعبدون الأصنام فى مساكنهم المعروفة (بمدائن صالح) فى الأردن.

ينصح صالح قومه بترك الشرك ويأمرهم بالتقوى ويصارحهم بتعففه عن تقاضى الأجر منهم.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾[الشعراء].



يقول لهم صالح: أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم؟ وأنتم تتقلبون فى نعمه التى خلقها. ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة ومتنوعة؟

إن كنتم تظنون ذلك فأنتم خاطئون، فكل هذه النعم مصيرها إلى زوال، وعليكم أن تخلصوا العبادة لله والشكر لكى يزيدكم من فضله.

استخدم صالح أرق ألوان الوعظ ليلفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والزروع المتعددة والنخيل ذات الطلع (وهو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأنثى والمادة المخصبة فى الذكر) اللذيذة الطعم حتى لكأن ثمرها لجودته لا يحتاج إلى هضم فى البطون.

ثم ذكرهم بنعمة أخرى وهى أنهم ينحتون بيوتهم الفارهة فى الجبال بمهارة فائقة بقصد التفاخر والبطر لا بقصد الإصلاح والشكر لله.

ثم نهاهم عن طاعة المفسدين. وكانوا تسعة رهط فى المدينة متجاوزين الحدود فى الفساد. كل هذا النصح من صالح لقومه لم يقابل بالطاعة بل قابلوه بالتطاول والاستهتار فقالوا ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء].

﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل].

وما أنت أيضا إلا بشر مثلنا فإن كنت رسولاً حقاً فأتنا بمعجزة تدل على صدقك.

هم بجهلهم يرون أن البشرية تتنافى مع النبوة والرسالة، فأسرع الحق إليهم بما طلبوا ليقيم عليهم الحجة.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الشعراء].



هم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، فطلبوا منه أن: يخرج لهم من صخرة معينة – عينوها بأنفسهم – ناقة، على أن تخرج وهى عشراء تمخض، وعلى ألا يكون وليدها صغيرا، إنما تلد وليدًا فى نفس حجمها، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنوا به، وليتبعونه.

فلما أعطوه المواثيق على ذلك قام صالح فصلَّى ثم دعا ربه أن يجيبه، فانفطرت الصخرة عن ناقة عشراء على نفس الصفات التى وصفوها. وقال لهم إن الناقة لها نصيب معين من الماء ولكم نصيب آخر وليس لكم أن تشربوا منه فى يوم شربها وهى لا تشرب منه فى يوم شربكم.

واحذروا أن تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم.

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر].

فنزل عليهم العذاب بدون تراخ أو إمهال. أخذتهم الرجفة وتبعتها الصيحة التى صاح بها جبريل، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وقد ندموا وتابوا فى غير أوان التوبة.

ثم ينتقل الحق إلى قصة أخرى من مواكب الرسل وهى قصة(لوط).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ [الشعراء].

قال لوط لقومه نفس قول إخوانه السابقين من الرسل.

و قومه هم أهل سدوم فى الأردن. أخذ يدعوهم إلى الله، وينهاهم عن الفاحشة التى لم تحدث من قبل، وهى إتيان الذكور دون الإناث وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعرفه من قبل.

فقد بلغ بهم انحطاط الفطرة أنهم يأتون الذكور ويتركون النساء اللاتى أحلهن الله لهم. فهم بهذا الفعل القبيح يكونون قد تعدّوا حدود الله. فردّوا عليه بما يدل على شذوذ فطرتهم:

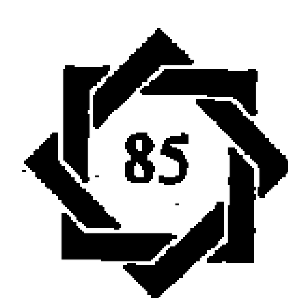
﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)﴾ [الشعراء].

توعدوا لوطا: لئن لم يسكت عن نهيهم عما هم فيه ليطردوه من قريتهم.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)﴾ [الشعراء].

قال لهم لوط إنه ينكر ويبغض ما يعملون. ثم توجه إلى ربه يدعوه بأن ينجيه هو وأهله المؤمنين. فاستجاب له الله فنجاهم، إلا امرأته الكافرة لم تنجُ، بل بقيت مع المهلكين. ثم أهلك الحق قوم لوط وأبادهم عن آخرهم بأن أمطرهم بحجارة من سجيل.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود].



فالحجارة من طين حرق حتى تحجر و(مسومة) أى معلمة بأسماء أصحابها تنزل عليهم بانتظام. كل حجر ينزل على صاحبه.

ثم ختم القصة بنفس الآيات التى ختمت بها القصص السابقة.

ثم جاءت فى نهاية هذه القصص (قصة شعيب).

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾[الشعراء].

نلاحظ فى هذه القصه أنه لم يقل (أخوهم شعيبًا) كما قال فى (نوح وهود وصالح ولوط) ذلك لأن شعيبا كان غريبا ولم يكن من أصحاب الأيكة.

ثم يأخذ فى تفصيل الأمر الخاص بهم، لأن كل أمة من الأمم التى جاءها رسول من عند الله. إنما جاء ليعالج داء خاصا تفشى بها، وكانت الأمم من قبل منعزلة لا يوجد بينها اتصال فلا تنتقل هذه الداءات من أمة لأخرى.

وكان داء أصحاب الأيكة هو أنهم (يطففون المكيال والميزان ويقطعون الطرق).

والأيكة: هى منطقة مليئة بالأشجار حول خليج العقبة، وكان أهلها يعبدون الأشجار وكانوا من أهل مدين، لذلك زعم البعض أن شعيبا بعث لأمتين، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء.

أمرهم نبيهم بأن:

يوفوا الكيل ويزنوا بالقسط ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يعثوا فى الأرض مفسدين.

ونلاحظ أنه خصّ الكيل والميزان ولم يذكر القياس بالمتر أو بالذراع وذلك لأن الناس قديماً كانت لا تتعامل فيما يقاس. فالقماش كان يُغزل ويُباع بالوزن.

ثم يأمرهم بتقوى الله الذى خلقهم ومن قبلهم الذين كانوا ذوى قوة، كأنها الجبال فى صلابتها (كقوم هود وأمثالهم) ممن اغتروا بقوتهم فأهلكهم الله.



استمع قوم شعيب إلى نصائحه الحكيمة ولكن لم يتأثروا بها بل اتهموه فى عقله وفى صدقه وتحدوه فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء].

(مسحر): صفة مبالغة من وقوع السحر عليه أكثر من مرة، فلو سحر مرة واحدة لكان مسحورًا.. والمعنى: أنه مختل العقل والتفكير ومجنون، فلا يسمعون له.. أو أنت مجرد بشر مثلنا ولا تتميز عنا بشيء فلا ميزة لك علينا، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه.. فإن كنت صادقاً فى دعوى الرسالة.. فأسقط علينا قطعاً من العذاب من جهة السماء.. وقد وردت هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذبين.. وسيقولها الكفار للنبيّ (ص) بعد ذلك قالوا ﴿ ...ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال].

وكان عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.. وهذا يدل على جهلهم وعنادهم.

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

بعث الله عليهم حراً شديداً سبعة أيام عاشوها فى قيظ شديد، وحجز عنهم الريح، ثم سلط عليهم غمامة، فظنوا أنها تخفف عنهم حرارة الشمس فاستظلوا بها ينتظرون الراحة فعاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر.

ثم ختم سبحانه قصة شعيب مع قومه بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم ﴿ ...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء].

نلاحظ أن معظم القصص هنا قد افتتحت بافتتاح متشابه ثم اختتمت أيضاً بخاتمة متشابهة. ولعل السر فى ذلك تكرار التسلية للنبى وتثبيت فؤاده، وبيان أن ما سيصيبه من

قومه قد أصاب الرسل السابقين، فعليه أن يصبر كما صبروا لأن (المصيبة إذا عمت خفت) لقد ساق الحق هذه القصص مع بيان ما يحدث للمكذبين، وكيف أن السماء تتدخل لمعاقبة الخارجين عن منهجه وتنصر رسل الله ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب لما سيدعو إليه النبيﷺ من عاقبة أمرهم وما سيلقون من عذاب أليم، ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس].

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما هو منهج الرسول بإيجاز شديد هو: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾[الشعراء] ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء].

ثم أرشده الحق إلى ما يجب عليه نحو عشيرته الأقربين، ويبدأ بالعشيرة حتى يكون أدعى للطاعة والقبول:

أولاً: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء].

وهكذا جاء الأمر لرسول الله أن ينقل الدعوة إلى أهله وعشيرته الأقربين بعد أن ألزم به نفسه، وهذا أدعى للطاعة وللقبول.. أن يضمن أهله وأقاربه أولاً ويبدأ بهم والحق خصص عشيرته بالذكر أولاً – مع عموم رسالته – لدفع توهم المحاباة ولأن الاهتمام بشأنهم أهم فالبداية تكون بمن يلي ثم من بعده.

إنذار وليس تبشير فلا تأخذك بهم رأفة.

(والإنذار): هو التحذير من الشر قبل مجيئه، فلم يقل بشّر عشيرتك. كأنه يقول إياك أن يأخذك بهم لين أو رأفة لقرابتهم لك بل بهم فابدأ.

الدعوة الأولى:

وقد امتثل رسول الله ﷺ للأمر فدعا 45 رجلاً من أقاربه المقربين للطعام وبعد الانتهاء من الطعام، وقبل أن يتكلم الرسولﷺ قام (أبو لهب) عمه معلناً عن معارضته لدعوته فسكت النبيﷺ ولم يعقب.



(وأبو لهب) هو عم النبى ﷺ واسمه (عبد العزى بن عبد المطلب) وامرأته (أروى بنت حرب) أخت (أبو سفيان بن حرب) وكنيتها (أم جميل).

الدعوة الثانية:

أقام النبى ﷺ وليمة ثانية كسابقتها ولكنه فى هذه المرة تكلم فقال: (إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون...). واستطاع أن يجد الحماية من قبيلته. ولكن لم يؤمن به أحد إلا (على بن أبى طالب) هو الوحيد الذى بايعه.

الدعوة في مكة:

ذهب النبى ﷺ ووقف فوق جبل (الصفا) وهو أكثر مكان مشهور فى مكة معلناً دعوته للإسلام، وجعل ينادى القبائل (يا بنى فهر، يا بنى هاشم، يا بنى عبد المطلب...) فأسرع الناس إليه، ومن لم يستطع الخروج إليه أرسل رسولاً لينظر الخبر. فلما اجتمعوا قال النبى ﷺ: [أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟] قالوا: نعم ما جربنا عليك الكذب فأنت الصادق الأمين.

قال: (فإنى لكم نذير، بين يدى عذاب شديد، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً).

ثم دعاهم إلى الحق فخصّ وعمّ فقال:

(يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً ولا أغنى عنكم من الله شيئاً).

يا معشر بنى عبد مناف، يا بنى شمس، يا بنى هاشم، يا بنى عبد المطلب يا صفية بنت عبد المطلب (عمة الرسول)، يا فاطمة بنت محمد.. أنقذوا أنفسكم من النار.. ولما تم هذا الإنذار تفرق الناس ولم يبدوا أى رد فعل إلا (أبو لهب) قال.. تباً لك يا محمد سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت فيه (سورة المسد).



﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد].

هذه هى السورة السادسة في ترتيب النزول

وقوله ﴿تَبَّتْ﴾ الأولى هى دعاء عليه بالهلاك والخسران والثانية ﴿وَتَبَّ﴾ هى إخبار عن أن هذا الدعاء قد استجيب، وأن الخسران قد نزل به فعلاً. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ ما أغنى عنه ماله الذى ورثه عن أبيه ولا ماله الذى جمعه وكسبه عن طريق التجارة وغيرها – لن يغنى عنه من عذاب الله شيئاً، أو شيئاً من انتشار رسالة الله فى الأرض.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾: سيلقى فى نار شديدة اللهب ووصفها بأنها ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لزيادة تقريب المناسبة بين اسمه وكفره والنار الموصوفة بمثل اسمه.

ولما سمعت (أروى بنت حرب) زوجة أبى لهب ما نزل فى زوجها من قرآن أتت رسول الله وهو جالس بجوار الكعبة ومعه (أبو بكر) وفى يدها حجر تريد أن تلقيه عليه، فأخذ الله ببصرها فقالت: أين هو؟ والله لو وجدته لضربته بالحجر. ثم انصرفت وهى تنشد (مذمماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا).

فأعقب سبحانه بذم زوجته فقال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد].

والمقصود بالقول: حقيقة ما كانت تفعل فقد كانت تحمل بنفسها الحطب والشوك وتنشره فى طريقه ﷺ ليلاً لإيذائه.

وقد يكون القول كناية عن مشيها بالنميمة بين الناس وإشاعة السوء حول الرسول ﷺ، فهى لذلك ستصلى ناراً شديدة مع زوجها. وسيزيد الله من إذلالها بأن يأمر ملائكته بأن تضع فى عنقها حبلا مفتولا فتلا قويا مشتعلا من مسد النار.

والذى يتأمل هذه السورة يجد أنها أخبرت بشقاء أبى لهب وامرأته وأنهما سيصليان ناراً ذات لهب – وقد علما بما جاء فى هذه السورة من عقاب ومع ذلك فقد بقيا على كفرهما، ولقد صرف الله تعالى عن لسانهما أن ينطقا بكلمة التوحيد ولو فى الظاهر. فتثبت بذلك



الإعجاز القرآنى فى التنبؤ بما لم يحدث بعد، وأن الرسول صادق فيما يبلغ عن الله. لقد اعترض (أبو لهب) على رسالة ابن أخيه بالرغم من إدراكه بصواب ما يدعو إليه - إلا أنه اختار المصلحة المادية على الحق.

أما عمه (أبو طالب) فقال: لأمنعنك ما بقيت، ولكن نفسى لا تطاوعنى عن فراق دين آبائى... ولم يؤمن به أحد من بقية القوم.

وبعد أن أمره الله بالشدة والإنذار على أهله وقرابته أمره باللين واللطف والتواضع مع باقى المؤمنين فقال:

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[الشعراء]. وخفض الجناح كناية عن الحنان والرحمة، فإن عصاك الأقارب فلا تتردد فى أن تعلن براءتك مما يعملون - فعندها لا تراعى فيهم حق الرحم ولا حق القربى لأنه لا حق لهم.. يريد الحق أن يعلنها الرسول على الملأ ليعلمها الجميع.. يريد الحق أن يعلمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً أو نجامل أقاربنا على حساب الحق حتى تستقيم أمور الحياة... (فالذى يفسد الحياة انتشار النفاق والمجاملة على حساب الحق).

لذلك يعلمنا القرآن أن نعلنها صراحة ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ومن يريد أن يحكم الناس فعليه أن يحكم نفسه أولاً. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾[الشعراء].

لم يزل صوت النبى ﷺ يرتج دويه فى أركان مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[الحجر]. والصدع هو الشق فى الشىء المتماسك الصلب ﴿... وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ.... ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة]. أى اجهر بدعوتك بقوة ليشق الكفر والفساد المتماسك القوى... فقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك، وأعرض عن هؤلاء المشركين ولا تسأل عنهم - فهم لن يسلموا ولن

يستجيبوا لك لأنهم مستفيدون من الفساد الواقع فى المجتمع والذى جئت أنت لتهدمه، ولكنهم سيأتون بعد ذلك تباعاً بعد أن تثبت دعوتك.

وبعد ذلك ثبت للجميع أن كل مستهزئ بمحمد ﷺ قد نال عقابًا من السماء فمن لم تصبه عاهة أو آفة صرعته سيوف المسلمين فى بدر لدرجة أن الرسول ﷺ قد حدد الموقع الذى سيلقى فيه كل واحد من صناديد قريش حتفه، حتى من قبل أن تبدأ المعركة، ثم حدث كل ما تنبأ به رسول الله بالضبط.

ويحدد الحق نوعية المستهزئين برسول الله بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ ﴾ هؤلاء هم الذين يهزأون به.

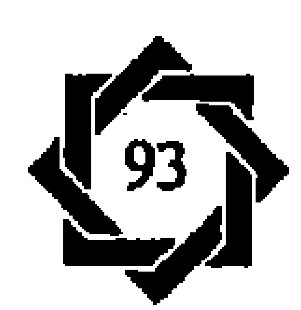
وحين يقول الحق ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ ففى هذا القول استيعاب لكل الأزمنة؛ لأن كلمة (سوف) تتسع لكل المراحل فالحق لن يأخذهم جميعاً فى مرحلة واحدة بل يأخذهم على فترات. فحين يأخذ أحد من هؤلاء المتطرفين فى الإيذاء فقد يرتدع الباقى ويتراجعوا عن الإيذاء أو يتحولوا إلى الإيمان، وهذا المثل واضح فى (عكرمة بن أبى جهل) وكان كأبيه من أشد الناس إيذاء للرسول ﷺ ثم أسلم فى عام الفتح وخرج إلى المدينة وقاتل أهل الردة، واشترك فى فتح بلاد فارس واستشهد يوم اليرموك.

ثم يقول له الحق مواسياً له: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، وفى هذا القول الكريم يتجلى تقدير الحق لمشاعر النبوة فالحق سيكلفه بمهمة شاقة، ويعلم أيضاً ما سيعانيه فى تنفيذ هذه المهمة، مما يسبب له ضيق الصدر. فيدلّه ويرشده سبحانه على علاج لمسألة ضيق الصدر من كل مُكذّب أو مستهزئ فيقول:

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، وهكذا يمكن أن تُذهب عنك أى ضيق بأن تسبح لله.

فإذا ما كذبك البشر أو ضايقك الخلق فأنس بالله عن طريق التسبيح ولن تجد أرحم منه سبحانه، احمده على كل شىء لتعيش فى كنفه ورحمته.. ولذلك يقول الحق فى (سورة الصافات) ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات].

فإذا ضاق صدرك فى الأسباب فاذهب إلى خالق الأسباب.



* ونلاحظ أن الحق قرن التسبيح بالحمد.

فالتسبيح: هو التنزيه عن كل النقائص فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال، فذاته لا تشبه أى ذات، وصفاته أزلية مطلقة، وأفعاله لا حاكم لها إلا مشيئته.

فكأن سلوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أن يفزع إلى ربه من قسوة الخلق ليجد الراحة النفسية عندما يقرّ بأن ذاته ليس كمثلها شيء وصفاته لها الكمال المطلق وأفعاله وقدرته ذاتية ومطلقة وأزلية.

ثم نصحب هذا التنزيه بالحمد.. وحين نسبح (بحمد الله) فهو سبحانه لا يخلف وعده بكل الخير أبداً.. ومع التسبيح والحمد يكون (السجود) امتثالاً لأمره تعالى.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وزد خضوعاً للمنعم بالسجود.. فالسجود بالوجه خضوعاً وشكراً لله على نعمه يعطى من العزة ما يكفى كل أوجه السجود.

وإن كانت العبودية للبشر مكروهة لأن فيها يكون خير العبد للسيد فإن عبودية الله تعطى خير السيد للعبد وفى ذلك قمة التكريم للإنسان.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

والعبادة تكون للمعبود فى طاعة المنهج (افعل ولا تفعل) وذلك ليس فقط فى الأركان الخمسة فتلك هى الأسس التى تقوم عليها العبادة، أما العبادة المطلوبة فهى تشمل كل حركة الحياة كل عمل يقصد به نفع الناس وإصلاح الأرض وتعميرها، حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم.. أما الأركان فهى لإظهار قوة المسلمين وإظهار كامل الولاء لله.. فالصلاة خمس مرات فى اليوم لإعلان الولاء للخالق المنعم وكذلك الصيام وباقى الأركان وهذا الولاء والعمل يظل حتى ﴿يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

واليقين المتيقن به من كل البشر هو (الموت) ولذلك يقول (عمر بن عبد العزيز) (ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له) فالكل متيقن من الموت ولكنه يزحزح هذه المسألة بعيداً عنه كأنه يشك فى حدوثه.

فقام رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قاله الرسل لأقوامهم من قبله.

﴿... يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف].

وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم... فكان يصلى فى فناء الكعبة جهاراً نهاراً أمام أعينهم... ونالت دعوته مزيداً من القبول، ودخل الناس فى دين الله واحداً بعد واحد، وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيته تباغض وتباعد مما أساء قريشًا.

وبعد الجهر بالدعوة بوقت قليل سيأتى موسم الحج، وستقدم وفود العرب على مكة... فرأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد ﷺ حتى لا تكون لدعوته أثر فى نفوسهم، فاجتمعوا إلى (الوليد بن المغيرة) يتناقشون حتى يتفقوا على هذه الكلمة فلا يكذب بعضهم بعضا فقال (الوليد بن المغيرة):

(لقد سمعت منه كلاماً لا هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه)... فقالوا إنه صبأ، ولتتبعه قريش فتصبأ قريش كلها.. (فقال أبو جهل): أنا أكفيكموه... فجلس معه ليقنعه أن يغير كلامه.

فقال الوليد: إنه ليس مجنوناً ولا كاهناً، فهو لم يتكهن قط، ولا شاعراً ولا كاذباً فهو لا يكذب بل هو الصادق الأمين.. فاتركونى أفكر فى وصف يليق به.

فظل الوليد يفكر ويفكر.. وفى ذلك أنزل الله آيات من سورة المدثر ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر].



يقول الحق لنبيه الكريم: ذرنى وحدى معه فأنا أغنيك فى الانتقام منه فأنا أهلكه دون أن أحتاج إلى مساعدة.

أو يكون المعنى ذرنى ومن خلقته وحيداً وكان الوليد يلقب فى قومه (بالوحيد) لتفرده بمزايا ليست فى غيره، فتهكم الله به وبلقبه.

وجعلت له مالاً واسعاً يمد بعضه بعضاً، وكان الوليد من أغنى أهل مكة، وكان له أولاد يشهدون مجالسه، لأنهم لا حاجة بهم إلى مفارقته فى سفر أو تجارة بسبب وفرة المال فى أيديهم.. وكان له عشرة من الأولاد منهم (خالد وعمارة وهشام) أسلموا أما الباقى فظل كافراً.

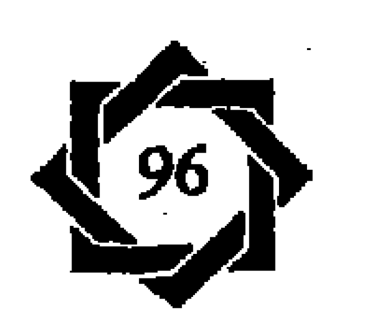
﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾: والتمهيد هو التسوية أى سوى له سائر الأمور، وجمع له كل وسائل الرياسة والراحة... فصار نافذ الكلمة فى قومه بدون عناء أو تعب، أى أن الله تعالى أعطاه جميع ما يحتاجه الإنسان من أموال وبنين والجاه التام الذى وصل إليه بدون تعب.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾: ومع كل هذه النعم فهو لا يشبع بل يطلب المزيد، (كلا) لن أعطيه شيئاً مما يطمع فيه، بل سأمحق كل هذه النعم، لأنه قابلها بالجحود (إنه كان لآياتنا عنيداً) لأنه كان إنسانًا شديد المعاندة لآياتنا الدالة على الوحدانية وعلى صدق النبى فيما يبلغه عنا.. ثم بين سبحانه ما أعده له من عذاب أليم فقال ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: والإرهاق هو التعب الشديد. والصعود هو العقبة الشديدة التى لا يصل إليها الصاعد إلا بمشقة كبيرة وتعب قد يؤدى إلى الهلاك.. وهى صفة مبالغة من الفعل صعد.

وهذه الآية مقابلة مع ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أى هذا الجاه الذى أتاه فى الدنيا بلا تعب سيلاقى فى الآخرة ما هو نقيض من التعب والإذلال. كأن يصعد على جبل من نار مدة سبعين خريفاً ثم يهوى بعد ذلك.

ثم يصور القرآن حال هذا الشقى وهو يفكر فيما سيقوله عن محمد ﷺ:-

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إنه يفكر ويدير فى ذهنه ما هيأه وأعده من ذم ووصف لمحمد ﷺ ثم يفكر ملياً ويهيئ نفسه طويلاً للنطق بما سيقوله فى حق الرسول:



﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ فلُعن على هذا التفكير البالغ النهاية فى السوء والقبح.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تكرار للمبالغة فى ذمه وفى الدعاء عليه باللعن.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ .

القرآن يرسم حركات جسده وخفقات قلبه، وتقاطيع وجهه، رسماً يثير السخرية فى النفوس من هذا الشقى.

إنه فكر ملياً وقدّر فى نفسه ما سيقوله، ثم نظر فى وجوه من حوله نظرات يكسوها الجد المصطنع، ثم قطب ما بين عينيه وتغير لونه حين ضاقت عليه الحيل فى أن يجد فى القرآن مطعناً، ثم بعد كل هذا التفكير والتقدير والعبوس والبسور، بعد ذلك أدبر عن الحق واستكبر عن قبوله، فقال على سبيل الغرور:

﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى أن هذا القرآن الذى يقرؤه محمد ﷺ ما هو إلا سحر مأثور. أى مروى ومعروف عن الأقدمين ومنقول من كلامهم وأقوالهم.

﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى هو من كلام البشر وليس من كلام الله.

ثم يأتى بعد ذلك الوعيد الشديد فقال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر]. وسقر اسم لطبقة من طبقات جهنم.

والخلاصة: أنه بعد أن فكر وقدر قرر أن يقول إن محمدًا يقول سحرًا مأثورًا لأنه يفرق بين الرجل وامرأته وبين الأخ وأخيه وبين المرء وعشيرته فاتفقوا على ذلك وأخذوا فى تنفيذه.. وعندما قدم الناس لموسم الحج أخذوا يحذرونهم منه ويذكرون لهم أمره.

أما رسول الله فخرج يتبع الناس ويذهب إليهم فى الأسواق (عكاظ ومجنة وذى المجاز) يدعوهم إلى الله، (وأبو لهب) وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ.

وانتهى موسم الحج وقد انتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.



الباب السادس
الأساليب المختلفة لمجابهة الدعوة

أولاً: ما فعلوه بالنبي ﷺ:

(الاستهزاء – السخرية – التكذيب)

رموا النبى ﷺ بتهم مختلفة وقصدوا بها تخذيل المسلمين فقالوا عنه إنه مجنون.

(1) رموه بالجنون:

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾[الحجر].

والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفار هم (أمية بن خلف – والنضر بن الحارث – الوليد بن المغيرة – وعتبه بن ربيعة).

ونلاحظ التناقض الواضح فى قولهم فهم يعترفون بأن القرآن (ذكر) بعد أن تفحصوه وعرفوا قدره ثم يصفون من نزل عليه هذا القرآن بالجنون، وهم الذين شهدوا له من قبل بالصدق والأمانة. أيضاً هم يخاطبونه بقولهم (يا أيها) وهو خطاب يتطابق مع خطاب الله له.. لقد أجرى الحق على ألسنتهم التوقير والاحترام للرسول دون أن يشعروا.

أيضاً جاء هذا الاتهام فى سورة القلم ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم].

وإن يكاد الذين كفروا ليهلكونك أو ليزلون قدمك عن موضعها أو ليصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزراً، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا القرآن ويقولون إنه لمجنون.



﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ليتفذونك بأبصارهم حسداً وبغضاً لك.. وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق – بأمر الله.

ويرد عليهم الحق فى سورة (القلم) ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ يقسم الحق إنك أيها الرسول الكريم لبرىء مما يتهمك به أعداؤك من الجنون وكيف تكون مجنونًا وقد أنعم الله عليك بالنبوة، وفى إضافته إلى الرب مزيد من التسلية والمحبة.

ثم بشره بأن له عند الله أجراً عظيماً؛ إنك لعلى خلق وسلوك قويم.

(2) التحقير والسخرية من الرسولﷺ ومن جلسائه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ الرد ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ ﴾ [الفرقان].

أخذ المشركون فى الاستهزاء بالرسولﷺ من بعد بعثته إليهم وهم أنفسهم الذين كانوا يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين، وما حملهم على هذا الكذب إلا الحسد والعناد.

وفى نفس المعنى فى (سورة الأنبياء). ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ ﴾ [الأنبياء].

كأنه ﷺ دون هذه المنزلة بما يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب، مع أنهم كانوا فى واقع الأمر وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة بقولهم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ... ﴾ [الفرقان].

وهذا يعنى أن الرسولﷺ كاد أن يصرفهم عن آلهتهم، وهذا دليل وشهادة أنه ﷺ قوى وعلى مستوى الرسالة، وأنه لم يدخر وسعاً فى دعوتهم، حتى كاد أن يصرفهم عن آلهتهم.



إذاً فهذا القول دليل على أنه كفء للمهمة التى بعث بها حتى إنهم اضطروا إلى أن يصبروا على الضلالة حتى لا يصرفهم بالكلية عن عبادة ما يعبدون.. وهذا اعتراف منهم على أنه بلغ من الاجتهاد والإقناع ما شارفوا معه أن يتركوا دينهم لولا فرط جهالتهم ولجاجهم وغاية عنادهم.

ثم يرد عليهم الحق بتهديدهم على سوء أدبهم وجحودهم للحق بعد أن تبين لهم أنهم حين يرون العذاب ماثلاً أمامهم سوف يعلمون من هو الذى على حق.

وروى أن (الوليد بن المغيرة) - وكان يسمى (ريحانة قريش) كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل القرآن علىّ أو على (عروة بن مسعود) الثقفى سيد الطائف، وتردد قريش هذه المقولة مستنكرين: ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين؟ ما كان الله ليترك كبار أهل مكة والطائف ويتخذ هذا المسكين رسولاً.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف].

الرد: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف].

وهذا إقرار منهم بأن القرآن حق، ولا اعتراض عليه، إنما اعتراضهم على شخص الرسول وأنه من أواسط الناس، وليس عظيماً من عظمائهم ولا سيداً من ساداتهم فرد عليهم الحق:

أيريدون أن يقسموا رحمة الله حسب أهوائهم؟ ورحمة الله يختص بها الله وحده ولا دخل لأحد فى توزيعها، ومن حكمة هذه القسمة، أن جعل بعض الناس أغنياء وبعضهم فقراء، بعضهم سادة وبعضهم خدمًا، ولولا هذه القسمة ما استقامت حركة المجتمع وما وجدنا من يقوم بالأعمال الشاقة أو الأعمال الحقيرة.

والرحمة المرادة هنا هى (النبوة) فهم يطمعون فى أن يجعلوها اختياراً من ساداتهم وكبرائهم فيصحح لهم الحق ويقول:



كيف تطمعون فى ذلك وأنتم لا تقدرون على قسمة أبسط الأشياء؟

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

والكلمة تعنى أن الكل مرفوع ومرفوع عليه؛ مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر.

وهكذا يتكامل الخلق وتتم المصالح، فالشخص مرفوع فيما يحسن من الأعمال، ومرفوع عليه فيما لا يجيده. وهذا معنى قوله تعالى:

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الزخرف].

والمراد بالرحمة هنا الرسالة والمنهج، فهذه الرحمة خير من المتاع الزائل الذى يتنافسون عليه فى الدنيا، لأنه يورث فوزاً فى الدنيا وفوزاً دائماً فى الآخرة، وهو خير وأبقى.

* وكان إذا جلس ﷺ وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم فوصفهم القرآن فى (المطففين).

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

كان المشركون أمثال (أبو جهل، والعاص بن وائل) يستهزئون من فقراء المسلمين (كصهيب، وعمار بن ياسر، وبلال...) فأنزل الحق هذه الآيات تصفهم بأن هؤلاء مجرمون (والمقصود بإجرامهم هنا كفرهم بالله).

(كَانُوا) فى الدنيا - أى فى حياتهم يتهكمون بالمؤمنين ويسخرون منهم ويعتبرونهم الأراذل الذين يجب الابتعاد عنهم، وكانوا يتغامزون فيما بينهم على سبيل الاستهزاء بفقراء المؤمنين تندراً على ما هم فيه من شظف العيش، وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التى كانوا منها رجعوا متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين.. أى أنهم لا يكتفون بالغمز واللمز عند رؤيتهم، بل أيضاً يجعلونهم عند عودتهم إلى أهلهم مادة للتفكه والضحك مع



أهليهم – بل تجاوزوا ذلك.. فهم عندما يرون المؤمنين يقولون عنهم إنهم ضالون لأنهم تركوا دين آبائهم ودخلوا الدين الجديد.

أى أنهم يرون أن أهل الحق فى ضلال. والحال أن هؤلاء المشركين لم يرسلوا ولم يكونوا وكلاء عن الله حتى يحكموا على هذا الفريق بالضلال وعلى غيرهم بالرشاد... فهم أساساً ليسوا أهلاً بأن يكونوا حكماً، ولم يكلفهم الله بذلك إنما كلفهم باتباع الرسول الذى جاء لهدايتهم.

الرد: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[المطففين].

(3) الزعم بأن الرسول ﷺ يتلقى القرآن عن الشياطين:

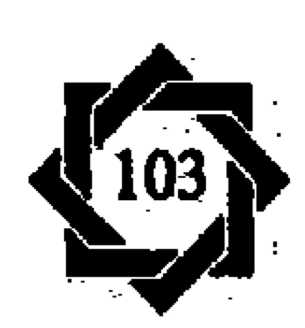
قالوا: إن القرآن يتنزل به الشياطين، فيرد عليهم الحق بقوله تعالى:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [الشعراء].

يقول الحق: تعالوا أخبركم على من تتنزل الشياطين، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة... إنهم لا يتنزلون على الرسرل ﷺ؛ لأن طبعه يتباين مع طبائعهم، ومنهجه يتعارض مع مسالكهم.. فهو يدعو إلى الحق وهم يدعون إلى الباطل.. فالشياطين تتنزل على الأفاكين الآثمين، الذين ينصتون إنصاتاً شديداً إلى الشياطين... ليسمعوا منهم... ثم يخلطون القول بالكذب والافتراء... ثم يلقونه إلى الغير ولذلك فأكثر أقوالهم كاذبة.. أما القرآن فما نزل إلا من عند الله بواسطة الروح الأمين على الصادق الأمين.

وقد كان هذا قبل أن تُمنع الشياطين من استراق السمع، وقبل أن تمتلئ السماء بالحراس الأشداء من الملائكة ليمنعوا الشياطين من استراق السمع.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن].



الجن كانوا قديماً يتسمعون بعض الأشياء من السماء، ثم منع الله ذلك بإرسال الشهب التى تترصد من يستمع فتحرقه.. والآية صريحة بأن زمن الشياطين قد انقضى ولم يعد هذا القول مقبولاً ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر].

والبروج: هى المبانى العالية حيث تنتقل الشمس والقمر فى البروج الإثنى عشر المعروفة بالأسماء السريانية (الجوزاء - والعذراء- والحمل...) وجعل الحق لهذه النجوم قيمة جمالية (زينة) غذاء للعين.

أى أن الله تعالى لم يخلق النعم لاستخدامها فى الأغراض المادية فقط ولكن أيضاً لتروى أحاسيس الجمال فى الإنسان، وكان الشياطين يسترقون السمع لبعض من مناهج الله المنزلة على الرسل السابقين، ثم يضيفون عليها... وما أن جاء رسول الله ﷺ إلا وقد منع كل هذا بأمر الله.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنعام].
الكهان كانوا يخطفون كلمة من الجن ويخلطون بها مائة كذبة.

(استرق) هى السرقة المقرونة بالخوف فهى ليست مجرد سرقة بل فيها شىء من الخوف ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء].

وكان المشركون يقولون لكل شاعر ماهر بشعره إن له شيطانًا يملى هذا الشعر عليه، وعندهم وادى يسمى وادى (عبقر) وهو (وادى الجن) فيقولون: فلان عبقرى أى موصول بالجن فى هذا الوادى.. ولكن كيف هذا مع محمد (ص) والكتاب الذى نزل عليه عدو للشياطين يلعنهم فى كل مناسبة ويُحذّر أتباعه منهم.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة] ويقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر].



فكيف إذًا يمده الشيطان ويمليه عليه وهو عدوه؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباؤه؟

ولذلك يقول الحق ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[الشعراء]. لأن الله تعالى جعل القرآن معجزة لا يتسلط عليها إنس ولا جن فيفسدها، فقد تولى الحق بنفسه فقط القرآن، بل حفظه بيد غير المؤمنين به، وجعلهم يهتمون به ويوثقونه ويسجلونه بكافة الوسائل حتى يكون حجة عليهم لذلك يقول ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لأن المسألة فوق قدراتهم ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾. وذلك عندما منعهم الحق من استراق السمع من السماء.

(4) زعمهم أن محمد شاعر أو كاهن:

اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر فرد عليهم القرآن فى عدة مواضع.

1 - ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾[الشعراء].

والعجيب من كفار مكة: وهم العرب، أهل الشعر والخبرة فى الكلام الموزون المُقفّى أن يخلطوا بين الشعر وأسلوب القرآن... لقد كانوا يجعلون للشعر أسواقا فى (عكاظ، وذى المجاز، وذى المجنة) ويعلقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة، إذاً فهم يعرفون الفرق بين الشعر الموزون والشعر الحر غير المقفى والنثر، ومعنى (الغاوون) هم الضالون الذين يتبعون الشعراء الذين لا يحكمهم مبدأ ولا خلق بل يتبعون هواهم فإن أحبوا مدحوا وإن كرهوا ذمّوا فهم:

﴿ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ وهذا هو حال الشعراء لأنهم أهل كلام وخيال يمدحون من يعطيهم فإن لم يُعط يُكيل الذم، ويتفنن فى النيل منه.. فالشاعر ليس له واد معين يسير فيه أو مبدأ يلتزم به كالهائم على وجهه فى كل واد.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

فقد يكون الشاعر بخيلاً ولكنه يمدح الكرم، والكريم، ولا يأخذ العبرة مما يقول بل يظل على إمساكه وبخله، وقد يكون ا لشاعر جبانًا ولكنه يمدح الشجاعة.



ولما نزلت هذه الآيات أسرع شعراء الإسلام (عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك) فقالوا: أنحن من هؤلاء يا رسول الله؛ فنزلت الآية التالية: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[الشعراء].

فاستثنى الحق من الشعراء من توفرت فيه هذه الخصال الأربع:

1) الذين آمنوا 2) وعملوا الصالحات 3) وذكروا الله كثيراً (في أشعارهم لينبهوا الناس إلى مقتضيات الدين ومواعظ الإيمان فيلتفتون إليها) ثم 4) ينتصرون لرسول الله من الذين هجوه.. فكان هؤلاء الثلاثة يردون على الكفار ويبطلون حججهم ويدافعون عن الرسولﷺ.

﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ ومن رحمته تعالى وحكمته أن أباح للمظلوم أن ينتصر لنفسه وأن يُنفّس عمّا يعانيه من وطأة الظلم حتى لا تكبت بداخله المشاعر.

2 - ويرد عليهم الحق مدافعاً عن رسوله الكريم بقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة].

يقسم الله تعالى بما يبصرون من مخلوقات (كالسماء والأرض والجبال...) وبما لا يبصرون (كالملائكة والجن.. والجنة والنار..) وجواب القسم.

(إنه لقول رسول كريم)، المقسوم عليه أن هذا القرآن هو قول رسول الله، تلقاه عن الله، ويبلغه عنه بأمره وإذنه وليس شعراً ولا أساطير الأولين.

ثم أضاف إلى هذه التأكيدات ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾، ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ إنما هو تنزيل من رب العالمين على قلب نبيه محمد ﷺ لكي يبلغه لكم.. ولكن هؤلاء الكفار لا إيمان عندهم أو قليلاً ما يؤمنون أو يتذكرون أويتعظون.



3 - ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور].

الرد: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور].

هذا أمر لرسول الله بأن يذكر قومه.والتذكير لا يكون إلا للنسيان، بشرط أن يقابل قلبا صافيا لتنطفىء فيه حمية الجاهلية... ثم نفى الحق عن رسوله تهمة الكهانة أو الجنون التى اتهموه بها وأكد هذا النفى باستخدام أسلوب الخطاب (فما أنت) واستخدام الباء فى (بكاهن) للمبالغة فى القلة أى ما فيك أى شىء من الكهانة.. والكاهن هو الذى يدعى علم الغيب.

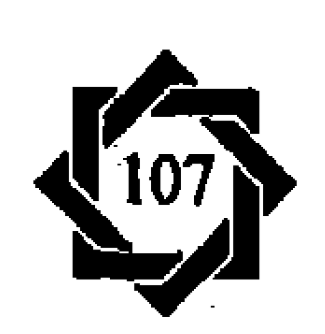
كانت الشياطين توحى إليهم بأشياء من استراق السمع قبل أن تغلق السماء فى وجوههم فكانوا يغرون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل، يزيدونه من عندهم، فيضلونهم.. وكان الناس يأخذون بمشورتهم فى كل أمور الدين والدنيا. وكان الرسولﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة.

كذلك نفى الحق عنه صفة الجنون فقد عرف برجاحة العقل وحسن التصرف والصدق والأمانة وقوله سبحانه:

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أى أن نعم الله عليك كثيرة ومنها أنك لست كما يقولون لا كاهن ولا مجنون.

ثم ينفى عنه تهمة أخرى قالوها بعد أن أعيتهم الحيل ولم يجدوا صدى لقولهم كاهن أو مجنون فقالوا: شاعر ولم يفلحوا فى هذه أيضاً لأن الرسول ﷺ جاء فى أمة أفصح ما تكون.

عندهم ملكة البلاغة ودقة الأداء اللغوى والبيانى، فهم أدرى الناس بالشعر، ويعرفون أن ما جاء به محمد وما يتلوه عليهم ليس شعراً. فقد عاش بينهم أربعين سنة لم يقل الشعر أبداً.



﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ ننتظر ما يجرى عليه من أحداث الحياة ومباغتة الموت الذى يريحنا منه.

فردّ عليهم الحق ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور].

فالله يقول لهم تربصوا كما تريدون فلن تنالوا منه لأنه فى حفظ الله ومعيته، واعلموا أن الله أيضاً يتربص بكم وقد شرح هذه المسألة فى قوله تعالى:

﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

أى ماذا تنتظرون فينا إما النصر عليكم وإما نُقتل فننال الشهادة.... وكل منهما حسنى - ونحن ننتظر فيكم إما أن يعذبكم الله بكفركم فى الآخرة أو يعذبكم بأيدينا فى الدنيا.

فتربصوا بنا فلن تصلوا إلى شىء لأننا فى حفظ الله ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ...﴿٣٢﴾﴾ أى عقولهم [الطور].

(والأحلام) هنا بمعنى: العقول. والعقول حين تأمرهم بهذا العناد والمصادمة فهى عقول فاسدة. لأن العقول لو تركت على الفطرة أو تحررت من الأهواء لانتهت إلى الإيمان بالله ورسوله.

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ ويكرر الحق كله (أم) فى عدة مواضع ليعرض كل المواقف والاحتمالات التى مروا بها.

ويعنى ﴿طَاغُونَ﴾ أى متجاوزين الحد فى الكفر والعناد.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾: أى اختلقه وأتى به من عند نفسه.

فيرد عليهم الحق سبحانه: ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ فالمسألة ليست مسألة قرآن من عند محمد. إنما المسألة أنهم لا يريدون أن يدخلوا ساحة الإيمان ظلماً واستكباراً عن الحق دون نظر وتأمل.



فكل هذه التهم التى يلصقونها برسول الله أو بكتابه يعرفون أنها باطلة وهم يعرفون أنه صادق، وأن القرآن حق، وأنه من عند الله لكنهم لا يريدون أن يؤمنوا.

لذلك يعلمهم الحق سبحانه كيفية التفكير السليم الموصل إلى الحق فيقول سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[سبأ].

أى اتركوا التفكير الجماعى لأنه لا يوصل إلى الحق.. ولكن فكروا بطريقة صحيحة حتى تصلوا إلى الحقيقة، والقرآن لا يدعوهم إلى التفكير إلا إذا كان هذا التفكير سيصل بهم إلى الحقيقة.

لذلك نقرأ كثيراً ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[يس]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ ﴾.

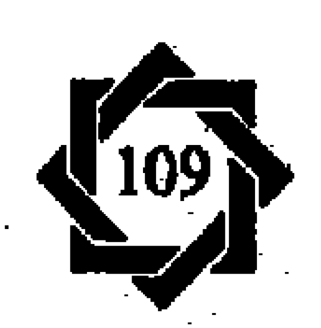
(والواعظ) لا ينشىء حكماً جديداً إنما يبين لهم أمورًا عرفوها وآمنو بها فى الدين من قبل، ثم أنستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور فهو يُذكّر بها.

والعظة لا تكون إلا من مُحبّ حريص على مصلحتهم ومعنى ﴿ بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أى موعظة واحدة فيها كل الحِكَم.. ما هى؟

﴿ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أى تتجردوا من كل الأهواء والشهوات والتعصب ويكون قيامكم لله.. فهم يؤمنون به بدليل قولهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الزخرف].

فهذه مسألة لا ينكرها مُنكر مهما بلغ من الكفر والإلحاد ولم يدعها أحد لنفسه.

الله سبحانه يجادلهم بالمنطق فماداموا يقرون لله بالخلق فعليهم أن يقوموا لهذا الإله وفى نيتهم فى قيامهم التفكير، وهذا التفكير ينبغى أن يكون: (مثنى وفرادى) أى اثنين اثنين أو واحداً واحداً بحيث يختلى كل مع نفسه ليفكر فى أمر محمد بواقعية وتجرد.



(1) كيف كانت سيرته وأخلاقه؟

(2) وهل جربتم عليه كذباً أو سحراً أو كهانة؟

(3) هل رأيتم أى علامة من علامات الجنون؟

(4) هل سبق أن ادعى ما ليس له؟

وهذا التفكير يحتاج إلى موضوعين لذلك اختار أن ينفردوا به حتى لا يكون معهم أحد يهيجهم على غير الحق، لأن المنفرد إن تفكر وصل إلى الحق، لأنه لن يغش نفسه ولن يخدعها... أما إن كانوا جماعة فلابد أن يحاول كل منهم أن يثبت حجته حتى لو اضطر للكذب أو الخداع أو يحلف أنه على حق وغيره على باطل.

فكأن الحق بهذه الطريقة فى التفكير يحمينا من غوغائية الجماهيرية والتى نشاهدها فى المظاهرات حيث يهتف كل بما يريد فتختلط الأمور.

كذلك إن كانوا مثنى أى رأى ورأى آخر، أى طرفان للمسألة ولا يوجد معهما طرف ثالث يسبب لأحدهما إحراجاً يتسبب فى تغير الرأى.

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ فلو خلا الواحد منهم إلى نفسه وتفكر فى شخص رسول الله وأدار فى عقله كل هذه الاتهامات لوجده بريئًا منها. فهم لم يروا عليه أى علامة للجنون ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه بل هم يقولون عنه: (الصادق الأمين).

ولم يذكر لنا الحق هنا نتيجة التفكر والبحث مثنى وفرادى لأنه معلوم وواضح الآن أنه قال عنه: ﴿ ...إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ].

ثم يردّ عليهم الحق بقوله تعالى: فى سورة الطور ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور].

أى إن كان القرآن مختلقاً – كما يدعون – فليأتوا بقرآن مثله، وهم أقدر الناس على الكلام والبيان والفصاحة ولهم أسواق للخطابة والشعر.



ثم تمادوا ولم يكتفوا بما قالوا بل قالوا أيضاً فى سورة الأنبياء:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾.

(اضغاث) جمع ضغث - وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال كما جاء فى قصة أيوب ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص].

ثم تمادوا فقالوا ﴿ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أى تعمد كذبه واختلافه.

﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ أقوال واتهامات متضاربة، وهذا دليل تخبطهم.

(5) وقالوا إنه مختلق القرآن وأنه يتحدث عن أساطير الأولين:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [الفرقان].

وقال الكفار عن القرآن إنه كذب متعمد، افتراه أى ادعاه محمد ﷺ.. وهذا عجيب من أمة البلاغة والفصاحة.... فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثله؟

﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ وقائل هذه المقولة هو (النضر بن الحارث) ثم رددها بعده آخرون. والقرآن يرد على هذه الاتهامات فيقول:

﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾.

والظلم يأتى دائماً بعد الزور.. لأن القاضى يستمع أولاً إلى الشهادة فإن كانت شهادة زور كان الحكم بعدها ظالماً.. ولكن هنا يقول الحق: إن الحكم جاء منهم مسبقاً ثم التمسوا له دليلاً.

وفى سورة النحل يقول الحق: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل].



* وهذا افتراء آخر لا يأنف القرآن من إذاعته.

قالوا: إن الرسول ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن ثم تضاربت أقوالهم فى تحديد هذا الشخص.

فقالوا: إنه غلام (عتبة بن ربيعة النصرانى - عدّاس) وقالوا بل هو (سلمان الفارسى)، وقال آخرون هو (بلعام الرومى) وكان نصرانياً.

والحق تبارك وتعالى يردّ عليهم ليظهروا إفلاسهم الفكرى فيقول: ﴿لِسَانُ﴾ أى اللغة التى يتحدث بها هذا الذى ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أى يميلون إليه وينسبون أنه يعلم رسول الله ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ أى لغته خفيّة فهو لا يفصح ولا يُبين الكلام، ونلاحظ أن القرآن لم يقل (عجمى) لأن العجم جنس يقابل العرب.

وقد يكون من العجم من يجيد العربية الفصيحة مثل (سيبويه) الفارسى صاحب أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عجمى... وقد يكون الشخص عربيًا ولكنه أعجمى لا يبين كلامه. إذاً كيف يتأتى لمن هو أعجمى لا يفصح ولا يكاد ينطق اللغة العربية أن يعلم رسول الله وقد جاء بمعجزة فى البلاغة والفصاحة والبيان؟

كيف يتعلم منهم ولم يثبت أنه تردد إليهم أو إلى غيرهم ليتعلم شيئًا؟

كما أن ما يحتويه القرآن من أحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج فى تعلمه إلى وقت طويل وما جربتم على محمد شيئاً من هذا كله.

وهل يعقل أن ما فى القرآن يمكن أن يطويه صدر واحد من هؤلاء؟

لو حدث ذلك لكان له من المكانة والمنزلة فى قومه ما كان للعظماء، ولذاع صيته واشتهر أمره.. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. ثم يقول الحق:

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أى أن لغة القرآن لغة واضحة لا لبس ولا غموض فيها ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾[النحل] كأن الحق يقول لا تتهموه بالكذب لأن الكذب الحقيقى



هو تكذيبكم بآيات الله وعدم الإيمان بها.. ونلاحظ أن الحق لم يذيل هذه الآية بـ: (وأولئك هم الكافرون) بل قال: ﴿ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ ليدل على شناعة الكذب، وأنها صفة لا تليق بأى مؤمن.

فقد أوضح الحق أن المؤمن قد يسرق ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ...﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] ولذلك جعل على السرقة عقوبة، وكذلك قد يزنى المؤمن ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ...﴿٢﴾﴾ [النور] وأيضاً جعل للزانى عقوبة معلومة، فى حين أنه تعالى ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة فى الدنيا.. إذاً فالكذب صفة لا تليق بالمؤمن ولا تتصور فى حقه ولذلك كانوا يلقبون النبى ﷺ من قبل البعثة بالصادق الأمين.

6 - وقالوا إنه أساطير الأولين

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان] ثم قالوا عن القرآن إنه حكايات وأساطير السابقين أمر بكتابتها، وهذا يدل على ترددهم واضطراب أقوالهم: فالنبى ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب وقولهم ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى تملى عليه باستمرار ليكررها ويحفظها.

أى أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن بل أضافوا إليه قولاً أشد قبحاً، وهو أن هذا القرآن أكاذيب وخرافات الأولين أمر الرسول ﷺ غيره بكتابتها له وجمعها فى كتب السابقين.. فهى تلقى عليه - بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه صباحاً ومساء - أى تملى عليه خفية فى الأوقات التى يكون فيها الناس نائمين أو غافلين عن رؤيتهم.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال: (الرد): ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

أى ردّ عليهم يا محمد بأن الله الذى لا يغرب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فى هذا القرآن أسرارًا لا تفهمونها حيث أعجزكم جميعاً بفصاحته وبلاغته وأخبركم بغيبيات مستقبلية وأمور لا يهتدى إليها أحد إلا بإذن الله فهو مُنزِّله.

وهكذا كان الحق يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبى أو القرآن ولكنهم كانوا مشاغبين متكبرين.

فأخذوا يثيرون الشبهات حول إمكانية أن يكون الرسول بشراً فهم يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أجلّ وأعظم من أن يعطى لبشر، مع أنهم كانوا يعرفون ويعترفون بأن موسى وإبراهيم بشر.. فرد عليهم القرآن بأن الرسل لا يكونون إلا بشراً، ولا منافاة بين البشرية والرسالة.

7 - شبهة أن الرسول لا يكون بشراً بل يكون ملكاً.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾[الأنعام].

ويأتى الرد على هذه الشبهة من الحق.. وكفار مكة لم يكونوا مؤمنين بموسى - ولا بأى رسول، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب بدليل قولهم.. ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ... (١٥٧) ﴾[الأنعام].

فقل لهم يا محمد من الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى.. ثم بين سبحانه ما فعله الجاحدون بهذا الكتاب الذى أنزله الله نوراً وهداية للبشر لقد قطعوه إلى أوراق مفرقة ليتمكنوا من إخفاء ما يريدون حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾[الأنعام].

* أراد الكافرون أن يكون مع محمد ملك، ورد الله تعالى عليهم بردين حكيمين:

اما الرد الأول: فقال فيه إنه تعالى لو أنزل معه ملكاً كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم ثم لا ينظرون أى لا يمهلون حتى يؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلاً.



وأما الرد الثانى: وهو أن يكون الرسول من الملائكة لاقتضت الحكمة أن يكون فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه وفى هذه الحالة سيحدث لديهم لبس ويتخيلوا أن الملك المرسل هو بشر وليس ملكًا فى صورة بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صفته البشرية وصورته التى تمثل بها وحينئذ يحدث نفس اللبس والاشتباه فى أنه بشر فيستذكرونه كما حدث مع النبى ﷺ.

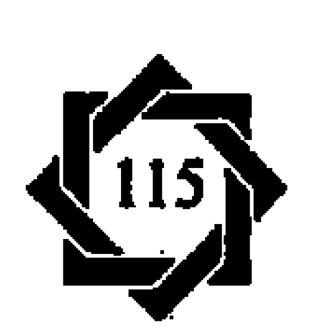
وبهذين الردين الحكيمين يكون القرآن قد دحض هذه الشبهة وبيّن أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم حتى لا ينفروا أو يفزعوا منه، ولما آنسوا به.

ثم يأتى الحق سبحانه بما قاله بقية الرسل رداً على قول أقوامهم عندما استنكروا أن يكون الرسول بشراً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم].

أراد الله تعالى أن يسلى نبيه الكريم بأن تلك الأقوال قيلت لرسل من قبله وردوا الرسل على المرسل إليهم بنفس الكلام، وهو أنهم بشر مثلهم والسلطان الذى يملكونه هو المعجزة التى اختص بها الحق سبحانه كل رسول وهو تعالى يتفضل على عباده فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة، ويقوم الرسول بتبليغ ما يأمر به الله.. وكل رسول إنما يفعل ذلك ويقبل عليه بكل ثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره، فهم يفوضون أمرهم إلى الله وحده ويصبرون على معاندة الكافرين واثقين فى نصر الله لهم.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].



لقد اتهموه ﷺ بالجنون وأنصفه الله تعالى بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم].

ثم طلبوا نزول ملك معه ليصدقوا أنه رسول من عندالله. فهل كان تصديقهم المعلق على هذا الشرط تصديقا للرسول؟أم تصديقا للملك؟ولقد أبطل الحق حجتهم فى طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ليؤيدوه فى صدق بلاغه عن الله.

فرد عليهم بأن الملائكة لا تنزل إلا بالحق، والحق هو القرآن أو الرسالة، أو بالعذاب لمن لم يؤمنوا.

هذا ولو نزل الملك كما طلبوا لمساعدة الرسول فى البلاغ فالملك إما أن يكون على هيئة البشر فلن يستطيعوا تمييزه عن البشر؛وإما أن يكون على هيئة الملك فلن يستطيعوا رؤيته، وإلا هلكوا.والحق سبحانه لم يشأ أن يهلكهم ورسول الله فيهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾[الأنفال] وقد آمن معظمهم ودخلوا فى دين الله بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم.

فالحق سبحانه إذا أعطى قوما آية طلبوها فإما أن يؤمنوا، وإما أن يهلكهم؛ ولذلك يقول الحق فى سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ... ۝٥٩ ﴾لذلك لم يجبهم الحق سبحانه إلى الآيات والمعجزات التى طلبوها؛ لأن السابقين لهم كذبوا بها قبل ذلك، ولو كذبوها فلا بد أن يهلكهم الله، ولذلك يُزيّل الحق الآية ﴿ ... وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾ [الحجر] ثم يقول الحق: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر].

والقرآن قد جاء بعد كتب متعددة، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله فيما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم، وقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لتلك الكتب السابقة أن يحافظوا عليها.. وهذا تكليف (أى أمر تشريعى وليس تسخيرى).

والأمر التكليفى عرضة أن يُطاع أو يُعصى. فلم يلتزم أحد منهم بحفظ الكتب المُنزَّلة إليهم. يقول الحق: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟



﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المائدة].

وبعد أن كلفهم الله بالمحافظة على تلك الكتب عصوا الأمر وحرّفوا وبدّلوا فيها الكثير. وقال الحق عن هذا فى سورة البقرة: ﴿...وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[البقرة] وهكذا لم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها على نبيه ورسله السابقين. لذلك لم يشأ الحق أن يترك هذه المهمة للبشر بل تكفل بها سبحانه لأنها المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ الرسول ﷺ.

ولذلك حفظ القرآن بكل دقة ولم يستطع أحد أن يزيد أو ينقص عليه حرفا واحدا وسخر الله جنوده لحفظه وتسجيله بكل وسائل التسجيل.

ثم ينتقلون إلى عناد ولجاج آخر فيقولون إن رسل ملوك الدنيا يمشون فى مواكب من الخدم والأبهة ويعيشون فى ترف، فما بال محمد يكدح فى الأسواق من أجل لقمة العيش.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان].

عجيب أمر هؤلاء المعاندين!! فهم يعترضون بأقوال بلا حجة.. فيرد الحق على هذه الشبهة أن محمداً رسول مهمته إبلاغ رسالة الله إلى الناس كافة غنى وفقير، شريف ووضيع، حرّ وعبد.. فلو لبث فى الأبهة والجلال والخدم والمواكب مثل رسل الملوك لم يكن يصل إليه الفقراء والعبيد والضعفاء وهم جمهور البشر وإذاً لضاعت مصلحة الرسالة ولم تعد لها فائدة.



وذكر في سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا للنبى ﷺ:

إن كنت تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا.

وإن كنت تريد مُلكاً جعلناك ملكاً علينا.

وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك.

وإن كان الأمر رئياً تراها ولا تستطيع ردها طلبنا لك الطب حتى نبرؤك منها.

فقال ﷺ: ما أريد شيئاً مما تقولون ولكن الله تعالى بعثنى رسولاً، وأنزل علىَّ كتاباً، وأمرنى أن أبلغكم رسالة ربى فإن تقبلوه منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىّ أن أصبر لأمر الله حتى يحكم بيننا.

فقالوا: فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك فاسأل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك فيما تقول واسأله أن يجعل لك جنات وقصوراً.

فقال لهم: ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا... فأنزل الله تعالى الآيات ردا على ذلك.

المشركون لم يكتفوا بقولهم إن محمداً قد افترى القرآن، وأن القرآن أساطير الأولين، بل أضافوا إلى ذلك – على سبيل السخرية والتهكم – كيف يكون محمد رسولاً وشأنه هذا الذى نشاهده بأعيننا. إنه يأكل الطعام ويتردد فى الأسواق طلباً للرزق.

فلولا أنزل إليه ملك يساعده فيكون هذا الملك معه نذيراً.

أو يلقى إليه كنز يغنيه عن التماس الرزق كسائر الناس.

أو تكون له حديقة مليئة بالأشجار المثمرة لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها.

ثم قالوا فضلاً عن كل ذلك إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً أى مغلوباً على عقله.



فنحن نرى أن أقوال هؤلاء الظالمين قد اشتملت على (ست قبائح) - وقصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه.

فرد الله على مقترحاتهم الفاسدة بالتهوين من شأنهم وبالتعجب من تفاهة تفكيرهم فقال:

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان].

أى انظر إليهم وتعجب من تعنتهم وضحالة عقولهم حيث وصفوك تارة بالسحر، وتارة بالشعر، وتارة بالكهانة وقد ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به وبقوا متحيزين فى باطلهم لا يعرفون كيف يصرفون الناس عنك.

8 - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن

وكان المشركون يصدون الناس ويحاولون منعهم من سماع القرآن بكل الطرق الممكنة فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويلعبون ويغنون إذا رأوا أن النبى ﷺ يتهيأ للدعوة، أو لتلاوة القرآن، أو الصلاة. قال تعالى فى [سورة فصلت]: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قال هذا الكلام زعماء الكفار لأتباعهم بأن لا يستمعوا لهذا القرآن ولا ينصتوا إليه بل يبتعدوا عن قارئيه وأن يلغوا فيه للتشويش على من يقرأه والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق ورفع الصوت بالخرافات.

ولا شك أن هذا القول دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب. لقد جاء القرآن على أمة نابغة فى اللغة ليكون ذلك مجالاً للتحدى. فإن عجزت هذه الأمة أمام تحدى القرآن فعجز غيرها من باب أولى. وبسبب هذا التمكن من اللغة أرادوا صرف العرب عن سماعه حتى لا يتأثروا فلا يميلوا أو ينجذبوا له.. هم يعلمون علم اليقين أنهم لو تركوهم يستمعون إلى القرآن لأخذهم بجمال أسلوبه وجلال معانيه وقوة أدائه ولذلك



نهوا قومهم عن سماعه بل ويشوشوا عليه حين يقرأ حتى يكون لهم الغلبة. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ...﴿٢٦﴾﴾[الأنعام].

هم يبعدون الناس عن الاستماع إليه مما يدل على أنهم معترفون فى قرارة أنفسهم أن القرآن حق، فلو كان أساطير الأولين كما يقولون لتركوا الناس يسمعونهم ليتأكدوا من أنها خرافات لكنهم ينهون عن سماعه حتى لا يتأثر الناس به؛ وهم فى نهاية الأمر اعترفوا بصدق القرآن وبلاغته وإعجازه لكن اعترضوا على أن ينزل على محمد وهو فقير ومن عامة القوم. هم لم ينتبهوا إلى أن هذه الشهادة أولى عند رسول الله من شهادتهم له.

وقد رد سبحانه على فعلهم هذا بما يناسب من تهديد فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[فصلت].

يقسم الحق بأنه سيجعل الذين كفروا واستهزأوا بالقرآن يذوقوا العذاب الذى يهينهم ويجزيهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم.

ويقول الحق بعد ذلك كتسليه للنبى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجر].

هنا يسلى الحق سبحانه رسوله الكريم ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بدعاً بل حدث مثله مع غيره من الرسل.. فإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء فلا بد أن تكون مشقتك على قدر مهمتك، وتعبك على قدر جسامة الرسالة الخاتمة.

وأنت ستأتى بأمر قاس عليهم، ستهدم لهم مذاهبهم وسيادتهم وسطوتهم وهم لن يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به، وذلك يعنى أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك فيحاولون أن يحاربوك بالاستهزاء والعداء، ولهذا يوضح الحق هذا الأمر لرسوله حتى تزداد ثقته بنفسه وفى الحق الذى بعثه به ربه ويشتد فى المحافظة على تنفيذ منهجه.

والاستهزاء لون من الحرب السلبية فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به الرسول



بالجد أو أن يردوا على منهجه الراقى لذلك لجئوا إلى السخرية منه ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وكما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب السابقين الأولين كذلك ندخله فى قلوب هؤلاء المجرمين (مشركى مكة). فهم أمة بلاغة ولغة وبيان وقد أثر فيهم القرآن ولكنه العناد، والقلوب الممتلئة بالكفر، تماماً كما حدث مع الأقوام السابقة؛ فتلك سُنَّة من سبقوهم إلى الكفر.

يقول الحق ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ إننا لو فتحنا لهم باباً من أبواب السماء ومكناهم من الصعود إليه فظلوا يصعدون حتى وصلوا إلى ملكوت السماوات والأرض لقالوا بعد هذا التمكين والاطلاع - لفرط عنادهم وفجورهم - إنما منعت أبصارنا من الإدراك الحقيقى - وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخيل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد ﷺ لنا فقد سحر عقولنا فصار إدراكنا غير صحيح. ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد فلن تنفع فيه موعظة ولا يهتدى بآية.

ملاحظات على الآية:

استخدام كلمة ﴿فَظَلُّواْ﴾ تعنى أن هذا الفعل يحدث بالنهار (فظل) لا تستخدم إلا لكل عمل بالنهار - حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً - أى أن هذا الباب سيفتح لهم فى وضح النهار ومع ذلك سيكذبونه.

استخدام كلمة ﴿بَابًا﴾ والباب لا يفتح إلا فى بناء وهذا يؤكد أن السماء بناء.

﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ والقرآن يصف دائماً الحركة فى السماء بالعروج؛ لأنه لا يمكن لأى جسم أن يتحرك فى السماء إلا فى منحنى مستحيل التحرك فى خط مستقيم.

ومن أوائل رواد الفضاء الذى صعد إلى القمر قال كلاماً كأنه نص الآية القرآنية:

1-Have almost lost my eye sight، or something like magic has .come over me

أنا فقدت بصرى، أو كأن شيئاً من السحر اعترانى.



بعد أن حاول المشركون بكل الأساليب السابقة أن يحبطوا الدعوة بعد ظهورها فى بداية السنة الرابعة من البعثة... ومضت عن ذلك الشهور والأسابيع وهم مقتصرون على هذه الأساليب، ولما رأوا أنها لم تجد نفعاً بل يتزايد عدد المسلمين ولا يظهرون أى مبالاة بعداء المشركين لهم - الأمر الذى جعل رجال قريش ينكرون فى مجموعة من العروض والمساومات مع رسول الله ﷺ.

[العرض الأول]

1 - ذهب وفد من قريش إلى أبى طالب (عم النبى) يشكون إليه ابن أخيه الذى سبَّ آلهتهم وعاب دينهم، وسفَّه أحلامهم، وضلل آباءهم فقالوا له: إما أن تكفه عنّا، وإما أن تخلى بيننا وبينه... فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقا وردهم رداً جميلاً. ولكنه لم يفعل شيئاً، فراجعوه بأسلوب أغلظ ومبادرة أخرى فقالوا له: إنك لم تنه ابن أخيك عنا وإنه ماض فى عمله ودعوته ونحن لن نصبر على هذا طويلاً.. فإما أن تكفه وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين! عظم على (أبى طالب) هذا التهديد الشديد فقال لابن أخيه: ابق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق... فظن النبى ﷺ أن عمه خاذله وأنه ضعف عن نصرته فقال:

(يا عم: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) وبكى.. فرَّق له عمه وقال له: اذهب وقل ما أحببت، والله لا أسلمك لهم أبدًا، وعلمت قريش أن أبا طالب لن يخذل ابن أخيه فذهبوا إليه بعرض آخر.

[العرض الثانى]

2 - ذهبوا إليه (بعمارة بن الوليد بن المغيرة) فقالوا له: إن هذا هو أجمل وأغنى وأذكى فتى فى قريش فخذه واتخذه ولداً ولك عقله وماله وجاهه. وأعطنا ابن أخيك - الذى خالف دينك وفرَّق جماعتك - فيكون رجل برجل! فقال: لبئس ماتسوموننى أتعطونى



ابنكم أربيه، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟... فقال له (المطعم بن عدى): لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره. فقال أبو طالب: والله ما نصفونى.. فاصنعوا ما بدا لكم.

[العرض الثالث]

3- اجتمع رؤساء قريش فى الكعبة واتفقوا على مفاوضة النبى ﷺ فأرسلوا إليه ليكلموه فجاءهم سريعاً وهو يظن أنهم يريدون الإسلام.. ولكنهم فاجاءوه بأن طلبوا منه أن يدعو ربه ليحيى لهم من مات من آبائهم وأن يزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة، وأن يفجر خلالها الأنهار لتصبح حدائق... وذكروا كلاماً وطالبوه بأمور ذكرها الله فى [سورة الإسراء] ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

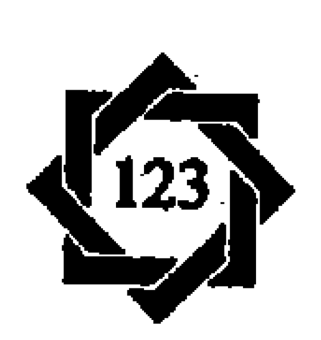
الرد: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[الإسراء].

قالوا له يا محمد إن كنت صادقاً فيما تقول فاسمع منا مقترحاتنا واسأل ربك الذى بعثك فلينفذها لنا.. والمقترحات السخيفة هى:

1) ﴿...لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[الإسراء].

أى حتى تخرج لنا من أرض مكة - القليلة المياه عيناً لا تنضب.. وكلمة (ينبوعاً) ← للإشعار بأنهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب، وإنما يريدون ماء كثيراً لا ينقص فى وقت من الأوقات... وبعد أن طلبوا الماء لأنفسهم يطلبون للرسول:

2) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء].



هنا يطلبون للرسول (جنة) أى حديقة ملتفة الأغصان. بها نخيل وعنب (لأنهما الصنفان المشهوران عند العرب) وتفجر خلال هذه الحديقة أنهاراً حتى لا تذبل أبداً.

ويواصلون تحديهم لرسول الله:

3) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ...﴿٩٢﴾ ﴾ ←

أو تسقط علينا السماء كما هددتنا به، من أن فى قدرة ربك أن ينزل علينا عذاباً متقطعاً من السماء ولعلهم يعنون بذلك قول الحق فى [سورة سبأ] ﴿ ... إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴿٩﴾ ﴾.

لقد وعدتنا أن يوم القيامة تنشق السماء وتسقط علينا كما حكى القرآن فى ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال].

هم يتعجلون العذاب والرسول ﷺ يرجو لهم من الله الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم لعله – سبحانه – يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة.

4) ﴿ ... أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] ← أى نراهم أمامنا مقابلة عياناً.

– والمتأمل فى كل هذه المقترحات نجدها جميعاً تعجيزاً بعيداً كل البعد عن الواقع مما يدل على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية بل قصدوا الجدل والعناد.

– لذلك يرد الحق على لجج هؤلاء وتعنتهم بقوله فى [سورة الأنعام]:

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

– ثم يحكى الحق سبحانه – بقية مطالبهم التى لا يقرها عقل سليم فقال:

5) ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ...﴿٩٣﴾ ﴾[الإسراء] ←



والزخرف ← يطلق على الزينة والمراد به هنا ← الذهب لأنه أثمن ما يتزين به فى العادة.

6) ﴿... أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ ... ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء] ← أى تصعد إليها على سلم، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ورأوا إمكانية ذلك فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد.

7) ﴿... وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ...﴿٩٣﴾﴾[الإسراء] ←

وكأنهم يبيتون العناد لرسول الله - فهم كاذبون فى الأولى وفى الثانية. ولو نزل الله عليهم الكتاب الذى أرادوه- ما آمنوا.. وقد رد الحق عليهم فى (سورة الأنعام):

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم ختم سبحانه هذه الآيات، بأن أمر نبيه بالردّ عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال:

الردّ: ﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

وكلمة (سبحان) هى كلمة التنزيه العليا للحق.. التى تحدى بها الكون كله فهى لا تقال إلا لله ولم يحدث أبداً أن قالها أحد من الناس لأحد حتى أعتى الجبابرة.. وهى كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان. لكن لم يجرؤ أحد على قولها.. لقد صرفها الله من ألسنة الناس جميعاً.

والحق سبحانه يتحدى الكون كله بأمور اختيارية.. يعلم أزلاً أن أحداً لن يستطيع أن يفعلها أبداً.. ومثل هذا التحدى أيضاً فى اسم (الله) فهو عَلَم على الذات الإلهية التى صرف ألسنة الناس عنها بالرغم من أنه تعالى أعطاهم الحرية فى اختيار أى اسم وأعلن هذا التحدى فى كتابه الكريم وعلى رءوس الأشهاد فقال: ﴿... هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[مريم].

ولم يجرؤ كافر واحد على أن يسمى هذا الاسم ليظل هذا التحدى قائماً إلى قيام الساعة فلو كان الملاحده يعلمون أن هذه الكلمة كذب أو لا وجود لها لأقدموا على التسمية بها



دون أن يبالوا شيئاً، ولكنهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ويجرب هذه التسمية لأنه يخشى عواقبها الوخيمة.. لذلك رد الحق قائلاً:

﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ...﴿٩٣﴾﴾[الإسراء] ← لأن الأمور التى طلبوها بلغت من العجب حداً ولا يمكن أن يتعجب منها إلا بسبحان الله! فهى كلمة التعجب الوحيدة التى لا تطلق لغير الله.

[العرض الرابع]:

وعرض آخر عرضه عليه مشركو قريش إذ جاءوه يساومونه على أن يعبد آلهتهم مدة وهم يعبدون إلهه مدة أخرى. فإن كان الذى يعبد خيراً مما يعبدون يكونوا قد أخذوا بحظهم منه، وإن كان ما يعبدون خيراً مما يعبد يكون قد أخذ بحظه منه فأنزل الله [سورة الكافرون].

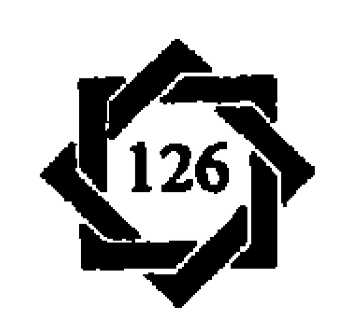
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

يقول الحق لرسول الله: قل لهؤلاء المشركين -على سبيل الجزم والتأكيد أنا لا أعبد ما تعبدون من آلهة باطلة ولا أنتم عابدون الإله الحق الذى أعبد.. والمقصود من التكرار هو المبالغة التامة فى البراءة من معبوداتهم الباطلة ومن عبادتهم الفاسدة.

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذا الرد الجازم، لم تيأس قريش بل أبدوا مزيداً من التنازل بشرط أن يجرى النبى ﷺ بعض التعديلات فيما جاء به فقالوا: [سورة يونس].

[العرض الخامس]:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ الرد: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.



هم يطلبون هنا طلبين:

الأول ← أن يأتِ بقرآن غير هذا.

الثاني ← أو يبدله، بأن يسقط ما فى القرآن من عيب لآلهتهم وإسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وحذف الآيات التى تهزأ بالأصنام.

ويأتى الرد من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه، وهو المطلب الثانى. ولم يرد الحق على الطلب الأول لأن الإتيان بقرآن آخر يتطلب تغييراً للكل ولكن التبديل هو الأمر السهل.. وقد نفى الأسهل ليسلّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق رسوله ان يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ ← أى أن أمر التبديل وارد لكنه ليس من عند رسول الله. فهو ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص حرفا فيما يوحى إليه وإلا لبطش الله به. أما الله فهو سبحانه ينسخ ويبدل للتيسير على الناس ورفع الحرج ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ... ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة].

ويأتى الأمر بالرد من الحق سبحانه على الكافرين. الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله ← لقد عشت طوال عمرى معكم ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر أو أدب فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين، فحياته معروفة ومعلومة لكم. فالقرآن ليس من عنده بل هو بلاغ من الله.

ولما فشلت قريش فى هذه المفاوضات ولم توفق فى إقناع أبى طالب بمنع رسول الله وكفه عن الدعوة قررت أن تختار سبيل الاعتداءات على رسول الله ﷺ.

اخترقت قريش ما كانت تحترمه منذ ظهور الدعوة فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ وكان (أبو لهب) فى مقدمة هؤلاء - فهو أحد رؤوس بنى هاشم فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدواً لدوداً للإسلام وأهله.. فقد وقف موقف العداء من الرسول منذ اليوم الأول.. (وقد أسلفنا ما فعل بالنبى ﷺ فى مجلس بنى هاشم وما فعل على الصفا).

وكان (أبو لهب) قد زوج ولديه (عتبة وعتيبة) من بنتى رسول الله (رقية، وأم كلثوم) قبل البعثة فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة.

ولما مات (عبد الله) الابن الثانى لرسول الله ﷺ استبشر (العاص بن وائل) وأخذ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى [سورة الكوثر] ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

والكوثر ← هو المبالغة فى الكثرة إلى حد الإفراط.. واختلف المفسرون على هذا الكوثر الذى أعطى للنبى ﷺ على ستة عشر قولا منها: أنه نهر بالجنة، إنه حوض النبى ﷺ أو إنه النبوة والكتاب والإسلام.

والمعنى ← أنك أوتيت الخير الكثير - الذى من جملته النهر العظيم، والحوض المطهر... فأبشر بذلك أنت وأمتك ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك.. فداوم على شكر هذه النعم الجزيلة، بأن تواظب على الصلاة وبأن تجعلها خالصة لربك، وأن تواظب أيضاً على نحرك الإبل تقرباً إلى ربك.. ثم بشره سبحانه ببشارة أخرى وهى أن شانئه (وهو المبغض الكاره له) هو المقطوع عن الخير والمحروم من كل ذكر حسن.. فهذا الرجل (العاص بن وائل) الذى توهم لجهله أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره.. هو الذى ذهب ذكره إلى النسيان أما ذكر محمد فقد بقى على رءوس الأشهاد وأوجب ذكره على كل العباد بصفة مستمرة دوماً إلى يوم المعاد.

وكان (أمية بن خلف) إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه وفيه نزلت:



﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾[الهمزة].

(والهمزة) ← هو رمى الناس بما يؤذيهم – أى الطعن فى أعراضهم فى الغيب.

(واللمز) ← هو السخرية عن طريق الإشارة باليد أو العين ← أى يعيب فى العلن.

هنا يدعو الله تعالى عليهم باللعنة والعذاب الشديد.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ ←

زيادة فى التشنيع والتقبيح للهمز واللمز. فهو قد فعل ذلك بسبب أنه جمع مالاً كثيراً وأنفق الأوقات الطويلة فى عدة مرات مرة بعد أخرى حباً له. وشغفاً به وتوهماً منه أن هذا المال الكثير هو مناط التفاضل بين الناس.. ويظن أن هذا المال سيخلده فى الدنيا ويجعله فى مأمن من حوادث الدهر.. ثم يبين سبحانه سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور.. إن الأمر ليس كما زعم بل سيطرح فى النار التى تحطم كل شىء يلقى فيها، وأضيفت إلى الله لزيادة الترويع والتخويف منها.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ ← التى تصل إلى أعماق القلوب وتنفذ إليها فتحرقها تماماً وخصت القلوب بالذكر لأنها أشد ما فى الأبدان تألماً بأذى يصيبها ولأنها محل العقائد الزائفة.. ثم يصف الحق هذه النار بصفة ثالثة فقال:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ← أى أنها مطبقة ومغلقة عليهم بحيث لا يستطيعون الخروج منها.

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ ← صفة رابعة من صفات النار. أنها مغلقة عليهم بأبواب محكمة، هذه الأبواب قد شددت بأوتاد من حديد، وتمتد هذه الأوتاد من أول الأبواب لآخرها بحيث لا يستطيع من بداخلها الفكاك منها.



وكان (الوليد بن المغيرة) ممن ينال من رسول الله ﷺ وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾[القلم].

هذه الحملة القرآنية العنيفة، والتهديدات القاصمة شاهدة على شدة ما بدر منه فى حربه على رسول الله ﷺ، كما هى شاهدة على سوء فطرته وفساده وخلوه من الخير.

ولا تطع أيها الرسول الكريم من كان فيه هذه الصفات التسع المتناهية فى السوء:

1. ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾، 2. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقيراً وصنيعاً، 3. ﴿ هَمَّازٍ﴾ ← عياب للناس كثير الاغتياب لهم، 4. ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ← نقال للحديث السيئ ليفسد بين الناس، 5. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾. 6. ﴿مُعْتَدٍ ﴾ ← كثير العدوان على الناس، 7. ﴿أَثِيمٍ﴾ ← مبالغ فى ارتكابه للآثام. 8. ﴿ عُتُلٍّ ﴾ ← غليظ فظ القلب، 9. ﴿زَنِيمٍ ﴾ ← أى ابن زنا فهو لصيق ليس له نسب.

(ولما نزلت الآية ذهب لأمه يسألها عن نسبه فقالت له إن أباك كان عنيناً عقيماً) فخفنا على المال فأتينا بك من نكاح الاستبضاع... فلم يكن يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ← أى لا تطع من كانت صفاته حتى لو كان ذا مال وبنين فإن ماله وولده لن يغنى عنه من الله شيئاً.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ← وفضلاً عن كل هذه الصفات القبيحة تراه إذا تتلى عليه الآيات الدالة على وحدانية الله وعلى صدقك يا محمد، قال: هذه الآيات أكاذيب الأولين.



ثم ختم هذه الآيات بأشد أنواع الوعيد فقال:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ ← أى سنبين أمره ونوضحه توضيحاً يجعل الناس يعرفونه معرفة لا إخفاء ولا غموض فيها بعلامة على أنفه تميزه وعرف بها إلى موته. وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستحقار والتهكم. لأن الخرطوم للفيل أو الخنزير. وقد أصيب يوم بدر بالسيف على أنفه فعرفت جثته من هذه العلامة. ولما كانت الأنف هى أكرم موضع من الوجه لذلك جعل مكان العز والحمية واشتقوا منها (الأنفة).

رابعًا: ما فعلوه بالمؤمنين:

الاعتداءات والتعذيب للمؤمنين:

بذلت قريش كل ما فى وسعها من قوة للوقوف أمام الدعوة الإسلامية ولكنها باءت بالفشل والخيبة فحوّلت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين (كبلال وعمار ووالده ياسر وأمه سمية، وصهيب الرومى، وخباب بن الأرت، وأبى فهيرة....).

1) كان (بلال) مملوكاً (لأمية بن خلف) فكان يعذبه بإلقائه فى الرمضاء على ظهره وعلى وجهه ويضع الصخرة العظيمة على صدره وقت الظهيرة ويضربه بالسوط حتى يكفر.. وبلال صابر يردد كلمة: أحد أحد.. حتى رق له أبو بكر فاشتراه وأعتقه.

2) وأما (عمار ووالده ياسر وأمه سمية) فكانوا يخرجونهم إلى الصحراء ويعذبونهم فى الحر الشديد فمر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) فمات ياسر تحت العذاب، وأما سمية فطعنها أبو جهل بحربة فى قلبها فماتت وكانت أول شهيده فى الإسلام.

وشدد الكفار العذاب على (عمار) بكافة أنواعه حتى يرغموه على أن يسبَّ محمداً. وفعل عمار ما طلبوه منه وسبّ النبى ﷺ تحت وطأة الآلام حتى يتركوه.. فأتى النبى ﷺ يبكى وحكى له ما فعله.. فقال له: (كيف تجد قلبك؟) قال: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال: إن عادوا ياعمار فعد. وأنزل الله قوله تعالى فى [سورة النحل] ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾.

يوضح لنا الحق سبحانه أن الإيمان ليس مجرد أن ننطق بالشهادتين ولكن لابد أن يواطئ القلب اللسان حتى يكون المؤمن منطقيًا فى إيمانه.. أما من يؤمن بلسانه ويضمر الكفر فى قلبه فهو منافق وغير منطقى فى إيمانه.. وهناك حالة أخرى - وهى المرادة فى هذه الآية- أن يؤمن بقلبه وينطق الكفر بلسانه فيعطينا الحق تفصيلاً لهذه الحالة.

لو كان هذا الكفر عن إكراه لا دخل للإنسان فيه (أى مجبراً) فى حين أن قلبه مطمئن بالإيمان، فلا عقوبة عليه، ولا بأس أن يأخذ المؤمن بالتقية، وهى رخصة حتى لا يهلك الإنسان، ولذلك يقول النبى ﷺ: [**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**].

وكان (عمار بن ياسر) أول من أخذ بهذه الرخصة، أما والديه وبلال فقد صبروا على البلاء، وهى منزلة أعلى؛ لأن الإيمان فيها بالقلب واللسان أما التُّقية والأخذ بالرخصة ففيها الإيمان بالقلب فقط دون اللسان.

- وهكذا اشتد عذاب المستضعفين من المؤمنين من قِبل مواليهم، ولكنهم صبروا ولم يرجعوا عن دينهم.. فكان موقفهم تقريراً وتأكيداً لما جاء فى: [سورة العنكبوت] ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾.

يستنكر الحق أن يظن الناس أن الله يتركهم دون اختبار أو تمحيص.. والحق يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإيمان؛ لأنها رسالة شاقة لا يتحملها إلا أقوياء الإيمان.

فالإيمان ليس كلمة تقال ولكنها مسئولية تطبيق ومنهج حياة له متطلبات. فلا بد من الفتن والاختبارات حتى يظهر صادق الإيمان ويؤكد سبحانه هذا المعنى فى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ... ۝١١ ﴾[سورة الحج].

وقد محص الله السابقين الأولين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكونى فكان المؤمن يصدق بها ويؤمن بصدق الرسول، أما المتردد ← فيُكذّب بها ويراها غير معقولة.



- مثل (حادثة الإسراء والمعراج) ← فقد صدق بها (أبو بكر) فى حين ارتد البعض وكذبوه، كأن الحق يريد أن يميز بين الناس ليحمل الدعوة أشداء الإيمان والعقيدة ومن لديهم يقين بصدق الرسول فى البلاغ عن ربه ﴿ ... وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٣﴾ ﴾ ← [العنكبوت].

- يسلى الحق المعذبين من المستضعفين بأنهم ليسوا بدعة فى هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون.. مثل ابتلاء بنى إسرائيل مع فرعون.

والحق تعالى يعلم بحقيقتهم من قبل أن يبتليهم ولكن الهدف من الامتحان هو أن يكون حُجّة عليهم، وأن يرى العبد بها علم عنهم ﴿ ... فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ← [العنكبوت].

يعلم علم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه بحيث لا يستطيع الإنكار حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه.

وازداد هؤلاء النفر الذين يؤذون رسول الله فى إيذائهم حتى إن (عقبة بن أبى معيط) وصلت به الوقاحة والخبث أنه رأى النبى ﷺ يصلى فى الكعبة فوضع على ظهره وهو ساجد (سلا الجذور) وهى أمعاء الشاة المذبوحة، وضعها على ظهره بين كتفيه مما أثار السخرية وضحك الجالسون (الحكم بن العاص، وعقبة بن أبى معيط، وأبو جهل...) وأخذوا يتمايلون ضحكاً ومرحاً.. والرسول ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته (فاطمة) فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه [وقال: اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط...] فشق ذلك عليهم. وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة.



هذه صورة مصغرة جداً لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والجور على أيدى طغاة المشركين من أهل مكة.. وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار الرسول ﷺ موقفاً حازماً ليخفف وطأة هذا البلاء فاتخذ رسول الله خطوتين حكيمتين:

اختيار دار الأرقم مركزاً للدعوة.

أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

1) دار الأرقم:

اختار الرسول ﷺ هذه الدار أسفل جبل الصفا ليجتمع فيها بالمسلمين ليعلمهم ما يتلقاه من آيات الكتاب ويعلمهم العبادات، وليدخل من يدخل فى الإسلام حتى يحمى المؤمنين من المصادمة مع المشركين. ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السرّية فى الاجتماعات، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادات والصلاة فى جوف الكعبة لا يصرفه عن ذلك شىء.

2) الإعداد للهجرة الأولى إلى الحبشة:

تفاقمت الاعتداءات فى أواخر السنة الرابعة من البعثة وأصبحت الإقامة فى مكة صعبة جدًا. وأخذ النبى ﷺ يفكر فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم.. وفى هذه الظروف نزلت:

[سورة الزمر] ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذه الآية ترشدهم إلى اتخاذ سبيل الهجرة.. وقوله تعالى:

﴿ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ← للعقائد.

﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾ ← فى العبادات والتكاليف.



﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ← أى لمن أحسن فى الدنيا له حسنة فى الآخرة لأن الكفار يتمتعون فى الدنيا بحسنات كثيرة فإذا فسرنا الحسنة على أنها النعيم فإن كان هذا النعيم سبباً فى صرف الإنسان عن ربه فلا يعد حسنة ← إنما هو سيئة.. فالحسنة المرادة هنا فى الآخرة.

﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ ← فإن صادفت متاعب فى أرضك فإن أرض الله واسعة فالتمس الحماية لنفسك ولدينك فى أرض أخرى.. ويقول الحق نفس المعنى فى: [سورة النساء] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾ ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ... (١٠٠) ﴾.

أى يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه أعداءه الذين اضطروه إلى الهجرة أو اتقاء شرهم.

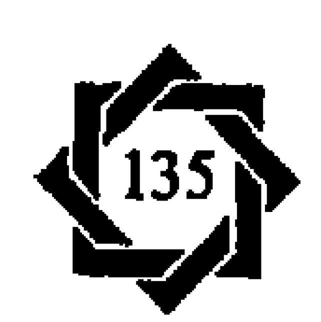
- إذاً تشير هذه الآيات إلى أنك حين تضيق بك أرضك ويضيق عليك الخناق بها، فالتمس أرضاً أخرى تأمن فيها على نفسك وعلى دينك حتى تطبق منهج الله دون معارض.

﴿ ... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ ← [الزمر].

وفى الآية دلالة على أنه لا بد أن توجد فى الحياة صعاب ومشاكل ومتاعب تحتاج إلى الصبر، والحق يريد المؤمن أن يصبر على الشدائد والمحن. فإذا كانت للعبادات (الصلاة، والصوم،...) حساب معلوم عند الله، فإن الصبر أجره بغير حساب أى غير معلوم.. حتى إن أهل الصبر على البلاء لهم منازل عليا فى الجنة حتى وإن لم يُكثِروا من العمل الصالح.

فالصبر ← عدم اعتراض على حكمة الله وقضائه.. ونحن نرى بعض أهل البلاء يُعرِضون بلواهم على الناس، كأنهم يشكون الخالق للخلق، أو يفضحون الخالق أمام الخلق. كمن يقول: انظروا ماذا فعل الله بى؟ لذلك يقول النبى ﷺ (إذا ابتليتم فاستتروا).

وكان الرسول ﷺ قد علم أن النجاشى ملك الحبشة (أصحمة) ملك عادل لا يظلم عنده أحد فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم.



العام الخامس من البعثة:

الهجرة الأولى إلى الحبشة

(أعوام البعثة تحسب من أول رمضان لأنه أول شهر نزل فيه القرآن)

وفى رجب من السنة الرابعة من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكوناً من 12 رجلاً، 4نساء. رئيسهم (عثمان بن عفان) ومعه زوجته (رقية بنت رسول الله). وقد قال النبى ﷺ فيهما (**إنهما أول بيت يهاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام**).

- تسلل هؤلاء فى ظلمة الليل إلى البحر الأحمر وأبحروا إلى الحبشة فى سفينتين تجاريتين. ولما فطنت قريش لخروجهم ذهبوا فى آثارهم، لكنهم كانوا قد انطلقوا آمنين.

وفى رمضان أول شهر من السنة الخامسة ذهب النبى ﷺ إلى الحرم – وفيه عدد كبير من سادة قريش– فتلى [سورة النجم] جهراً.. ولم يكن هؤلاء المشركون قد سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصوا عليه من أن لا يسمعوا لهذا القرآن وأن يلغوا فيه.. فلما سمعوه بغتة وجدوه أروع ما سمعوا فأخذ بمشاعرهم وظلوا يستمعون إليه حتى خواتيم هذه السورة إلى أن قرأ السجدة فلم يتمالك أحد نفسه حتى خروا جميعاً سجداً.. [آيات من سورة النجم] ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

نزلت السورة الكريمة لتردّ على قول المشركين إن محمداً يختلق القرآن، فافتتحها الله تعالى بقسم عظيم وهو ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ← الواو ← واو القسم.. والنجم هو إما:

نجوم السماء التى يرجم بها الشياطين فيكون هويها فى رمى الشياطين أو فى أنها تغيب.



أو هي النجم من القرآن لأن القرآن نزل رجوماً متفرقة ويكون معنى ﴿هَوَىٰ﴾ ← نزل على محمد ﷺ.

فالنجم علامة فى السماء تهدى السائر وتدله، فإذا سقط امتنعت الهداية والفائدة ولكن نجم محمد لا يسقط أبداً – فنجم السماء يهدى للماديات وهى موقوتة ونجم محمد ﷺ يهدى للقيم والمعنويات وهى دائمة.

﴿مَا ضَلَّ﴾ ← أى ما حاد عن الحق ولا مال عنه.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ← وما اعتقد اعتقاداً باطلاً، وكلمة ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ← تعنى أنه واحد منكم ومحبب إليكم، وتعلمون صفاته من قبل البعثة، ولم تشاهدوا منه إلا الصدق والأمانة ورجاحة العقل.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ← النطق هو القول.. فهو لا يقول أى شيء عن هوى نفسه ورأيه، وإنما ما ينطق به هو وحى من الله أوحاه إليه وأمر بتبليغه إلى الناس.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ← وهو جبريل (أمين وحى السماء).

و﴿الْقُوَىٰ﴾ ← جمع قوة..فله قوى متعددة–قوة ذكاء، وحفظ، وإلقاء، وأمانة،......
وهذه الصفات هى التى حمت القرآن من التغيير. وقد بلغ من شدة قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط السبع بطرف جناحه. وجبريل هو الذى علّم النبى بكل ما عنده من صفات.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ← والمِرّة ← هى القوة فى كل ما يتناول من دقه وذكاء مأخوذة من (أمررت الحبل إذا أحكمت فتله)... أى القوة التى لا تخطىء.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ ← فاستقام على صورة ذاته الحقيقية، دون الصورة الآدمية التى كان ينزل بها.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ← وهو – جبريل – بالجهة العليا من السماء .

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ← ثم انخفض جبريل من أعلى إلى أسفل فقرب من النبى ﷺ.



﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ← ثم اقترب من النبى ← فأصبح على بعد مقدار القوسين أو أقرب من ذلك... فبعد أن كان جبريل فى الجهة العليا من السماء قرب من النبى ﷺ فكان على بعد أقرب من قوسين بل أدنى. وقيل هو ما بين وتر القوس ومقبضها.

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ← فأوحى الله تعالى - عن طريق جبريل - إلى عبد الله محمد ما أوحاه.. وأبهم الحق ما أوحاه حتى لكأنه لا تحيط به عبارة ولا يحدّه وصف مثل ﴿... فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [طه].. وعبر عن رسوله بعبده زيادة فى التشريف.

- هذه هى المرة الأولى التى رأى النبى ﷺ جبريل فى صورته الملائكية- فكان يتمثل دائماً فى صورة رجل - غالباً فى صورة (دحية الكلبى الصحابى الذى أرسله الرسول إلى قيصر يدعوه للإسلام).. وكان النبى ﷺ يحب النظر إليه لجمال شكله.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ← هذا رد على المشركين لزعمهم أن النبى ﷺ لم يتلق الوحى عن جبريل ولم يشاهده.. فما كذب فؤاد النبى ﷺ فيما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، فهو كان يعرفه بقلبه معرفة مؤكدة وزادت تأكيداً برؤيته له بعينيه، فهو عرفه بقلبه وتأكد منه ببصره، ولم يشك فى أن ما رآه حق.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ← أفتجادلونه فيما رآه بعينيه من شىء متحقق منه بعقله وقلبه وبصره؟ وأنتم تعلمون أنه صادق أمين!

هذا وقد رأى النبى ﷺ جبريل مرة ثانية فى السماء على صورته الملائكية ولم (يره على صورته إلا هاتين المرتين) وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج فى السنة العاشرة من البعثة بعد موت السيدة خديجة (فى عام الحزن).

ثم أخذت السورة الكريمة فى تبكيت المشركين على عبادتهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر فقالت:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ← ثم ينتقل الحق إلى الحديث عن الأصنام باستفهام استنكارى، بمعنى أخبرونى عن شأن هذه الأصنام التى اتخذتموها آلهة من دون الله؟



﴿ ٱللَّٰتَ ﴾ ← وهو صنم على شكل رجل اشتقوا اسمه من اسم (الله) مع تعمد تأنيثه وكان لثقيف بالطائف.

﴿ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ ← وهى شجرة كانوا يعبدونها وكانت بين مكة والطائف فى وادى نخلة، كانت قريش تعظمها. كما قال أبو سفيان يوم أحد (لنا العزى ولا عزى لكم)، واشتقوا اسمها من العزيز فهى تأنيث الأعز. فقال النبى قولوا لهم: الله مولانا ولا مولى لكم.

﴿ وَمَنَوٰةَ ﴾ ← وهى صخرة ضخمة بين مكة والمدينة. كانت قبائل المدينة (الأوس والخزرج وخزاعة) يهلون منها للحج إلى الكعبة، وسميت بهذا الاسم لأن دماء الذبائح كانت تُمنى عندها أى تراق.

﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ← الثالثة فى الترتيب فهى متأخرة فى الرتبة وضيعة المقدار. والكلام خطاب لعبدة هذه الأصنام. بمعنى أخبرونى عن هذه الأصنام هل تستحق أن تعبد؟ وهى أحجار لا تملك شيئاً فكيف عظمتموها مع عجزها وحقارتها؟ أين عقولكم؟ لكنها هى طبيعة التدين فى النظرة البشرية التى وضعها الله فى الإنسان وهو ما يزال فى عالم الذر، فالإيمان فطرة فى كل النفوس. ولكن الإيمان الصادق له منهج ومطلوبات قد تشق على النفس فيميل الإنسان إلى عبادة إله بدون تكليفات ليُرضى غريزة التدين فى نفسه ومن هنا فهم عبدوا تلك الأصنام لأنها آلهة بدون مطلوبات فقط ليريحوا مواجيدهم الإيمانية.

- نلاحظ أنهم مع عبادة تلك الآلهة المذكورة كانوا يعبدون الملائكة أيضاً، ويقولون أنهنّ بنات الله، ولكن لدقة الأداء القرآنى لم يذكرهن هنا لأن الملائكة لا تُرى، فلا يصح أن يقول: أفرأيتم الملائكة؟ لأنهم آمنوا بها غيباً.. وقالوا على كل هؤلاء.

﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... ﴿٣﴾ ﴾[الزمر] إذًا حتى فى كفرهم هم يتمسحون بالله!

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ← أى أجعلتم لله تعالى البنات وجعلتم لأنفسكم البنين.. حيث نسبوا لله تعالى الملائكة وجعلوها ظنًا منهم إناثاً لوجود تاء التأنيث بها.



والملائكة مخلوقات نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل فلا توصف بالذكورة ولا بالأنوثة.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ ← أى قسمة جائرة.

اولا ← لأنهم نسبوا لله تعالى ما استنكفوا من نسبته لأنفسهم، أى نسبوا الجنس الأعلى فى نظرهم لأنفسهم، ولله الجنس الأدنى، والكلمة جاءت غريبة لتدل على فعلهم الغريب والعجيب.

ثانياً ← أنهم جعلوا الملائكة إناثاً وهى ليست إناثًا ولا ذكورًا.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾[النجم].

ثم يبين الحق وجه الحقيقة فى هذه الأصنام، فيقول إن تلك الأصنام التى عبدتموها من دون الله – وتتوهمون أنها تشفع لكم عنده – ما هى إلا أسماء محضة ليس فيها شىء من صفات الألوهية. أنتم سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم دون أن يكون معكم دليل أو حجة على ذلك.. وما يتبعون فى عبادتهم لهذه الأصنام إلا الظنون الكاذبة وما تشتهيه أنفسهم المحجوبة عن الحق – وقد وصل إلى مسامعهم من ربهم ما يهديهم إلى الصواب.

يريد الحق أن يؤكد على هذه الحقيقة، وهى أن هدى الله قد جاءهم، وبلّغهم رسول الله منهج الله، ومع ذلك تركوا الحق واليقين واتبعوا الظن وما تهوى الأنفس.

– ثم أخذت السورة فى توبيخ المشركين على شركهم وساقت لهم الحقائق فى أسلوب يغلب عليه طابع المقارنة والاستشهاد بالواقع. ثم بعد ذلك أمر الله نبيه أن يمضى فى طريقه وأن يترك حساب هؤلاء الضالين لله. فقال:

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾[النجم].

﴿ فَأَعْرِضْ ﴾ ← فعل أمر من الفعل (عرض) وبإضافة همزة الإزالة يكون الأمر هو

عكس عرض أى أعرض عنهم بمعنى انصرف عنهم. فهم البادئون بالإعراض عن ذكر الله وعن القرآن والمنهج لأنه يُقيّد حريتهم، وهم يريدون الانطلاق خلف شهواتهم، ولا يريدون سوى متع الدنيا. أما ما يتعلق بالآخرة فهم فى غفلة عنه.. فهم لا يعلمون إلا الدنيا ولا يعملون إلا لها فذلك أقصى ما وصلوا إليه من العلم، فقد وقف بهم عند هذا الحد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ← هذا تعليل للأمر بالإعراض عنهم بعد أن سلك معهم كل وسيلة ليهتدوا، فإن الله هو أعلم بمن يصرّ على الضلالة، وبمن سيهتدى ويستجيب للحق.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾[النجم].

سبب نزول هذه الآيات:

إن (الوليد بن المغيرة) كان قد سمع القرآن وجلس إلى النبى فوعظه فهمّ أن يُسلم فعاتبه رجل من المشركين وقال له: أتترك دين آبائك؟ اثبت على دينك وأنا أتحمل عنك عذاب الآخرة إن كنت تخافه، على أن تعطينى مبلغاً معيناً من المال.. فوافقه الوليد وأعطاه جزءًا من المال ثم أمسك عن الباقى وبخل به فنزلت الآيات:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ ← يا محمد ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ وأعرض عنك ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ من العطاء ﴿وَأَكْدَىٰٓ ﴾ ثم قطع عطيته وأمسك - والمراد هنا ذمّه أولاً بالتولى عن الحق ثم بالبخل والشح.

(أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ) ← أعند هذا الإنسان الذى أعرض علم الغيوب المستترة، فهو وحده يراها، ويعلم أن فى إمكان الغير أن يحمل عنه أوزاره يوم القيامة؟ أى بسبب معرفته للغيب يُبصر رفع العذاب عنه، ويعلم أن غيره سيتكفل بافتدائه من هذا العذاب.



ثم ينتقل من ذمه على إعراضه وبخله إلى ذمه على جهله عن صحف موسى وهى التوراة، وصحف إبراهيم، وقدّم صحف موسى لكثرة أحكامها وكثرة علمهم بها بالنسبة لما وصل إليهم من صحف إبراهيم.

فإذا كان هذا الإنسان المتولى عن الحق جاهلاً بشئون الدين فهلّا سأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم ← فسيعلم ما جاء فيها أن:

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾[النجم]. ← لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى فلن يتحمل أحد العذاب بدلاً عن آخر ولن يؤاخذ أحد بذنب غيره كذلك لن يثاب الإنسان بعمل غيره فليس للإنسان إلا ثمرة عمله الصالح فقط.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ [النجم] ← وأن عمله سوف يراه مسجلاً أمامه فى صحف مكرمة وفى ميزان حسناته، ثم يجازيه الله عليه الجزاء الكامل بدون نقص ولا بخس، وكلمة (سوف) تدل على المستقبل فى الآخرة.

وسوف تنال عليه الجزاء المناسب. ليس الجزاء بالعدل فقط إنما الجزاء بالفضل وهذا هو الجزاء الأوفى.. ثم إلى الله وحده يكون انتهاء الخلق ومرجعهم، فالدنيا ليست هى نهاية المطاف بل لابد أن يكون هناك يوم للحساب. العدل يقتضى هذا.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم].

– وهو الذى خلق فى الناس ما يجعلهم يسرّون فيضحكون أو يحزنون فيبكون. وقد أكد الحق على تفرده بهذا العمل – فلا دخل لأحد غيره فيه – لذلك أكد الضمير المتصل (أنه) بضمير مؤكد منفصل (هو) فهو وحده خالق هذه الطبيعة، وجعل هذه المشاعر يتحد فيها البشر جميعاً باختلاف أجناسهم ولغاتهم فليس هناك ضحك عربى أو بكاء إنجليزى.

ثم يرد على منكرى البعث بأن الله وحده هو الذى يميت ويحيى.



(فينسخ الله ما يلقى الشيطان) ← ثم يخيب الله سعى الشيطان.. ومحاولته صدّ الناس وتشويه القرآن بأن يلغى ويبطل ما يلقيه الشيطان من عقاب ليصرف الناس عن القرآن.

(ثم يحكم الله آياته) ← ثم يحكم الحق آياته بأن يجعلها متقنة لا تحتمل الشك فى كونها من عنده.. والجمهور يرى أن هذا هو التفسير الواضح الذى يؤيده الواقع.

أما التفسير الثانى: (تمنى) ← بمعنى قرأ وتلا فيكون: (ألقى الشيطان فى أمنيته) ← هو ما يلقيه الشيطان فى قراءته، والمقصود فى معناه من أكاذيب وأباطيل... فيكون المعنى ← ما أرسلنا من قبلك رسولاً ولا نبياً إلا وألقى الشيطان التخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل..

كقولهم عند سماع ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ...﴿٣﴾ ﴾[المائدة] أن محمداً يحل ما يذبحه بنفسه ويحرم ما ذبحه الله..

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

والمقصود بما قد عُبد من دون الله هو (عيسى والملائكة والأصنام).

فيكون المراد بما يلقيه الشياطين فى قراءة الرسول أو النبى هو تلك الأباطيل التى يلقيها فى عقولهم فيجعلهم يؤولونها تأويلاً سقيماً ويفهمونها فهماً خاطئاً.

- شوال فى السنة الخامسة من البعثة:

وبعد شهرين من إقامة المهاجرين فى الحبشة بلغهم هذا الخبر، وقيل لهم إن قريشاً قد أسلمت.. فرجعوا إلى مكة.. وقبل أن يصلوا إليها عرفوا حقيقة الأمر فرجع منهم من رجع، ولم يدخل الباقى مكة إلا مستخفياً أو فى جوار رجل من قريش.



- قررت قريش أن ترسل وفدًا من (عقبة بن أبى معيط)، و(النضر بن الحارث) [وكان كثير السفر إلى بلاد فارس، وتعلّم بها قصصًا عن ملوك الفرس وأحاديث عن رستم وإسفنديار.. فكان مُطلّعًا على ثقافات أخرى] فاختارتهما قريش - ليذهبا إلى يهود المدينة، بوصفهم أهل كتاب ليسألوهم عن محمد ﷺ.

فخرج الرجلان حتى قدما المدينة فتقابلا مع الأحبار، ووصفاه لهم وأخبروهما عمّا يقول وعمّا عرفا عنه.

وقالا لهم: أنتم أهل كتاب وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.. فقال أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاثة أشياء فإن أخبركم بها فهو نبى مُرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتقوّل.

السؤال الأول: ما قصة الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول وكان لهم حديث عجيب؟

السؤال الثانى: ما قصة الرجل الطواف الذى طاف الأرض شرقاً وغرباً؟

السؤال الثالث: ما الروح؟

وعاد الرجلان وسألا النبيﷺ هذه الأسئلة فقال ﷺ: أخبركم عما سألتم غداً ولم يقل - إن شاء الله تعالى.

مكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحى حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة ولا يخبرنا بشىء! فشق ذلك على رسول الله ﷺ.

ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة (أصحاب الكهف) وأعلمه أن سبب إبطاء الوحى أنه لم يقل (إن شاء الله) فخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف].



ولكن الحق لم يعاجله بالعتاب بل أجابه على سؤاله أولاً، ثم لفت نظره إلى هذه المخالفة. فقدم العفو أولا ثم عاتبه بعد ذلك.

وهذه الآية فى حد ذاتها دليل على صدق الرسول وعلى أمانته فى البلاغ عن ربه حتى ما جاء فى عتابه والاستدراك عليه.. ينقله كما هو... كما بلغنا أيضاً قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾[التحريم].

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[التوبة].

نزلت فى اعتذار المنافقين عن غزوة (تبوك) فالرسول ﷺ لم يكتم حرفاً واحداً، إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يخفى شيئاً.

ثم يجيب الحق على السؤال الأول الخاص بقصة أصحاب الكهف (فى عشرين آية) وخلاصة القصة: إنهم فتية من المؤمنين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم - فهى قصة تضحية بالنفس فى سبيل العقيدة - حيث كانوا يعيشون فى بلدة (طرطوس) فى شمال الشام وكانت تحت حكم الرومان.. (بعد زمن عيسى عليه السلام).. والحاكم كان ملكاً جباراً يسمى (دقيانوس)، كان يدعو الناس لعبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب له، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، لم يرضح الفتية لدعوة الملك الكافر وأعلنوا الإيمان بالله.. فبعث الملك فى طلبهم، فلما مثلوا عنده توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان، فوقفوا فى وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: (لن ندعو من دونه إلهاً)... فقال لهم: إنكم فتية صغار السن فسأترك لكم فرصة إلى الغد لتفكروا وتتشاوروا وتأتونى برأيكم، فهربوا ليلاً، ومرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم الكلب، فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنوده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا جوعاً وعطشاً، وألقى الله عليهم النوم فظلوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم الله.. وذهب أحدهم ليشترى لهم طعاماً فذهب إلى البلدة فوجد معالمها قد تغيرت، فقال فى نفسه لعلى أخطأت الطريق إلى البلدة، ثم اشترى طعاماً



ولما دفع النقود للبائع أخذ البائع يقلبها ويقول له: من أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمع الناس فقالوا: لعله وجد كنزاً لأن النقود من عصر (دقيانوس) ثم قص عليهم قصتهم فتعجبوا من كلامه. ورفعوا أمره إلى الملك. وكان مؤمناً صالحاً، فذهب معه هو وجنوده وأهل البلدة إلى الكهف.. فلما سمع الفتية فى الكهف أصواتهم وجلبة الخيل ظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس هلك منذ زمن بعيد، ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم.

ومن هذه القصة نفهم المغزى من نزولها فى هذا التوقيت. أنه لا بد من الفرار بالعقيدة بعيداً عن الوسط الظالم الكافر لمن لا يطيق المداراة على سبيل التُّقية وإخفاء العقيدة فلا سبيل لذلك إلا الهجرة إلى وسط آمن.

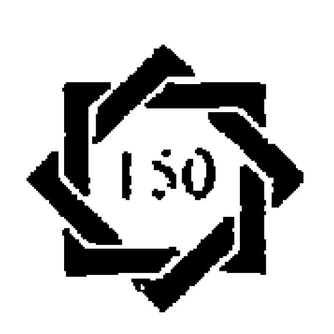
مقتطفات من سورة الكهف:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾[الكهف].

"أى لا تحسب يا محمد أن قصتهم شيء عجب؛ فهى على غرابتها لا تعد شيئاً بالنسبة لما فى صفحات هذا الكون من عجائب وغرائب. فهى ليست أعجب من خلق السماوات والأرض وعلى تزيين الأرض بما عليها فهناك ما هو أعجب منهم.

وعندما أوى الفتية إلى الكهف دعوا الله أن يأتيهم برحمة من عنده وأن ييسر لهم أمرهم.

ـ وهذه الآية صريحة فى وجوب الفرار بالدين والهجرة خوفًا من الفتنة ورجاء السلامة بالدين، لقد فرّ هؤلاء الفتية إلى هذا المكان الضيق الخالى من كل مقومات الحياة مخلفين وراءهم أموالهم وأهليهم وكل ما يملكون.



- ثم ضرب الله تعالى على أذانهم حجاباً ثقيلاً فصاروا لا يسمعون شيئاً يوقظهم، واستمروا فى نومهم العميق، وكان هذا هو الرحمة التى دعوا بها وطلبوها من الله.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾[الكهف].

ثم أيقظناهم من رقادهم الطويل لنعلم أى الحزبين أضبط فى مدة لبثهم فى الكهف.

- واختلف المفسرون فيمن هما الحزبان:

1) هل هم فريق من أهل الكهف وفريق من أهل المدينة الذين بعثوا فى عهدهم؟

2) أم الحزبان من أهل المدينة أحدهما كافر والآخر مؤمن؟

3) أو أن الحزبين كلاهما من فتية الكهف.. الفريق القائل (لبثنا يومًا أو بعض يوم) والفريق الآخر هم القائلون (ربكم أعلم بما لبثتم).

وهذه الآيات هى ملخص موجز للقصة (كالبرقية السريعة) ثم تبدأ الآيات فى التفصيل:

يقول الحق أنه سبحانه هو الذى سيقص ما حدث بالحق، بدون أى خطأ أو نسيان أو ترك لأى حدث، وكأنه يقول إن ما ذكره الناس عن هذه القصة من قبل كان بغير حق.

أما القصة الحقيقية فهى: إنهم فتية آمنوا بالله - فضحُّوا من أجله - فتولاهم الله برحمته ونور بصائرهم وزادهم الله ببركة هذا الإخلاص هداية على هدايتهم، ومن مظاهر هدايته لهم: أنه تعالى ربط على قلوبهم حتى تظل العقيدة والإيمان بالله بداخل قلوبهم لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث.. وذلك حين قاموا ووقفوا فى وجه ملكهم الجبار بثبات



وقوة ونبذهم ما يعبده قومهم، ونفوا عبادتهم لغير الله بحرف (لن) ليؤكد النفى لكل زمان ولكل مكان، ثم قولهم.. (ربنا رب السماوات والأرض) ← إشارة إلى توحيد الربوبية، (لن ندعوا من دونه إلهاً) ← إشارة إلى توحيد الألوهية، فإن ادعينا إلهاً من دون الله نكون ← قد تجاوزنا الحد وبعدنا عن الصواب كما فعل قومنا الذين عبدوا الأصنام فقد كذبوا بذلك على الله.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف].

أى وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان ← فالجأوا إلى الكهف وسيبسط عليكم ربكم رحمته ويسهل عليكم أسباب رزقه.

ونرى هنا أن فرار هؤلاء الفتية لم يكن إلى بلد آخر فيه متسع للحياة بل إلى كهف ضيق، ليس به أى مقوم من مقومات الحياة، لذلك قال بعدها.

(ينشر لكم) فالضيق يقابله السعة والبسط، هؤلاء الفتية هاجروا إلى الله وهم واثقون فى رحمته وأنه تعالى سوف يُوسّع عليهم برحمته هذا الضيق ← وقد وسعه عليهم فعلاً حين أنامهم فقد أغناهم بذلك عن كل مرافق الحياة؛ لأنهم إن ظلوا فى حالة اليقظة فلا بد أن يحتاجوا إلى مرافق للحياة (كالطعام وخلافه).

وبعد أن ضرب على آذانهم عصمهم من الأصوات التى تزعجهم، وتقلق نومهم، وأيضاً من ضوء الشمس.. ونحن نعلم أن الشمس لها مدار ثابت وقانون لا يتخلف لكن الله تعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى تميل عند طلوعها عن الكهف.. (من الزور أى الميل عن الحق) جهة اليمين، وإذا غربت الشمس تبعد عنهم جهة الشمال (وكلمة تقرضهم من القرض ← وهو أن تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه) فكأن الشمس عندما تبعد عنهم فى غروبها وشروقها حتى لا تصيبهم بأذى فهى تقرضهم

وتسلفهم شيئاً ليس من حقهم.. - ونلاحظ أن الحق جعل الفعل للشمس فى (تزاور، وتقرضهم) وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أن ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال . ولا شك أن هذه العملية مظهر من مظاهر قدرة الله ومعجزة من معجزاته، فلا يسأل أحد وكيف تميل الشمس أو تغير اتجاهها؟ ذلك لأن الخالق كما أعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به فهو قادر (بقيوميته) على أن يُغيّر ويُبطل ما يشاء من تلك القوانين.

ثم تأتى آية فيها قضية الهداية والضلالة وهى القضية التى طالما تناولها المستشرقون والفلاسفة وذوو النفوس الضعيفة بالمجادلة وأشاعوا سؤالاً هو [إذا كان الله هو الهادى والمضل فلماذا يعذبنى إن ضللت؟!] ونقول لكل مجادل لماذا قصرت الاعتراض على الضرر والعذاب ولم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت؟ أى أخذت الضرر وتركت المكسب ولا يترك ذلك إلا المسرفون على أنفسهم.

ونقول إن هداية الله نوعان:

هداية دلالة وإرشاد ← وهذه للجميع، للمؤمن وللكافر فمن يقبل على الإيمان به بعد أن علم بكل وسائل إدراكه، ومن الكتب والرسالات التى أرسلها الله مع رسله لترشد الجميع وترك الله كل الخلق أحراراً فى اختيار عقيدتهم، واختيار الطريق الذى يحلو لهم. فله أن يختار طريق الخير أو طريق الشر.. فمن يجده الله أهلا للمعونة ← يأخذ بيده ويعينه.

ويُعرف النوع الثانى من الهداية بـ[هداية المعونة] بأن يجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويشرح له صدره، وييسر له أمره. أما من اختار الضلال فالحق سبحانه يمنع عنه الهداية والمعونة.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾ [الكهف].



ومن يراهم يظن أنهم أيقاظ منتبهون مع أنهم نيام، وسبب ذلك أن عيونهم كانت مفتوحة، أى أن الله حفظهم على حال اليقظة وهيئتها، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يقلبهم فى نومهم مرة ناحية اليمين ومرة ناحية الشمال حتى لا تأكلهم الأرض أو تصاب أجسادهم بقرح الفراش.. وكلبهم جالس فى فناء الكهف قريباً من الباب ماداً ذراعيه وكأنه يحرسهم (وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب).

ثم بعثهم الله من رقودهم الطويل ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبوثهم فى الكهف وقد انقسموا إلى فريقين:

رد الفريق الأول بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى فقالوا (لبثنا يوماً) لظنهم أن الشمس قد غربت فلما رأوها لم تغرب قالوا (أو بعض يوم).. فهم وجدوا أنفسهم على نفس الحالة التى ناموا عليها.. فلم يتغير شكلهم ولا لون شعرهم.

لا شك أننا أمام آية من آيات الله التى لا يقدر عليها إلا مالك الزمان والمكان القابض للزمان والباسط له (فسبحان الله الذى يجمع الشيء وضده فى آن واحد).

ثم رد الفريق الثانى ← أن ربكم وحده هو الأعلم بالمدة التى قضيناها.

وقد استدل (ابن عباس) على أن عدد الفتية (سبعة) بهذه الآية:

لأنه قد سأل (فى الآية) عن المدة ← واحدا منهم، ثم قالوا فى الجواب: لبثنا يوماً وهذا القول من جمع.. والجمع أقله ثلاثة.. ومع إضافة السائل فهم يصيرون أربعة... ثم رد عليهم الفريق الثانى وهم أيضاً جمع أقله ثلاثة فصاروا سبعة.

ثم قال أحدهم: كُفّوا عن هذا الجدل، وابعثوا أحدكم (بورقكم) (وهى الدراهم المضروبة من الفضة) إلى المدينة ليشترى لنا طعاماً. فهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية وعادوا إلى طبيعتهم لذلك طلبوا الطعام.. ولكن نلاحظ أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام بل هم حريصون على اختيار الطعام الطاهر الذكى أبعد ما يكون عن الحرام، كذلك لم يفتهم أن يكونوا على حذر من قوتهم.. فمن سيذهب للشراء عليه أن يدخل المدينة خلسة بحيث أن لا يراه أحد حتى لا يحاولوا إعادتهم إلى ملّتهم الباطلة التى نجاهم الله منها.



﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف].

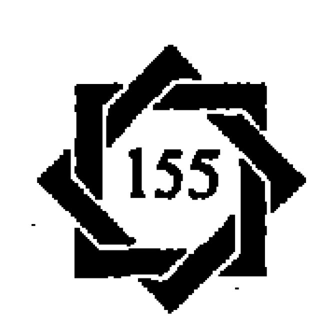
هذا بيان للحكمة التى من أجلها أطلع الله تعالى الناس على هؤلاء الفتية.. فيكون المعنى:

وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة بعثناهم هذا البعث الخاص ليعلم الناس عن طريق المعاينة (أن وعد الله حق) أى وعد الله بالبعث صدق وأن القيامة آتية لا ريب فيها.. فمن كان قادراً على إنامتهم تلك المدة الطويلة، ثم على بعثهم بعد ذلك، لقادر على إعادة الحياة إلى الموتى وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء ← وهذا رد على إنكار اليهود للبعث – وعلى قول النصارى بأن الأرواح هى التى تبعث ولكن الأجساد لا تبعث ← فبعث الله أهل الكهف ليكونوا حجة ودلالة على ذلك.

ذهب الذى أرسلوه بالدراهم إلى بائع ليشترى الطعام فلما رأى البائع النقود أنكرها لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد، فأخذوه عند الملك، وقصَّ عليه قصتهم، فُسرّ الملك به وذهب معه إلى الكهف وبعد أن رآهم وسلم عليهم أماتهم الله.

ثم بيَّن سبحانه ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم.. فلقد تنازع الذين عثروا عليهم وتخاصموا فيما بينهم حيث إن بعضهم كان مؤمناً بالبعث (الأرواح والأجساد)، وبعضهم كان مؤمنًا ببعث الأرواح فقط.. فأراد المؤمنون أن يحافظوا على هذه الآية الإلهية فقالوا: ابنوا على هؤلاء الفتية بنياناً يسترهم، فعارضهم الآخرون – وهم الغالبون على أمرهم – أى أصحاب الكلمة النافذة فقالوا: نجعل هذا البنيان مسجداً، أى معبداً نتبرك بهم.. وهكذا كان يفعل المشركون من قبلهم.. إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً له، وبذلك يبدأ الشرك. لذلك نهى النبى ﷺ عن هذا الفعل قائلاً: [لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد].

[لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد]



ثم تحدث الحق بعد ذلك عن الاختلافات التى نشأت من فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف فقال تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف].

اختلف الناس فى عدد أهل الكهف. فمنهم من قال إنهم ثلاثة، ومنهم من قال إنهم خمسة. وعلّق الحق على هذا القول بأنه (رجماً بالغيب) أى قول بلا علم مما يدل على خطئه، ومنهم من قال إنهم سبعة ولم يُعلّق القرآن على هذا القول مما يدل على أنه أقرب للصواب. ولم يبين لنا الحق عددهم الحقيقى وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه، ولا نبحث فى أمر لا طائل منه ولا فائدة فهو (علم لا ينفع وجهل لا يضر) فالمهم هنا هو العظة والعبرة من القصة ← وهى أنهم فتية أشداء فى دينهم فرّوا وضحّوا فى سبيل الله حتى لا يفتنهم أهل الكفر.. أما فرعيات القصة فهى أمور ثانوية لا تقدم ولا تؤخر، لذلك نهى الله تعالى رسولهﷺ عن الجدال المتعمق فى شأنهم، كما نهى عن استفتاء أحد فى أمرهم.

ولذلك يجب أن نعلم أن القصص القرآنى حين يُبهم الشخصيات فإن ذلك عين البيان فلا تتحدد القصة فى مكان أو زمان معين أو أشخاص بذاتهم لتشيع القصة فى كل زمان ومكان وكل شخص يفعل مثل ما فعلوا.

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف].

وهذه الآية تعطينا لقطة من التفاصيل التى أعطاها الله تعالى لرسوله عن أهل الكهف.. أنهم مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة عام بالحساب الشمسى وهذا قول أهل الكتاب (وازدادوا تسعاً) ← بالحساب القمرى.. فالفرق بينهما 11 يومًا تقريباً فى كل عام = أى ثلاث سنوات كل مائة عام.. [وذلك لأن الله تعالى جعل الشمس لحساب اليوم بالشروق والغروب ولكنها لا تدلنا على بداية الشهر.. وجعل الشهر مرتبطاً بالقمر الذى يظهر هلاله أول كل شهر.. وربط لنا توقيتات العبادات الإسلامية بالأهلّة حتى تدور العبادات على



مدار العام، فتأتى العبادات مرة فى الصيف، ومرة فى الشتاء، فيؤدى كل إنسان العبادات فى الوقت الذى يناسبه لذلك قالوا: [يا زمن وفيك كل زمن].. ولكى يظل الله يُعبد على مدار اليوم فى كل مكان.

ثم تنتقل الآيات إلى السؤال الثانى من الأسئلة الثلاثة التى سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود.. وهو السؤال عن الرجل الطواف الذى طاف من مشارق الأرض إلى مغاربها:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف].

- ويعطف الحق هذه القصة على القصة السابقة وهو يجيب على السؤال الثانى الخاص برجل لقبه هو (ذو القرنين) وقد اختلف فى شأنه المفسرون اختلافاً كبيراً فمنهم من قال:

1) أنه كان رجلاً من أهل مصر اسمه (مرذبان ابن مرذبة) اليونانى من ولد (يونان ابن نافث بن نوح).. وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليه واسمه (الإسكندر) الأكبر المقدونى وسُمى (ذو القرنين) لأنه بلغ قرنى الشمس فجاب الأرض من مشرقها إلى مغربها.. ويرد البعض على هذا التفسير أن من يتحدث عنه القرآن كان مؤمناً بالله وبالبعث أما الإسكندر فكان تلميذاً لأرسطو - وكانا وثنيين.. ومنهم من قال:

2) إنه كان أحد ملوك اليمن من قبيلة (حِمْيَر) من أحد تبابعة اليمن خاصة وأن ملوك اليمن كانوا يُلقبّون بكلمة (ذى) كذى نواس، وذى يزن.

وهو الذى افتخر به تُبّع اليمن حيث قال:



قد كـان ذو القرنين جـدى مسلماً	ملكاً عـلا فى الأرض غـير مفند
بلـغ المـغـارب والمـشـارق يبتغى	أسـبـاب ملك مـن حكيم مرشد

فهو عبد صالح ولم يكن نبياً. جاء بعد موسى.. وعلى العموم ليس من صالح القصة حصرها فى شخص معين لأن التشخيص يضعف من تأثيرها لأنه يحصرها فى حادثة بعينها والحق يريد أن يضرب لنا مثلاً يعمُّ أى شخص مكّن له الله فى الأرض، ومنحه القوة، فماذا سيكون مسلكه؟ فلو حدد القرآن الشخص لقلنا إنه حدث فردى وتفقد القصة مغزاها فى التأسى بها، ولو كان فى تعيينه فائدة لعينه الله لنا فالاسم والزمان والمكان هو علم لا ينفع وجهل لا يضر. والمراد من القصة هو الذكرى والعبرة لمن يعتبر.

يبين الحق سبحانه وتعالى ما أعطاه لذى القرنين من نعم وتمكين بكل الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فقد أعطاه الله من كل شىء أراده فى الدنيا لتقوية ملكه أى كل الأسباب التى تدعم ملكه (فأتبع سبباً) ← أى اتبع السبب فهو لا يذهب لأى غاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له، فهو لم يركن إلى ما أعطاه الله ولم يتّكل، بل أراد أن يزيد فى تدعيم ملكه غرباً وشرقاً.. فاتجه غرباً حتى وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه فرأى الشمس (فى نظره) وكأنها تغرب فى عين فيها ماء وطين. وقال المحققون هذا عند موضع يسمى (أزمير) بتركيا. ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوماً يبدوا أنهم كانوا كفرة أو وثنيين ففوض له الله (عن طريق الإلهام).. والله لا يُفوّض إلا المأمون على التصرف:

إما أن يعذبهم بكفرهم ← بالقتل، أو يتخذ فيهم أمراً حسناً حسب ما تقتضيه المصلحة.

فقد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة.. فيدعوهم إلى دين الله ويبين لهم الصواب -فمن آمن منهم ← يحسن إليه، ومن أصر على كفره يعذبه.

ثم حكى الله تعالى عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره حيث رد على تخييره له فى شأن هؤلاء القوم فقال: من ظلم نفسه وأصر على الكفر فسوف أعذبه فى الدنيا.



ثم يُردّ هذا الظالم إلى ربه فيعذبه فى الآخره عذاباً فظيعاً، وأما من آمن وعمل صالحاً فله فى الدارين الجزاء الحسن. وسيقول له - مما يأمره به، ويدعوه إليه ← قولاً يسيراً لا مشقة ولا صعوبة فيه.

وهكذا يكون الحاكم الصالح فى كل مكان وزمان يدعو أولا بالعظة الحسنة والبيان الواضح، ثم يعطى مدة كافية تُمكّن من فهم مطلوبات الدين. ولذلك يقول (فسوف) ثم يقول: ولن يُعذب على قدر ما فعل. من ظلم لنفسه ولربه بل يعذبه بعقوبة دنيوية فقط (دون القتل)، فالعقوبات الدنيوية شُرّعت لحفظ توازن المجتمع وردع من لا يرتدع بالموعظة، وبعد عذاب الدنيا هناك عذاب أشد فى الآخرة - عذاباً نكراً أى لا نعرفه وفوق مداركنا وإمكاناتنا.

وأما المؤمن فيعطيه الجزاء الحسن الذى يُشجّعه ويُحفّزه ولا يكلف إلا بالأمر اليسير.

وهذه الآية هى أساس ميزان أى مجتمع وسبب نهضته واستقراره فمجتمع بلا عقوبات للمُقصّر أو مكافآت للمُجد ينتهى إلى الفوضى والتسيب، فلا بد من العقاب للمتكاسل والجوائز لا يظفر بها إلا من يعمل ويجد.

(ثم أتبع سبباً) ← أى ذهب إلى مكان آخر.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف].

وبعد أن بلغ مغرب الشمس رجع ثم ذهب شرقاً حتى بلغ منتهى الأرض المعمورة شرقاً فى زمنه، وهناك وجد الشمس تطلع على قوم ليس لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء، أو الباس، فهم قوم عراة يسكنون الكهوف. وهؤلاء قوم بدائيون يعيشون عراة كبعض القبائل فى جنوب شرق آسيا مثلاً، أو ليس عندهم ما يسترهم مثل بيوت يسكنونها أو الأشجار يستظلون بها. ومثل هؤلاء يعطيهم الله فى جلودهم ما يعوضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها فيجعل جلودهم تتكيف مع بيئتهم.



والقرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ولا ما فعله ذو القرنين معهم، وإن قسنا الأمر على القوم السابقين لتوقعنا أنه ربما حضرهم، ووفر لهم أسباب الرُّقى، أو أنه علّمهم أن الملابس زينة وستر العورة وعلّمهم استخدامها.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ [الكهف].

و(كذلك) كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق وقد أحطنا إحاطة تامة وعلماً شاملاً لكل ما لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات وكل ما يفعل وأين يذهب؟

(ثم أتبع سبباً) ← ثم ذهب إلى مكان آخر.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف].

وبعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها، سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب فيه جبلان بينهما ثغرة.. ويقال إنهما من جهة أرمينيا وأذربيجان، ومن ورائها أمة من الناس لا يكادون يعرفون الكلام ولا يفقهون القول - لقلة فطنتهم... لم ينف عنهم مطلق الفهم بل مجرد القرب من الفهم، ولا يعرف الناس أيضاً ما يقوله هؤلاء القوم لشدة عُجمتهم.. ويبدو أن ذا القرنين خاطبهم بلغة الإشارة واحتال بالحركات حتى يفهم ما يريدون.. ولا شك أنه احتاج صبراً وجهداً حتى يفهم منهم ويفهمهم.. فهو حريص على عمل الخير ولا يألو جهداً فى نفع القوم وهدايتهم.

قالوا له إن يأجوج ومأجوج (وهم قوم خلف السدين) ينفذان إليهم من هذه الفجوة فيؤذونهم ويعتدون عليهم، لذلك عرضوا عليه (خراجاً) أى أجراً من أموالهم على أن يسدّ لهم هذه الفجوة فلا ينفذ إليهم أعداؤهم ويحول بينهما.



فيرد عليهم ذو القرنين (قال ما مكنى فيه ربى خير) ← رداً يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق.. ثم يأمرهم بثلاثة أوامر:

(1) (فأعينونى بقوة) ← هو فى حاجة إلى الطاقة البشرية وآلات البناء ليجعل بينهما (ردماً) ولم يقل (سداً) لأن السد يكون أصمَّ - فإذا حصلت رجة من ناحية ترج الناحية الأخرى... أما الردم فيكون من الحجارة المرصوصة ثم يوضع بينها التراب ليكون البناء مرناً لا يتأثر بالهزات العنيفة - لأن التراب يمتص الصدمات.. ثم الأمر الثانى:

(2) **(آتونى زبر الحديد)** ← أى اجمعوا لى القطع الكبيرة من الحديد. الكلمة مثل (الزبور = الكتاب الكبير).

(حتى إذا ساوى بين الصدفين) ← أى بين جانبى الجبلين (لأنهما متصادفان أى متقابلان).

(قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً) ← أوقد النار فى الحديد وقال انفخوا فيها حتى يسخن الحديد ويلين.

(3) ثم **(آتونى أفرغ عليه قطراً)** ← وهو النحاس المذاب حتى صار يقطر كالماء فأفرغه على قطع الحديد الساخنة فإن سبك الحديد الملتهب مع النحاس المذاب أصبح حائطاً صلبًا وأملس.

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) ←

فلم يستطيعوا أن يتسلقوه - لأنه ناعم أملس ليس به ما يمكن الإمساك به ولم يستطيعوا أن يخرقوه لصلابته وثخانته.. - ونلاحظ أنه قال فى الأولى (فما اسطاعوا) ← الصعود إلى أعلاه وفى الثانية قال (وما استطاعوا) ← لأن العمل الثانى أكثر صعوبة فهو أشق من الأول - فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف. (كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى).

وبعد ذلك لم يفت ذا القرنين - الرجل الصالح - أن يسند النعمة إلى المنعم الأعلى، وأن يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أوامر الله.



﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف].

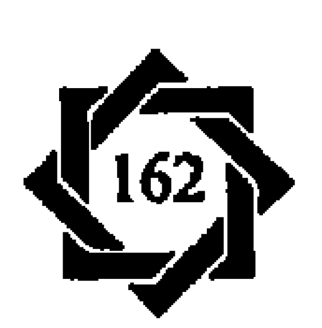
لأننى أخذت المقومات التى منحنى الله إياها (الفكر، والطاقة، والقوة، والثروة...) ثم استخدمتها فى خدمة عباده... - ثم يقول (ذو القرنين) ولكن إياكم أن تظنوا أن صلابة هذا السد ومتانته خالدة - فهو عمل للدنيا فحسب فإذا جاء وعد الآخرة جعله الله دكاً وسواه بالأرض - وذلك لكى لا يغتروا به أو يتمردوا على غيرهم بعد أن كانوا مستذلين مستضعفين وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء..

والتحقيق الأخير لهذا السد أنه ← يقع فى مكان اسمه (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود ويقولون إن صاحب هذا البناء هو (قورش) الذى استطاع أن يسقط ثلاث إمبراطوريات (الامبراطورية الفارسية القديمة، والتركية، والبابلية فى العراق وسوريا وفلسطين)، ثم استطاع أن يُوحّد معظم دول العالم القديم فى دولة واحدة تمتد من الهند إلى البحر المتوسط، وتناول حياته المؤرخ الإغريقى (هيرو دوت): بأنه تولى العرش بعد وفاة أبيه (قمبيز الأول) ثم بدأت حروبه وتوسعاته العسكرية حتى بلغ حكمه مشارق الأرض ومغاربها ثم اتجه إلى الشمال (مناطق القوقاز وأذربيجان) ولكنهم هزموه وقتلوه فخلفه ابنه (قمبيز الثانى) فهزم هذه القبائل واستولى على مصر فأصبح الشرق الأوسط كله جزءًا من ملكه... عرف (قورش) بالتسامح الدينى وهو الذى أعاد بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد الأسر البابلى وأعطاهم الحق فى بناء الهيكل، ولولاه لانقرض هذا الجنس تماماً من العالم فى القرن الخامس قبل الميلاد... واستمرت إمبراطوريته بعده قرنين من الزمان حتى غزاها الإسكندر الأكبر وفرّقها.

يقال إن ملوك الدنيا كانوا اثنين مؤمنين: هما (سليمان وذو القرنين) واثنين كافرين: هما (النمرود وبختنصر).

الرد على السؤال الثالث: [عن أمر الروح]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].



هذا السؤال أرادوا به اختبار رسول الله ﷺ، هم يعلمون أن الروح لا يعلمها أحد لكنهم أرادوا الكيد له ← لأن الإنسان - عمومًا - يحب أن يظهر في مظهر العالم، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره.. فاستغلوا هذه الفطرة - فلعله يقول في الروح كلاماً يُؤخذ عليه - فهو لن يُصغّر نفسه أمام السائلين، وسوف يُحاول الإجابة على سؤالهم.. ولكن خيَّب الله سعيهم، فكانت الإجابة هي.. لا أعلم؛ فالروح من أمر الله فقط، لا يعلمها إلا هو! وعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة - وما قبلها - آمن كثيرون منهم لمطابقة هذه الإجابات لما في كتبهم.

وكلمة (روح) ← لها معانٍ متعددة.. منها:

1) **هي الروح التي تمد الجسم بالحياة إذا اتصلت به كما في قوله تعالى:**

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر].

فإذا ما فارقت هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة.

2) وقد تأتي كلمة (الروح) ويقصد بها أمين الوحي في السماء - جبريل عليه السلام كما في قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء].

3) وقد تطلق الروح على الوحي ذاته.. كما في قوله تعالى: ﴿ ... وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى].

4) وتأتي بمعنى التثبيت والقوة.. كما في قوله تعالى: ﴿ ... أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

5) وأطلقت الروح على عيسى بن مريم.. في قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء].

إذا فهناك روح تعطي مادية الحياة، وهناك روح تُعدّل قيم الحياة وهي روح الروح لأن الروح الأولى قصارها الدنيا لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخرة؛ لأن روح الدنيا عُرضة لأن تؤخذ في أي مرحلة من مراحل الحياة. أما روح الآخرة فهي الأبقى



لأنها لا يعتريها الموت ولذلك سُمى القرآن، والملك النازل به روحاً، لأنه يعطى حياة أطول هى حياة القيم فى الآخرة.... وهذا كله من خصوصيات الله سبحانه وأسراره التى لم يطلع أحد عليها وسيظل علم الإنسان قاصراً عن إدراك ماهيتها ولذلك يقول الحق.. ﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وتبين لقريش أنه على حق وصدق ولكن أبى الظالمون إلا كفوراً.

اشتد البلاء والعذاب على المسلمين وسطت عليهم عشائرهم فأخذوا يعذبونهم بالضرب والجوع خاصة المستضعفين منهم، وكان أبو بكر الصديق يشترى هؤلاء العبيد ويعتقهم حتى أعتق منهم سبع رقاب منهم (بلال، وزنيرة، وعامر بن فهيرة...) حتى إن أباه (أبا قحافة) قال له: إنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلم لا تعتق رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون لك؟ فقال أبو بكر: إنما أفعل ذلك لوجه الله.. فنزلت فيه آيات:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل].

وهذه هى السورة التاسعة فى النزول.. وفيها يقسم الحق تعالى بالليل، والنهار، وبذاته العظيمة حيث خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وجواب القسم ← أن أعمال الناس ومساعيها فى هذه الحياة لهى متفرقة ومختلفة فأما من ينفق ماله فى وجوه الخير ← كإعتاق الرقاب ومساعدة المحتاجين فسيوفقه إلى الأعمال الصالحة التى تؤدى إلى الجنة. ومن لم يبذل شيئاً فى وجوه البرّ وآثر متع الدنيا، وكذّب بالحق فسيهيئه للأعمال التى تكون عاقبتها الخسران (وهى النار).

ووصف الحق المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هى (جماع كل الخير) وهى: السخاء - والخوف من الله - والتصديق بكل ما يجب التصديق به.



أما أهل الكفر والفسوق فلهم ثلاث صفات هى أساس البلاء وهى: البخل- الغرور- والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به.. ولا يغنى شيئا عن هؤلاء الأشقياء إذا ترددوا وهو السقوط من أعلى إلى أسفل - والمراد به هنا النزول إلى القبر بعد الموت. أو السقوط فى النار.. لن يغنى عنهم لا مال ولا جاه عن السقوط فى النار يوم القيامة.

ثم يبين سبحانه أنه قد أعذر إلى عباده - حيث وضح لهم طريق الخير وطريق الشر وكشف لهم عن حسن عاقبة من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فقال تعالى.. إن عليه سبحانه أن يبين لهم طريق الحق وطريق الباطل (بواسطة الرسل) فمن يشاء بعد ذلك فليؤمن فينال الثواب ومن شاء بعد ذلك فليكفر فيحل به العقاب؛ لأنه تعالى سيجازى كل إنسان على حسب عمله بعد أن هدى الجميع إلى طريقى الخير والشر.. ويقول الحق:

(فأنذرتكم ناراً تلظى) ← وأصلها (تتلظى) وحذفت إحدى التاءين للتخفيف.

فيكون بذلك قد حذرهم من عذاب يوم القيامة، ومن السقوط فى النار التى لا يحترق بها إلا الكافر.. هذا الكافر الذى كذب بالحق وأعرض عن الطاعة حتى أدركه الموت.. أما الأتقى فـ (سيجنبها) ← أى سيبتعد عنها ابتعاداً تاماً بحيث تكون النار فى جانب وهو فى الجانب الآخر.

ثم وصف الحق هذا الإنسان البالغ فى تقواه وطاعته لربه فقال: إن من صفاته أنه يقدم ماله وينفقه فى وجوه البر والطاعة رجاء أن يكون عند ربه زاكياً نامياً خالياً من شبهة الرياء والتفاخر فهو لا يفعل ذلك من أجل المجازاة لغيره على نعمة سلفت من هذا الغير له وإنما من أجل شىء واحد وهو طلب رضا الله والظفر بثوابه، ثم يعده الحق وعداً صادقاً بأنه سوف يعطيه ما يرضيه ويشرح صدره.

هذه الآيات نزلت فى (أبى بكر) لعتقه العبيد المستضعفين.

لم ير رسول الله ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.



استعد المسلمون للهجرة مرة أخرى وعلى نطاق واسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ولكن الله يسرها لهم وأخذوا يستعدون للرحيل وكان عددهم فى هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمانى عشرة امرأة... وأثناء أجواء استعداد الصحابة للرحيل نزلت (سورة مريم) لتُعرّفهم بالدين المسيحى حيث إن ديانة أهل الحبشة هى المسيحية.

وسأتناول بعض آيات السورة بالتفسير.

اسم مريم تكرر فى القرآن ثلاثين مرة، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح لأن قصتها لن تتكرر مرة ثانية لذلك شخصها الحق باسمها واسم أبيها لأن ما حدث لها لن يحدث مرة أخرى، أما إذا كان الأمر عاماً يصح أن يتكرر فتأتى القصة دون تشخيص كما فى الحديث عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان، فالمراد فى هذه القصص بيان حرية العقيدة بصرف النظر عن الأشخاص.

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم].

[سورة مريم ص آية 6:2].

هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به، إذ تجلى الرحمن عليه ووهب له ابنه (يحيى) بعد أن دعاه زكريا بهذا الدعاء الخفى.. هذه القصة جاءت لإثبات طلاقة قدرة الله فى الخلق وأنه تعالى لا يخلق بالأسباب – لأنه هو خالق الأسباب – بل يخلق بإرادته وقدرته.. فهو تعالى قد خلق آدم بدون أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى من غير أب، وخلق الخلق جميعاً بتزاوج الذكر والأنثى، قد يوجد الرجل والمرأة لكن لا يتم الإنجاب بينهما وتتعطل فيهما الأسباب – حتى لا نعتمد على الأسباب أو نفتن فيها فهو تعالى:



﴿... يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ...﴾ [الشورى].

طلاقة القدرة في قصة زكريا (عليه السلام) تتجلى في أن الله تعالى استجاب لدعائه في أن يرزقه الولد عندما دعاه بأحسن ما يكون الدعاء (دعاءً خفياً) فخرق له الله الناموس والقانون.

(قال رب إنى وهن العظم منى) ←

وهذا هو الدعاء.. زكريا قال يا (رب) ولم يقل يا (الله) ← لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمن والكافر، أنه يطلب الولد وهذا من عطاء الرب (الرزاق). أما الدعاء بالله ففى أمور العبادة والتكليف.. ثم يقدم زكريا حيثيات هذا الطلب: أنه كبر وأصابه الضعف. حتى إن ما فى جسمه من شحم ولحم قد ذاب وأن آخر مخزن من مخازن القوت فى جسمه (عظمه) ضعف أيضاً.

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد (فهو حيثية باطنة) فأتى زكريا بحيثية أخرى ظاهرة وأمرها واضح فقال: (واشتعل الرأس شيباً) ← شبه انتشار الشيب فى رأسه باشتعال النار.. واشتعال الرأس بالشيب - أيضاً - دليل على ضعف الجسم ووهن قوته (فبياض الشعر دليل على ضعف أو نضوب الغدد التى تفرز اللون، فبصيلات الشعر التى تحتوى على المادة الملونة للشعر قد نضبت).. ثم يقول:

(ولم أكن بدعائك رب شقياً) ←

أى أننى كنت دائماً مستجاب الدعوة عندك، فكما أكرمتنى سابقاً بإجابة دعواتى - فلا تخلف عادتك معى هذه المرة واجعلنى سعيدًا بأن تحيينى، فأنا لا أريد أن أخرج من الدنيا إلاّ وأنا مطمئن على من يحمل المنهج بعدى.. ثم يذكر زكريا علة أخرى هى السبب فى الدعاء فيقول: (وإنى خفت الموالى من ورائى).

والموالى ← هم الأقارب الذين يأتون من بعده - الجيل الثانى من أبناء عمومته - يبدو أنه لم يأتمنهم على حمل منهج الله لأنه رأى من سلوكياتهم فى الحياة عدم أهليتهم لحمل هذه المهمة.. ثم يقول:



(وكانت امرأتى عاقراً) ←

وبعد أن وصف حاله من الضعف والكبر يخبر عن زوجته بأنها عاقر لا تلد، إذًا فأسباب الإنجاب جميعاً مُعطّلة.

(فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) ←

والهبة هى العطاء، بلا مقابل، فالأسباب هنا معطّلة: لذلك لم يقل: ارزقنى أو أعطنى ← لأن العطاء قد يكون عن مقابل أما فى هذه الحالة فالعطاء محض هبة؛ لأنه لا يملك الأسباب فـ (من لدنك) من عندك أنت لا بالأسباب.

هو يريد الولد الصالح ليحمل المنهج من بعده وهذا ما يعنيه بالميراث - فهو لا يعنى ميراث المال لأن الأنبياء لا يورثون، وما يتركونه من مال فهو صدقة من بعدهم - فالمراد هنا ميراث العلم والنبوة. ثم اجعله رب مرضياً عنه منك... ثم تأتى الاستجابة السريعة من الله:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾ [مريم].

سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه فجاءته الإجابة سريعة ببشارة من الله بأنه سيرزقه بغلام سماه الله بـ (يحيى) ← والاسم وضع للدلالة على المسمى، فإذا كان الله هو الذى سماه بيحيى (ضد الموت) فلابد أن يتحقق الاسم وينطبق عليه ولابد أن يتحقق مرادات الله فهو سبحانه القادر على أن يُحييه.. ولقد استدل أهل المعرفة من تسميته (يحيى) على أنه سيموت شهيداً ليظل حياً فى جنة المأوى إلى أن يلحق بجنة الخلد.

(لم نجعل له من قبل سمياً) ← أى لم يسبق (يحيى) أحد فى تسميته فهو أول من سمى بهذا الاسم.



ولما سمع زكريا هذه البشارة واطمأن إلى حصولها، أراد أن يعرف كيفية حدوثها. هو لم يستنكر حدوث هذه البشرى، ولا يستدرك على الله، ولكنه أراد أن يعرف الوسيلة التى ستحدث بها.. هل سيرده الله شاباً؟ أم هل سيزوجه من امرأة أخرى غير عقيمة؟ أم هل سيصلح له زوجته ويجعلها قادرة على الإنجاب؟ ثم يذكر زكريا حيثيات تعجبه.

(وكانت امرأتى عاقراً، وقد بلغت من الكبر عتياً) ←

والعتو ← هو القوة التى لا تقهر.. يريد أن الكبر والزمن قد قهره فالزمن لا يقهر ولا يستطيع أحد أن يقاومه مهما فعل.. فيرد عليه الحق قائلاً:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ ←

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التى لا تقف عند حد.. (كذلك) أى على نفس وضعك أنت وزوجتك، فلن يأتى (يحيى) بطريقة أخرى.. أنت ستظل كما أنت على ما أنت فيه من كبر، وستظل زوجتك كما هى عاقراً، ومع ذلك سأهب لك الولد، وذلك كله على الله هين فهو تعالى يقول للشىء كن فيكون.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

طلب زكريا من الله أن يعطيه علامة على أن امرأته قد حملت فى يحيى. هو يتعجل الأمور ولا صبر له حتى يرى مشاهد الحمل على امرأته بل يريد أن يعلم من أول لحظة حدث فيها الحمل.

فيجيبه الله ← إن العلامة أنك ستجد نفسك غير قادر على الكلام لمدة ثلاثة أيام مع سلامة جوارحك فلن تحدث أى علة (كخرس أو جرح يصيب لسانه) بل سيظل سليماً معافى لا نقص ولا قصور فى جوارحه، ولكنه فقط أمر تسخيرى من الله بعدم القدرة على الكلام مع بقاء الأسباب سليمة وصالحة (فاللسان موجود ولكنه غير قادر على النطق بالكلام).

(نتأمل طلاقة القدرة.. منع للكلام مع وجود الأسباب، وإعطاء للولد مع عدم وجود الأسباب).



حدثت هذه الحادثة وزكريا واقف يصلى فى المحراب:

و(المحراب) ← هو المكان الذى فيه يحارب الشيطان وفيه تكون العبادة.

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

خرج زكريا من المحراب إلى قومه، وقال لهم بطريق الإشارة بأن يُسبّحوا الله معه نهاراً وليلاً شكراً لله على نعمته.. فهذه النعمة ليست له وحده بل هى نعمة عامة للجميع.

ثم طوى القرآن تفاصيل الأحداث واختصر من القصة ما يُفهم من سياقها وانتقل السياق نقلة واسعة إلى الخطاب ليحيى بعد أن ولد وكبر وأصبح غلاماً قادراً على حمل المنهج.

[قصة يحيى]

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم].

كبر يحيى وأصبح أهلاً لحمل مهمة الدعوة.

(خذ الكتاب) ← وهو التوراة (وفيه منهج الله) بإخلاص وحرص على أن يعلم ما فيه من أحكام وأن يعمل بها.. فإن أمرك المنهج بفعل أمر أنت لا تفعله فأنت تحتاج إلى قوة تحركك إلى هذا الخير.. وإن نهاك المنهج عن فعل شر أنت تفعله فأنت فى حاجة إلى قوة تمنعك عنه وتوقف حركتك عن هذا الشر.. والمنهج هو هذه القوة التى تحركك إلى الخير أو تسكنك عن الشر... ثم يقول الحق:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ←

لقد حفظ التوراة وفهمها فى سن مبكر (أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين) فكان يقول للغلمان من أقرانه (ما للعب خلقنا اذهبوا نصلى).



﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم].

← وهبه الله تعالى حناناً منه وعطفًا شمله به لأنه جاء إلى الدنيا حال كبر والديه وضعفهما فكانت طاقة الحنان والمقدرة قد نضبت لديهما فعوضه الله بحنان من لدنه وعطف.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ ← أى جعله طاهراً من الذنوب معصوم من كافة الأخطاء.. فقد رسم الله له حركاته فى الحياة.

﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ← يجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية بالامتثال لأوامره ونواهيه.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ ← كان كثير البر والإحسان لوالديه.

(وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا ﴾ ← لم يكن مستكبرا متعاليا أو مغرورا.

﴿عَصِيًّا﴾ ولم يكن عاصياً لأوامر ربه.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ وقد خصه الله بالسلام يوم ولد، لأنه ولد على غير العادة فى الميلاد، فأمه كبيرة فى السن، وعاقر ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس.

﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ ← وخصه بالسلام يوم موته لأنه سيموت شهيداً، وسيقتل من أعدائه بطريقة بشعة، فسيعطيه الله حياة موصولة بالحياة الأبدية الخالدة.

﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ← أى يوم البعث سيرد إلى جنة الخلود.

ثم تأتى قصة [مريم] وميلاد عيسى – وإن كانت فى الواقع قد حدثت قبل قصة زكريا و(يحيى) لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأت هو به، وهو كافلها ومتولى أمرها. فقالت مريم:

﴿ ... هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران].



فنبهت هذه المقولة زكريا، فما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا لا يدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعده.

إذاً فمريم هى التى أوحت لزكريا بهذا الدعاء، واستجاب الله لزكريا ورزقه (يحيى) ليكون ذلك مقدمة لمريم وتمهيداً فلا تنزعج من عملها وترد هذه المسألة إلى أن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ ←

أى اذكر فى القرآن قصة مريم.. التى نذرتها أمها - وهى لا تزال فى بطنها - لخدمة بيت المقدس ولم يكن يصلح لهذا العمل إلا الذكور - فلما وضعتها أنثى جعلتها أمها وقفاً على سدانة المعبد وخدمته. ومات أبوها (كاهن بيت المقدس) فكفلها (زكريا) زوج أختها (أو خالتها).

﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ← والنبذ ← معناه الطرح والرمى، فكأنها ألقت بنفسها فى هذا المكان من الناحية الشرقية من البيت لتتفرغ للعبادة والتقرب إلى الله.. والنبذ والابتعاد لم يكن من عموم الناس بل من أهلها وأقرب الناس إليها.. ذهبت إلى المكان الذى تشرق فيه الشمس - لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس حيث تطلع الأنوار المادية (نور الشمس) فيضىء الكون، وهناك نور آخر معنوى - وهو نور المنهج الإلهى الذى يهدى إلى القيم وسيأتى به المسيح بعد ميلاده.. ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة لهم.



﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ ←

فاتخذت بينها وبين أهلها حجاباً وساتراً لتأكيد عزلتها حتى تتفرغ تماماً للعبادة.

﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ ←

والروح ← هو جبريل (عليه السلام) - تشبَّه لها فى صورة إنسان كامل البنية كأحسن ما يكون الإنسان وذلك لأنه يستحيل اللقاء بينهما إذا ظل على صورته الملائكية لأن لكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر.. لذلك تمثل جبريل فى صورة بشر لتأنس به ولا تفزع إن رأته على صورته الملائكية. جاء بصورة رجل وسيم ولكنها لم تبد به أى إعجاب ولم تتلطف إليه فى الحديث – لتثبت أنها العذراء العفيفة بل قالت له:

﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ ←

هذا القول دليل على طهارتها وعفتها واستقامتها.. لقد استعاذت واعتصمت بالله لأنها خافت أن يفتك بها أو يعتدى عليها لضعفها فهى تعلم أن التقىّ يخاف الله ويحترم الاستعاذة به.

وخصت الرحمن بالذكر ← لتثير مشاعر التقوى فى نفسه.. فمن شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله.

وبهذا القول تكون قد جمعت بين الاعتصام بالله وبين تخويفه من عذاب الرحمن واختارت الاستعاذة بالرحمن فإن لم يكن تقياً فلعله يبتعد عنها رحمة بها وبضعفها فلجأت إلى الرحمن ليحميها.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ ←

قال لها جبريل ليُدخِل السكون على قلبها إنه (رسول ربها) ولم يقل (رسول الله) لأن الرب هو الذى يتولى الرعاية والتربية وهو الذى يحرسها فلا تخاف ولا تجزع، وقد أرسله ليهب لها بقدرته غلاماً طاهراً.. ومن قوله نفهم أن ما سيحدث لمريم هبة محضة لا تخضع للأسباب.



- وهنا تزداد حيرة مريم ويشتد عجبها فتقول:

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ←

هذا على سبيل التعجب كيف يكون لى غلام؟ وأنا لم يمسسنى بشر من الرجال؟ لا بالزواج الشرعى ولا بأى صورة مُحرّمة؟ سواء بموافقتها أو غصباً عنها؟ (أى ليس فى الحلال ولا فى الحرام) ولم أكن فى يوم من الأيام بغياً؟ (أى فاجرة) تبغى الرجال أو يبغونها للزنا بها؟

(والمس) ← كناية عن الجماع - والمس فعل من طرف واحد، والملامسة هى المفاعلة بين اثنين.

(وبغياً) ← مبالغة فى البغى - لأن الاعتداء على العرض يناسبه المبالغة فى هذا الفعل.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ←

هذا رد جبريل قال: الأمر (كذلكِ) ← ونلاحظ أن كاف الخطاب (الأخيرة) تكسر فى خطاب المؤنث، وتفتح فى خطاب المذكر، لذلك كان نفس القول لزكريا (كذلكَ) بالفتح.

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ← هو بالنسبة لله يسير. لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال بالمعالجة والمزاولة وإنما بقوله تعالى (كنْ).

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ ←

ولنجعل هذا الغلام أمرًا عجيباً يخرج عن المألوف ← ليدل دلالة واضحة على طلاقة قدرة الله أمام الناس جميعاً.. فكما لم يعجزه أن يخلق بشراً (آدم) من غير أب ولا أم،كذلك يخلق عيسى من غير أب.



﴿ وَرَحۡمَةً مِّنَّا ﴾ ←

ووجه الرحمة فى خلق عيسى على هذه الصورة، أنه سبحانه يرحم الناس من أن يشكّوا فى أن قدرة الله متوقفة على الأسباب فيؤكد الواقع أن الخلق قد يأتى من شىء أو من بعض شىء أو من لا شىء.

وأيضاً يجعل هذا الغلام الذى وهبه لك من غير أب ← رحمة عظيمة لمن يؤمن به ويتبع دعوته.

﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ ← أى مقدراً أزلاً، مسطوراً فى اللوح المحفوظ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل. فإياك أن تناقشى فى كيفيتها. لأن الكلام من الله فإن قال فقوله حق وواقع.

وجاء الفعل بصيغة الماضى ليدل على أن الفعل موجود أزلاً وقبل أن يخلق الخلق.

﴿ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم].

استسلمت مريم لقضاء الله... وعند ذلك نفخ جبريل فى جيب درعها فحملت بالولد بإذن الله.. حملت به كما تحمل النساء – تسعة أشهر – ولما أحست بالحمل. تنحت به وهو فى بطنها وابتعدت إلى مكان بعيد شرقياً. وهذا الابتعاد غير الابتعاد الأول الذى كان للخلوة، والعبادة.

ابتعدت للمرة الثانية بعيدا عن المكان الذى يسكنه أهلها خشية من أعين الناس وفضولهم وكان هذا المكان القصىّ هو (بيت لحم) بفلسطين فرارًا من قومها.



﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ ←

والفعل (جاء فلان) ← يكون باختياره ورضاه، أما الفعل (أجاءه) - فيكون جاء به رغماً عنه ودون إرادته - أى حُمل واضطُرّ على المجىء. مثل (أجاءته المخافة والرجاء) بمعنى الإلجاء... فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جذع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رغماً عنها.. أى جاء بها.

وكأن هناك قوة خارجة عنها تشدها إلى جذع النخلة لتتكئ عليه وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع.. (وجاءت النخلة مُعرّفة لأنها نخلة معلومة).

أصبحت مريم الآن أمام واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه فاعتراها هم وحزن فقالت:

﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ ←

تمنت لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب.. مع أن الملك كان قد أخبرها بأن الله تعالى سيهب لها غلاماً زكياً ومع ذلك تمنت الموت استحياءً وخوفاً من الناس.

مع أن الله نهانا عن تمنى الموت لضرر نزل بنا كمرض أو فقر.. لذلك يرشدنا النبى إلى ماذا نقول إذا ضاقت بنا الحياة:

[اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى].

فمريم لم تتمن الموت اعتراضاً على قدر الله ولكنها تمنته لأنها تعلم أنها ستصير إلى خير مما هى فيه.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ ←

يرى بعض المفسرين: أن الذى ناداها هو جبريل.. ناداها من مكان أسفل منها.

ويرى البعض الآخر: أن المنادى هو عيسى (عليه السلام) عندما وضعته.. وهذا القول أقرب إلى الصواب. لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة فيه إدخال السكينة على قلبها.



وناداها قائلاً: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ ← لأنها فى حالة ولادة وليس معها من يساعدها أو يحضر لها ما يقيتها من الطعام والشراب.

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ ←

جعل الله تحتها نهرًا يجرى فيه الماء العذب لتشرب.

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ ←

ثم أمرها الله تعالى على لسان مولودها بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب وهكذا وفَّر الحق لها مقومات الحياة مرتبة على حسب أهميتها للإنسان: الهواء، والشراب، والطعام وجعلها فى متناول يدها.. وأراد الحق أن يظهر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أن تهز جذع النخلة اليابس الذى لا يستطيع الرجل القوى هزَّه.. فما بال هذه الضعيفة التى تعانى آلام الولادة؟ كما أن الحق سبحانه قادر على أن ينزل لها طعامها دون جهد منها ودون هزها. إنما أراد الحق شيئين:

الأخذ بالأسباب فى طلب الرزق. مهما كان الإنسان ضعيفاً.

والاعتماد على المسبب، وهو سبحانه الذى أنزل لها الرطب ناضجاً.. ومريم لم تستطع هز الجذع الكبير اليابس ولكنها كانت تشير إليه امتثالاً لأمر الله، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ناضجاً صالحاً للأكل.

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ ←

نلاحظ أن الحق قد أتى بالماء أولا وجعله تحتها سرياً ← لأن الماء أولى من الطعام فى احتياج الإنسان.. ثم أتى بالطعام ثانياً... أما عند الأمر بالانتفاع قال ابدأى الطعام ثم اشربى. لأن الإنسان عادة يأكل أولا ثم يشرب بعده؛وبعد أن وفَّر لها مقومات الحياة. من القوت أعطاها بعد ذلك السكينة والاطمئنان وخفف عنها الألم النفسى بأن تقر عينها. وسكون العين دليل على أن العين رأت ما يسرها فلا تتحرك عنه. فكونى سعيدة باصطفاء الله لك فالذى يحزنك هو عين النعمة التى ليست لأحد غيرك.



﴿... فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم].

← يأمرها الحق بأن تلتزم الصمت ولا تكلم أحداً - كائناً من كان - بل تصوم عن الكلام (كما حدث مع زكريا ولكن بدون تعطل القدرة على الكلام) - وكان جبريل معها طول الوقت يكلمها.. وهى كانت واثقة أن الله سينطق الوليد ليدافع عن أمه أمام اتهامات قومها وبذلك تكون حجته أقوى من حجتها - لقد اطمأنت مريم إلى هذه المعجزة عندما ناداها من تحتها - ووثقت تماما أنها حين تشير إليه سيتكلم ويرد عنها الحرج. لأن الكلام ممن يقدر على الكلام لا يأتى بحجة تقنع الناس. أما حين يتكلم وهو فى المهد فهذا يعنى أنه معجزة خارقة للعادة.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم]. ←

وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى اطمأنت نفسها وقرَّت عينها فأتت به إلى قومها وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها. وكان هذا بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها. ونعجب من فعل السيدة مريم. حيث أتت به من غير طلب منهم أو خجل. فبدل من أن تستتر بوليدها من أعين الناس فهى تبادر به قومها.

وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها فى الحجة التى معها.

[لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام (محمد عبده) فى باريس: بأى وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك؟ (هم يعلمون أنه إفك لكنهم يرددونه بلا فهم).. فأجاب الشيخ ببساطة: بنفس الوجه الذى قابلت به مريم قومها وهى تحمل وليدها.. أى بوجه الواثق من البراءة المطمئن إلى تأييد الله]... فلما رآها القوم قالوا فيها قولاً غليظاً:

﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ←

قالوا هذا على سبيل الإنكار لقد فعلت شيئاً منكراً (فقد جئتِ بولد عن طريق غير شرعى).. لقد قالوا على مريم بهتاناً عظيماً... ثم قالوا لها:



﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم].

أخذوا يعيروها بكلام جارح.. ما كان أبوك رجلاً معروفاً بالفحش. وما كانت أمك تتعاطى الزنا والفجور.. فأنت من بيت معروف عنه الصلاح والطهر فمن أين لك هذه الصفة؟

وليس المراد بهارون هنا (هارون بن عمران) أخا موسى. لأن موسى كان قبل عيسى بحوالى ستة قرون ولكن هم كانوا يُسمون الرجال بأسماء الأنبياء والصالحين تبركاً بهم.. فهم يشبهونها به تهكماً فهم يتعجبون منها حيث انحدرت من أصول طاهرة ومع ذلك تأتى بالفاحشة.

(وهذا دليل على أن سلوك الأسرة يؤثر فى الأبناء).

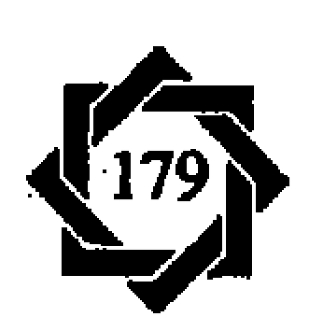
وهنا تبدأ مريم فى الدفاع عن نفسها عن طريق وليدها:

﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم].

أشارت إلى ابنها وهى واثقة أنها تحمل دليل براءتها. وقالت: اسألوه: فاستنكروا ذلك.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم].

أنطق الله تعالى عيسى فرد على المنكرين مستهلاً كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى فأول كلمة نطق بها عيسى هى أنه عبد الله ← وذلك تحذيراً لمن يصفه بعد ذلك بأنه هو الله، أو ابن الله، أو هو مشارك له فى العبادة.. فالمعجزة التى جاءت به لا تمنع كونه عبدًا لله.. لذلك لا يعترف النصارى بهذه اللقطة من حياة عيسى ولا يعترفون بقوله هذا، أو أنه نطق فى المهد لأن قوله هذا ينفى معتقدهم من أساسه.. ويقول ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ← فعل ماض مع أن الكتاب لم يأت بعد.. فهو ملقن له، لقنه ربه الكتاب بالفعل وإن لم يأت الذى يبلغه للناس بعد.. (وهذا التعبير فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل ← تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى) مثل قوله تعالى:



﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾[النحل].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[الزمر].

فالأمر لم يأت بعد ولكن الله تعالى يحكى عنه كأنه حدث بالفعل فهو موجود فى اللوح المحفوظ.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ ← أدعو الناس إلى عبادته وحده ويجانب ذلك:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ [مريم].

وجعلنى أيضاً مباركاً كثير الخير أينما حللت، وأوصانى بالمحافظة على الصلاة والزكاه فى هذه الدنيا.

ثم كرر بره بوالدته حتى لا يظن أحد أنه حينما يكبر ويعرف قصته أن أمه أتت به من غير أب ومن غير زواج فقد يساوره الشك فى أمه.. فأراد أن يقطع كل هذه الظنون. فجعله هو نفسه الشاهد على براءة أمه وأنه سيظل مطيعاً لها وباراً ومحسناً لها.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾[مريم].

والأمان علىّ (يوم ولدت) ← فقد مرّ هذا اليوم بسلام رغم ما فيه من أحداث، فلم يتعرض له أحد بسوء وهو الوليد الذى جاء من دون أب، ولا لأمه.

﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾ لأنهم أخذوه ليصلبوه فألقى الله هيئته على شخص آخر ورفعه إليه إلى السماء فنجا بذلك من أيديهم.

﴿وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ ويوم يقوم الرسل على رؤوس الأشهاد يسألهم الله عما أجيبوا من أقوالهم سيسأل عيسى سؤالاً آخر ويناقشه الله فيما قال لقومه وفيما فعل قومه من بعده.

(هذا الحوار فى سورة المائدة آية 117) فيقول عيسى رداً على أسئلة الحق:



﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة].

والله تعالى يعلم ما قاله ولكنه سبحانه أراد توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ليكون فعلهم حجة عليهم يوم مناقشة الأعمال.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم].

ثم ختم هذه القصة ببيان وجه الحق فيها فيقول تعالى: أن ذلك الذى ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق الذى لا شك فى صدقه وإن تنازع فيه الضالون واختلفوا فيه بالجدال والكذب الباطل، فلا تلتفت إلى أقاويلهم وكفرهم وخذ ما أخبرتك به فهو الحق واتركهم فى طغيانهم يعمهون.

هجرة أبى بكر الصديق الأولى إلى الحبشة

لما رأى أبو بكر الصديق اشتداد ضغط المشركين عليهم وأنه لم يعد قادرًا على أن يدافع عن أحد من المسلمين، وأن عددًا كبيرًا من المسلمين قد هاجروا إلى الحبشة قرر أن يهاجر معهم فاستأذن الرسول فأذن له، فخرج حتى سار مسافة قرابة اليومين، فقابله (ابن الدُغنّة) وهو يومها سيد الأحابيش وهم [بنو الحارث، وبنو خزيمة، وبنو المصطلق] تحالفوا بوادٍ يقال له الأحبش ببطن مكة – فقيل لهم الأحابيش.. ولما عرف أن أبا بكر مهاجر استوقفه عن الهجرة وقال له ارجع وأنت فى جوارى.. فرجع معه إلى مكة وأعلن أن (ابن قحافة) فى جواره فلا يتعرض له أحد بسوء..، وكان (لأبى بكر) مسجد عند باب داره يصلى فيه ويقرأ القرآن فيبكى فيقف عنده الناس يعجبون من هيئته وبكائه وقراءته، وبلغ قريشاً ذلك.. فأتوا إلى (ابن الدغنة) واشتكوا إليه ذلك.. فذهب إلى أبى بكر بهذه الرسالة. بأن قومك كرهوا منك ذلك فادخل فى بيتك وصلِّ فيه كما شئت. قال أبو بكر: سأرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.. فأعلن ذلك (ابن الدغنة) بأنه قد ردّ الجوار فشأنكم بصاحبكم.

إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها

هذه القصة روتها (أم سلمة بنت أمية بن المغيرة)

عزّ على المشركين أن يجد المهاجرون أنفسهم فى مأمن فائتمروا على أن يبعثوا وراءهم رجلين من قريش إلى النجاشى فيردهم عليهم.. فاختاروا كلاً من [عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة] وجمعوا لهما هدايا للنجاشى وبطارقته، وحين رأى (أبو طالب) ذلك أرسل أبيات شعر للنجاشى يحضه عن حسن جوارهم والدفع عنهم.

قدَّم الرجلان الهدايا للبطارقة ثم أقنعوهما بضرورة طرد أولئك المسلمين، فاتفق البطارقة أن يشيروا على النجاشى بإقصائهم..ثم قدما الهدايا للنجاشى فقبلها، ثم كلماه فقالا له:

لقد جاء إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه.. وقد بعثنا أشراف القوم لنستردهم فهم أعلم بما فعلوا... وقالت البطارقة: سلمهم إليهما وردّهم إلى بلادهم.

لكن النجاشى رأى أن يسمع منهم قبل أن يُسلّمهم.. فأرسل إليهم ليحضروا. وسألهم: ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم؟

تقدم (جعفر بن أبى طالب) وتركوه يتحدث بالنيابة عنهم.. فعرض على النجاشى الإسلام. قال جعفر: لقد كنا نعيش فى الجاهلية يأكل القوى منا الضعيف، نُسىء الجوار، ونقطع الأرحام، فجاءنا رجل نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فأمرنا بالإسلام ودعانا إلى عبادة الله وحده وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ثم عدد عليه أمور الإسلام.. وقال: فلما حرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا عدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام. فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا قال لنا نبينا أن نخرج إلى أرض الحبشة ورغّبنا فى جوارك وقال لنا أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد.

فإذا حلّلنا مقالة جعفر نلاحظ ما يلى:

1) فى الفقرة الأولى ← عدَّد مساوئ الجاهلية واختار المساوئ التى يتفق عليها كل البشر.



2) فى الفقرة الثانية ← عرّف النبى فى كلمات موجزة.

3) فى الفقرة الثالثة ← عدّد له محاسن الإسلام، ما يتفق عليه جميع الناس.

4) فى الفقرة الرابعة ← اشتكى من ظلم قومهم وقهرهم وعذابهم لهم.

5) فى الفقرة الأخيرة ← اختيارهم للحبشة لأنها أرض صدق وأن ملكها لا يظلم عنده أحد وفيها مجاملة للنجاشى.

ثم سأله النجاشى أن يعرض عليه شيئًا مما جاء به هذا النبى فقرأ جعفر بذكاء أول سورة مريم.. فبكى النجاشى وبكت الأساقفة حين سمعوا ما تلا عليهم... ثم قال النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، والله لا أسلمكم أبداً. ابقوا فى بلادى حيث شئتم ولن يظلم أحد منكم وأنا على هذه الأرض... وأمر أن ترد عليهما الهدايا وقال: أنا لا أقبل رشوة فى ملك ملكنى الله إياه.. فخرج الرجلان من عنده مقبوحين عائدين بهداياهما.

ولما عاد (عمرو بن العاص) إلى مكة ظل فى بيته لا يخرج إلى الناس ولما سألوه ما شأنه قال: أن "أحمصه" يزعم أن صاحبكم نبى.

وعاش المسلمون فى أرض الحبشة يعملون غير متكلين على غيرهم وتخصصوا فى المشغولات الجلدية التى يحبها أهل الحبشة فأحبوهم.

وقد أسلم النجاشى.. فثار أهل الحبشة عليه وقالوا إنك قد فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد. فصنع مكيدة.. هى أنه عمد إلى كتاب فكتب فيه أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه، ثم جاء بها كتب ووضع يده على صدره والأخرى على الكتاب وأخذ يشهد أن عيسى بن مريم لا يزيد عما فى هذا الكتاب شيئاً.. فرضى القوم بذلك وانصرفوا.. وعاش النجاشى بينهم وهو مسلم ويكتم إسلامه.. وقد بلغ ذلك النبىﷺ فلما مات النجاشى صلّى عليه واستغفر له. وقال: مات "أحمصه"، عبد يحبه الله ورسوله.



ولما أخفق المشركون فى استرداد المهاجرين استشاطوا غضباً فاشتدت ضراوتهم على البقية القليلة المتبقية فى مكة من المسلمين وكانوا إما ذوى شرف ومنعة أو محتمين بجوار أحد، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ، فكان يصلى جهراً فى جوف الكعبة لا يمنعه مانع ولا يصرفه شىء منذ أن أمر بأن يصدع بالدعوة.

ومن الأحداث التى وقعت فى هذه الفترة.. أن (عتيبة بن أبى لهب) وكان زوجًا لابنته (أم كلثوم) ثم طلقها نكاية فى رسول الله... جاءه يوماً فقال:

أنا أكفر بالنجم إذا هوى وبالذى دنا فتدلى، ثم تسلط على النبى ﷺ بالأذى وشق قميصه وتفل فى وجهه.. فدعا النبى ﷺ عليه بأن يسلط الله عليه كلباً من كلابه... وقد استجيب لدعائه... فقد خرج (عتيبة) إلى الشام فطاف به أسد وهو فى خيمته فقال: ياويلى والله إنه آكلى كما دعا علىّ محمد، قتلنى وهو بمكة وأنا بالشام.. ثم جعلوه بينهم وناموا من حوله. ولكن الأسد جاءه وتخطاهم إليه فقتله.

أما أشد شىء صنعه المشركون بالنبى ﷺ أنه بينما كان يصلى فى حجر الكعبة أقبل عليه (عقبة بن أبى معيط) فوضع ثوبه فى عنقه وخنقه خنقاً شديداً فذهب رجل إلى أبى بكر يصرخ: أدرك صاحبك.. فخرج إليه أبو بكر مسرعاً حتى أخذ بمنكبى الرجل ودفعه عن النبى وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر وأوسعوه ضرباً.

أحداث حدثت في السنة السادسة من النبوة

1) إسلام حمزة: (ذو الحجة من السنة السادسة).

مرّ أبو جهل برسول الله يوماً عند الصفا فآذاه وشتمه وأعاب دينه فلم يرد الرسول ﷺ عليه، ثم ضربه أبو جهل بحجر فى رأسه فشجه حتى نزف منه الدم.. ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم... وكانت مولاة (لعبد الله بن جدعان) قريبة من الصفا فرأت ما حدث... وبعد قليل أقبل (حمزة) من الصيد متوشحاً قوسه، فأخبرته المرأة بما فعله أبو جهل بالنبى ﷺ.. فغضب حمزة وذهب قاصداً أبا جهل فضربه بالقوس



فشج رأسه وقال: أتشتمه وأنا على دينه، وأقول ما يقول، فرد ذلك عليّ إن استطعت.. فقام رجال من بنى مخزوم ثائرين على بنى هاشم.. فقال أبو جهل.. دعوا أبا عمارة فإنى سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

فكان إسلامه أول الأمر غيرة على ابن أخيه، ثم شرح الله صدره فحسن إسلامه واعتز به المسلمون اعتزازاً شديداً وامتنع به رسول الله ﷺ لأنه كان أعز فتى فى قريش.

2) إسلام عمر:

وخلال هذا الجو المظلم أضاء بريق آخر بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة. وكان ذلك فى ذى الحجة من العام السادس من النبوة.. وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه فقال: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام (أبو جهل).. فكان عمر أحبهم إلى الله.

وكان عمر معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى ولكن يبدو أن الإسلام نزل فى قلبه تدريجياً.. فقد كانت المشاعر المتناقضة تتصارع فى نفسه.. احترامه لدين ولتقاليد آبائه مع إعجابه بصلابة المسلمين وتحملهم الإيذاء فى سبيل عقيدتهم... حتى إنه فى يوم ذهب إلى (عامر بن ربيعة) فلم يجده فتكلم مع امرأته، وتقول عنه: كنا نلقى منه البلاء الشديد والأذى والآن نستعد للرحيل إلى الحبشة فقالت له: لنخرجن إلى أرض الله الواسعة بعد أن قهرتمونا وآذيتمونا. فقال لها: صحبكم الله ورأت منه رقة لم ترها من قبل ولما جاء زوجها أخبرته بذلك فقال هل تطمعين فى إسلامه؟ إنه لا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب.. لقد كان يائساً منه لما رآه من قوته وغلظته.

اما قصة إسلامه فهى:

(حدثت هذه القصة بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة).

حدث إسلام عمر تدريجياً؛ فالشكوك والظنون ظلت تساوره فى أن يكون الإسلام أجلّ وأفضل من غيره أم لا؟ لذلك كان ما أن يثور حتى يخور.. فقبل أن يعلن إسلامه خرج



ليلة إلى الكعبة فوجد النبى ﷺ قائماً يصلى مستقبلاً الشام وكان مصلاه بين الركنين الأسود واليمانى فأراد عمر أن يستمع إليه وهو يتلو القرآن من غير أن يشعره حتى لا يُروّعه، فدخل من تحت ثياب الكعبة حتى اقترب منه وأصبح ما بينه وبين النبى إلا ثياب الكعبة.. فأخذ عمر يستمع إلى القرآن ويعجب من جماله فقال فى نفسه: هذا والله شاعر كما قالت قريش. فقرأ النبى ﷺ فى هذه اللحظة من [سورة الحاقة]:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ [الحاقة].

لا أحتاج أن أقسم بما تبصرون من مخلوقات كالسماء والأرض والجبال والبحار.

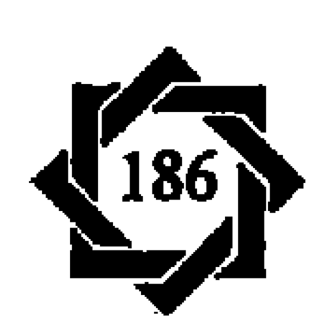
وبما لا تبصرون كالملائكة والجن.... إن هذا القرآن الذى يتلوه محمد تلقاه عن الله وبلّغه عنه بأمره.. وما هو بقول شاعر ولكن المشكلة تكمن فيكم أنتم.. إنكم تؤمنون أن الله هو الذى خلقكم ولكن تشركون معه آلهة أخرى فى العبادة.

ثم قال عمر فى نفسه.. أو قد يكون محمد كاهناً.. كما قالت قريش.. فقرأ النبى ﷺ:

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة].

ولم يتعاط أبداً الكهانة، فلم يزعم قط أنه يعلم الغيب ولكنه تنزيل من رب العالمين على قلب محمد لكى يبلغه إليكم.. ولكنكم قليلاً ما تتذكرونه وتتعظون به.

ولو أنه غيّر أو بدّل من تلقاء نفسه، أو أضاف أى قول ونسبه إلى الله افتراءً وكذباً - على سبيل الفرض ← لأخذناه بالقوة والقدرة - وعبر عنهما باليمين (كناية عن الإذلال والإهانة) للتهويل من شأن هذا الأخذ أنه سريع وقوى لا يملك معه تصرفاً أو هرباً.. ثم



أضاف ما هو أشد أنه سيقطع منه العرق المتصل بالقلب، وهو الوتين الذى متى قُطع مات صاحبه.. وهذا التعبير من مبتكرات القرآن التى لم يسمع عنها العرب من قبل.. ثم بيَّن سبحانه أن أحداً لن يستطيع منع عقابه أو يحول بينه وبين وقوعه من الله.

وفى هذه الآيات أقوى الأدلة على أن القرآن من عند الله ولو كان - كما زعموا - من تأليف محمد ما كان ينطق بهذه الألفاظ التى فيها كل هذا الوعيد والتهديد.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة].

وأن هذا القرآن جاء لتذكير وإرشاد أهل التقوى - لأنهم هم المتفعون بهدايته - وأنه لا يخفى عليه - سبحانه - من هو المكذب الجاحد. ولكن هذا التكذيب لن يمنع من إرسال الرسول بهذا الدين لكى يبلغه للجميع. ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر وسيجازى الله كلاً بما يستحقه من الثواب أو العقاب.

ثم بيَّن ما سيكون عليه الكافرون من ندم شديد عندما يرون حسن مصير المؤمن وسوء مصير المكذب ← فهو الندم الشديد على أمر لا يمكن تداركه.

ثم يؤكد الحق أن هذا القرآن هو الحق الثابت.

وكما عرفنا أن مراتب العلم ثلاث: أعلاها حق اليقين، ويليها عين اليقين، ويليها علم اليقين.

فإذا كان الأمر كما ذكر الله من أن هذا الدين هو الدين الحق فنزه اسم ربك العظيم تنزيهاً مصحوباً بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص وتقوى.

وكان هذا أول وقوع للإسلام فى قلب عمر.. ولكن ظلت لفترة أخرى. تنازعه عصبية الجاهلية وتمسكه بدينه.. ظلت هذه الأفكار غالبة عنده على الحقيقة يهمس بها قلبه فبقى غير مكترث بهذا الشعور الدفين فى نفسه وظل مجداً فى عمله ضد الإسلام.

ثم حدثت الحادثة الأخرى التى فصلت عنده كل هذه الهواجس وجعلته يعلن إسلامه.



خرج يوماً حاملاً سيفه يريد القضاء على النبى ﷺ. فلقيه رجلٌ من بنى مخزوم فسأله إلى أين يتجه؟ قال عمر: أريد أن أقتل محمدًا.. قال الرجل: وكيف تأمن بنى هاشم وبنى زهرة إن قتلته؟ فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك إلى دين محمد؟ فقال الرجل: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ إن أختك (فاطمة) وزوجها (سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل) وهو ابن عمها - قد أسلما واتبعا محمداً.. فعليك بهما.

فذهب عمر متوجهاً إلى بيت أخته وكان عندهما (خباب بن الأرت) ومعه صحيفة يقرئهما فيها (سورة طه).. فلما سمعوا حس عمر.. تغيب خباب فى بعض البيت فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التى سمعتها؟ لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بزوج أخته فقامت إليه (فاطمة) لتكفه عنه، فضربها فشج رأسها حتى سال الدم على وجهها. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وقال لها: أعطنى هذه الصحيفة أنظر ما هذا الذى جاء به محمد.. فقالت أخته: إنا نخشى عليها منك. قال عمر: لا تخافى وحلف لها ليردنها إذا قرأها إليها.. فقالت له: إنك نجس، على شركك، وأنه لا يمسها إلا الطاهرون. فقام عمر واغتسل وأعطته الصحيفة وأخذ يقرأ من صدر سورة طه.

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه].

(طه) ← هى من الحروف المتقطعة ولكن لا مانع أن تدل فى نفس الوقت على أنها اسم من أسماء الرسول ﷺ خاصة وأن حرف الهاء لم ينطق بالهمزة لأن قريشًا كانت تستثقل الهمزة فيخففونها مثل ذئب، وبئر تنطق ذيب، وبير، وهذا النطق يرجح هذا القول.

وقيل إن معناها: يا رجل بلغة بعض القبائل العربية.

ثم ينفى الحق لرسوله أنه أنزل عليه القرآن ليتعب ويشقى بل أنزله عليه ليسعد. أولا لاصطفائه بالرسالة، وينزل القرآن عليه، ثم لأنه أول من يطبق منهج الله على نفسه.



وجاءت كلمة (لتشقى) رداً على قول الكفار أمثال: (أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والنضر ابن الحارث..) عندما قالوا للنبي ﷺ: إنك أشقيت نفسك بهذه الدعوة وأنك ستشقى بترك ديننا.. هم نظروا إلى منهج الله فوجدوه يقف أمام شهواتهم ويأمرهم بما تكره أنفسهم من العبادة والالتزام، ويمنعهم بما يألفون أو يحبون فوجدوه مما يشق على النفس وذلك لأنهم عزلوا الوسيلة عن الغاية فنظروا إلى التكاليف معزولة عن الثواب عليها.. أما من يستحضر فرحة الفوز والنجاح وما سيحصل عليه من الأجر والثواب فيسعد بمنهج الله ويشعر بمتعة فى العبادة ولذة فى التكاليف- ولذلك أوضح لهم القرآن أنهم مخطئون فى هذه المسألة.

تفسير آخر:

أو قد يكون المعنى.. لا تشقى نفسك مع هؤلاء العتاة فى الكفر الذين يسخرون منك ويؤذونك وأنت تشقى نفسك لحرصك على هدايتهم فما عليك إلا البلاغ ولا تشقى نفسك معهم.

ومنهم من يرى أن الآية تنهى عن المغالاة فى العبادة فلا تشقى نفسك بكثرة العبادة فالحق يريد بكم اليسر، وما جعل عليكم فى الدين من حرج.

وقد أخذ نزول القرآن بعده أدوارًا: فقد كان فى اللوح المحفوظ فأنزله الله مرة واحدة من السماء العليا (من اللوح المحفوظ) إلى السماء الدنيا ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر].

ثم تنزل بعد ذلك مفرقاً على حسب الأحداث على قلب رسول الله ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه] والذى نزل به هو (جبريل) ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء].

وخص الأرض والسماوات بالذكر لأنهما من أعظم ما خلق الله وأعدهما ليستقبلا الإنسان بما يقيم حياته المادية من طعام وشراب.. ثم أنزل المنهج ليقيم به الحياة المعنوية حتى يحرس الإنسان من شراسة شهواته.. وفى هذا العطاء (المادى والمعنوى) من مظاهر الرحمة والرعاية ثم تأتى الآية التالية بمظهر من مظاهر القهر والغلبة فيقول:



(**الرحمن على العرش استوى، له ما في السماوات وما في الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى)** ← والله تعالى - جلَّ وعلا - خلق الكون بأرضه وسمائه، وخلق الخلق، وأنزل الكتب لتنظيم حياتهم. وبعد أن استتب الأمر فى الكون لم يترك الكون يعمل وحده ولم ينعزل عن كونه وعن خلقه إنما ظل قائماً بقيوميته عليه لا يخرج شيئاً عن إرادته لذلك يقول الحق فى الحديث القدسى:

(يا عبادى. ناموا ملء جفونكم، لأنى قيوم لا أنام).

وقد ذهب كل علماء السلف والأئمة الأربعة إلى أن استواء الله على عرشه هو استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه أو انحصار فهو يؤخذ فى إطار (ليس كمثله شىء) أى نؤمن به كما ورد ونفوض العلم بحقيقته إليه تعالى، لذلك قال الإمام مالك عندما سئل عن كيفية الاستواء: **[الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة].**

ثم يؤكد الحق على شمول ملكه ويلفت أنظار الخلق إلى ما أعدَّ لهم من مقومات حياتهم ليبحثوا عنها ويستخرجوا ما ادخره الله لهم من ثروات فى الأرض والسماء وما تحت الثرى (وهو التراب) فقد استودع الله كنوزه وثرواته فى كل مكان وما على الإنسان إلا البحث عنها.

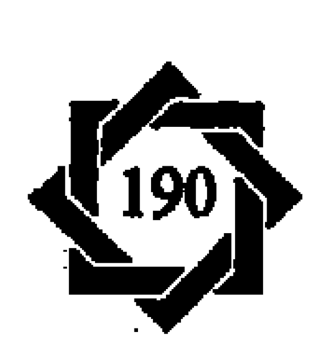
وخص (ما تحت الثرى) ← بالذكر مع أنه داخل فى (ما فى الأرض) لزيادة التأكيد على شمول ملكه لكل شىء.

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) ←

وهذا بيان لشمول علمه بعد بيان لشمول قدرته.

والمعنى ← وإن تجهر يا محمد بدعائك أو بمخاطبتك لربك فهو غنى عن ذلك لأن الجهر عنده مثل السر بل وأخفى من السر.

أو يكون المعنى ← إياكم أن تجهروا بكلام ظاهره فيه الرحمة ونيتكم تضمر غير ذلك.. لأن الله يعلم الجهر ويعلم السر ويعلم أيضاً ما هو أخفى من ذلك. وهو ما يحدث



الإنسان نفسه دون أن يتفوه به لأحد أو ← يعلم ما سيفعله الإنسان مستقبلاً من قبل أن يعلم الإنسان نفسه أنه سيفعلها ولذلك يقول الحق:

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق].

ثم أثنى الحق على ذاته بالكلمة التى بعث عليها الرسل جميعاً:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه].

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ← هذه هى قمة العقيدة وخير ما قاله الأنبياء جميعاً. وما دام الله إلهًا واحدًا ولا يوجد إله آخر يعقب عليه فلنخلص له العبادة لأنه لا يوجد غيره يستحق ذلك.. وإخلاص العبادة لإله واحد تغنينا وتريحنا من أن تتنازعنا قوى شتى.

﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ← والحسنى ← هى صيغة أفضل التفضيل.

فهناك أسماء حسنة ← يُسمى بها الخلق، أما أسماء الله فقد بلغت قمة الكمال لذلك فهى حسنى لا حسنة.

وبعد أن قرأ عمر الصحيفة قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلونى على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج عليه وقال: أبشر يا عمر، فإنى أرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ: **(اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، بعمر بن الخطاب أو بعمرو ابن هشام (أبو جهل)**.

فأخذ عمر سيفه وانطلق عامداً إلى رسول الله حيث كان فى بيت عند الصفا ومعه أربعون من الصحابة (رجال ونساء) من الذين لم يخرجوا إلى الحبشة. فضرب عليهم الباب فلما عرفوا أنه (عمر بن الخطاب) متوشحاً سيفه فقال حمزة: إن كان يريد خيراً بذلناه له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه، فخرج إليه رسول الله ﷺ وأخذ بمجمع ردائه وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: جئت لأؤمن بالله وبرسوله فكبَّر رسول الله ودعا له بالثبات.



وقد أثار إسلام عمر ضجة كبيرة بين المشركين وشعوراً لهم بالذلة والخسارة، فعندما علموا بإسلامه ثاروا عليه وأخذوا يقاتلونه حتى أعيوه ضربًا وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم حتى جاء خاله (العاص بن وائل)وزجر القوم عنه قائلا: خلوا عن الرجل، لقد اختار الرجل لنفسه أمراً فماذا تريدون؟

وبعد أن أسلم (عمر) وكان رجلاً ذا شكيمة قوية امتنع به الصحابة وكانوا لا يجرأون من قبل أن يُصلّوا عند الكعبة، أما بعد إسلامه أصبح يصلى فى الكعبة وهم يصلون معه لذلك كانوا يقولون: [**إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة**].

وبعد إسلامه مباشرة – وكان الرسول والصحابة يستخفون من قريش – قال عمر: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق. قال عمر: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن.. فخرجوا فى صفين حمزة فى أول أحدهما.. وعمر على رأس الآخر ومشوا حتى دخلوا الكعبة.. فنظرت إليهم قريش فأصابهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماه الرسول يومئذ (الفاروق).

ويقول (صهيب بن سنان الرومى): لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا.. ويقول (عبد الله بن مسعود): مازلنا أعزة منذ أسلم عمر.

وبعد إسلام هذين البطلين [حمزة، وعمر (رضى الله عنهما)] أفاق المشركون عن سكرهم فى تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم فى معاملتهم مع النبى ﷺ والمؤمنين واختاروا مرة أخرى أسلوب المهادنة والمناقشة السليمة لعلها تأتى بنتيجة.

فحدث يومًا أن قريشاً كانوا مجتمعين فى ناديهم عند الكعبة، ورسول الله جالس فى المسجد وحده، فقال لهم (عتبة بن ربيعة) ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأناقشه فإن أصحابه بدأوا يكثرون ويزيدون؟ فقالوا: بلى قم إليه فكلمه.

أخذ عتبة يتكلم ويتشاور مع النبى ﷺ قال عتبة: يا محمد أأنت خير أم جدك قصيّ، أو عبد المطلب أو جدك هاشم؟ هؤلاء لم يسفهونا فى عبادتنا فهل أنت خير منهم لتأتينا



بدين جديد غير دين آبائنا؟ تركه النبى ﷺ يتكلم..... حتى إذا فرغ من كلامه ورسول الله يستمع إليه. ثم قال: فاسمع منى... وبدأ رسول الله يقرأ عليه (سورة فصلت)، وعُتبة يسمع إليه بإصغاء حتى انتهى رسول الله إلى السجدة منها فسجد ثم قال: لقد سمعت ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذى جاء به إلى النبى، وقال لهم: خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فالذى سمعته منه سيكون له شأن عظيم، فإن تصبه العرب (أى تقتله) فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه ملكُكُم، وعِزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: لقد سحرك بلسانه. قال: هذا رأيى واصنعوا ما بدا لكم.

وسأتناول بعض آيات من هذه السورة بالتدبر والشرح.

وسورة فصلت هى السورة الثانية من السور السبع التى تبدأ بـ (حم) ويطلق عليها (**الحواميم**) **السبعة** وهى [**غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف**]. وهى فى الجزء الرابع والعشرين، والخامس والعشرين.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ﴾ [فصلت].

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التى طالما حاول العلماء إيجاد معنى أو تفسير قاطع لها ولكن هذه المحاولة لم تسفر حتى الآن إلى قول قاطع. فهى مازالت من أسرار القرآن التى لم يأذن الله بعد بأن يكشف عنها. وتؤخذ فى نطاق الأمر الغيبى الذى نؤمن به لأن الله تعالى هو قائلها.. ونقول فيها: الله أعلم بمراده. لذلك عندما يقول الحق ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ← فما دامت هذه الحروف هى تنزيل من الرحمن الرحيم فلا تقف عندها وتقول إنها مبهمة بل نأخذها على أنها طالما هى منزلة من أعلى – من



عند خالق القرآن وواهبه - فيجب أن نتلقاه بالتسليم المطلق والقبول.. فالأمور الغيبية لا تناقش وهى دليل الإيمان بالله. أما الأمور العقلية المفهومة فهذه يستوى فيها كل الناس.

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ← ففى هذا الكتاب الأمران:

الأمر الغيبي ← مثل ﴿ حمٓ ﴾ ← وهذا هو مجال اختبار الإيمان، ثم هناك أيضاً:

الأمر العقلى ← وهذا هو المفهوم الذى يُفصّله الحق تفصيلاً واضحاً بليغاً مشتملاً على فواصل ومقاطع حتى يسهل فهمه وحفظه. وجاء على صورة كتاب مكتوب ومُسجّل فى السطور، وهو أيضاً قرآن مقروء ومحفوظ فى الصدور. والمكتوب مع المقروء يساعدان على تسجيله تسجيلاً دقيقاً.

لقد فصّل القرآن أمور الحلال والحرام، وأمور الطاعة والمعصية، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وكذلك فصلت فيه كل آيات الكون إلى قيام الساعة.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ← فالقرآن نزل بلسان الرسول الأمى على أمة عربية أمية ثم يكون هذا الرسول مُعلماً للعالم كله، وتكون تلك الأمة البدائية رائدة لدول العالم المتحضرة بداية من بلاد فارس وبلاد الروم فلا يقول أحد عن القرآن إنه وثبة حضارية.

ولما جهر محمد ﷺ بهذا الدين لم تنصره قريش (ذات السيادة) إنما نصره المستضعفون فى المدينة حتى لا يقول أحد إن العصبية لمحمد هى التى جعلت الناس يؤمنون به.

فالقرآن إذاً نزل بلغة العرب الرحّل الذين يتنقلون ويرحلون إلى كل مكان فينشرون الإسلام مع ترحالهم منهجاً وسلوكاً وقدوة.

(لقوم يعلمون) ← أى يعلمون فصاحة وبلاغة اللغة العربية والنبوغ فيها. فالإعجاز لا يأتى لمن يجهل الشيء بل يكون للمجيد فيه حتى يصح التحدى به.

ثم يأتى أول شيء فى التفصيل وهو البشارة والنذارة ← فأعرض عنه الكثير منهم ولم يؤمن به إلا القلة المستضعفة الذين سمعوا القرآن فاستفادوا بهذا السماع، أما الكثرة



فقالوا: قلوبنا مغطاة ومغلفة تمنعهم فهم وتدبر ما يسمعون، فختم الله زيادة عليها. وقالوا أيضاً: وفى آذاننا صمم يمنعنا من السماع، سماع التدبر والإيقاظ. وإن بيننا وبينك حاجزاً كثيفاً وفجوة كبيرة يحجب التواصل والتلاقى بيننا، فالكفر والإيمان ضدان لا يلتقيان مهما حدث، فاعمل ما يروق لك فيما يتعلق بدينك ونحن أيضاً سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا.. أنت تعمل لإلهك ونحن نعمل لآلهتنا.

وهذه الأقول تدل على أنهم قوم بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد فقلوبهم أغلقت فلا تدرك الحق، وأسماعهم قد صُمّت عن سماعه، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من الرسول الذى يحمل لهم الخير وما حملهم لهذا إلا اتباعهم الهوى والشيطان.

ثم لقن الله تعالى رسوله الجواب الذى يردّ به عليهم فقال: قل لهؤلاء الجاحدين إنما أنا واحد منكم، عربى مثلكم، تعرفون صدقى وتاريخى، ومن رحمة الله بكم أن الله أرسلنى إليكم بشيراً من جنسكم، ولم يتعالَ عليهم بل قال إنه ما يفضله عليهم، أن الله اختاره ليوحى له (أن الله واحد) فهو لا يمتاز عليهم بشىء غير ذلك ولا ذنب له فى اختيار الله له.

ونلاحظ أنه تحدَّث عن الألوهية وليس عن الربوبية لأنهم مؤمنون بالربوبية، يؤمنون بالرب الخالق الرازق ولكنهم يشركون بالإله المعبود ولا يطيعون منهجه. بل يتخذون الآلهة المتعددة التى ليس لها منهج ولا تكليف.. فالزموا الاستقامة والإيمان والطاعة له وحده.

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت].

ثم ينتقل السياق إلى النظر فى آيات الكون التى ترق بها قلوب الناس.



فيبدأ الكلام بالاستفهام الاستنكارى لإنكار كفرهم بالله أو الشرك به مع علمهم أنه سبحانه هو الخالق وحده.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان].

إذاً فكيف تكفرون بالله وتجعلون له أنداداً وأنتم تقرون بأنه خالقكم؟!

ثم تكلم الحق سبحانه عن خلق السماوات والأرض بالتفصيل بعد أن أتى بها مجملة فى (سورة الأعراف) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

ثم أخبرنا الحق بتفصيل هذا الخلق فى سورة فصلت:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت].

وقد تناول القرآن الكريم الآيات الكونية (والتى يزيد عددها على ألف آية صريحة) وهى جميعها آيات تحتمل التأويل وتختلف فى تفسيرها من زمن إلى زمن على حسب قدر العلم والتطور المتاح فى وقتها، فمعانى هذه الآيات تظل تتسع وترتقى مع اتساع دائرة المعارف الإنسانية فى تكامل مدهش مع آيات القرآن تكاملاً لا يعرف تضادًا ولا تناقضًا. فالقرآن يشير إلى عدد من الحقائق الكونية التى لم يكن لأحد بها دراية وقت التنزيل ولقرون طويلة ومع اتساع دائرة المعارف استطاع العلماء أن يدركوا كثيرا من الأسرار، أما قضية الخلق والفناء وإعادة الخلق فهى قضايا لا تخضع للإدراك ولا للعلم بل لمجرد النظريات ويبقى للمسلم نور من القرآن ليرتقى به إلى مقام الحقائق.

وقد أجمل القرآن خلق السماوات والأرض فى عدة مواضع يمكن حصرها فى:



مرحلة الرتق:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقد أجمع علماء الكون على صحة ما جاء فى القرآن أن السماوات والأرض كانتا فى البدء كتلة مجمعة بدائية تتميز بكثافة عالية جدا وارتفاع هائل فى الحرارة والضغط، ارتفاع يصعب على العقل البشرى تصوره.

والرتق ← لغةً عكس الفتق ← فهو الضم والجمع والتكديس (وهذا هو الجرم الابتدائى) ومع تلك الكثافة العالية جدا والدوران الشديد حول نفسه كان لا يمكن أن يظل فى حالة استقرار لذلك انفجر لشدة ما يحدث فيه من تفاعلات نووية وتفتت وجاءت المرحلة الثانية.

2) مرحلة الفتق:

وبعد الانفجار تكونت سحابة من الدخان أدت بتدبير من الله إلى تكوين هذه الأجرام التى نراها فى صفحة السماء، وإلى تكوين الأرض وما عليها من الجبال وما تبقّى من تلك الغلالة الدخانية ظل يملأ المسافات بين هذه الأجرام.

3) مرحلة الدخان:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت].

هذا الدخان وصفه العلماء فى أول الأمر على أنه غلالة ترابية بها غاز داكن اللون وبعض الجسيمات الصلبة التى لها شىء من الدكنة وشىء من الحرارة.. وهذا الوصف لا نجد له كلمة أدق من لفظ (الدخان) الذى استخدمه القرآن منذ 1400 سنة.

- وقد كان العلماء من قبل يتخيلون أن الكون عبارة عن فراغ، ويقولون إن الغلاف الغازى للأرض ينعدم بعد حوالى 1000كم من سطح الأرض.. ثم تأتى منطقة الأثير. وهى منطقة فارغة خالية من المادة. فإذا بالقرآن يتحدث عن عدم وجود هذا الفراغ بل



وصف المادة بوصفها الدقيق (الدخان) ثم يقول الحق: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان].

- ولولا هذا الدخان الموجود بين الأجرام ما وصلتنا أضواء النجوم. فالضوء لا يتحرك فى فراغ.

- ونلاحظ أن السماوات والأرض ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فهل هما قادران على النطق؟ أم هو مجاز؟ قد يكون الرد حقيقياً ولكن لا نفهمه ﴿ ...وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء].

- ونلاحظ أيضاً أن هؤلاء العلماء الذين اكتشفوا هذه الحقائق العلمية ورصدوها ثم عرض عليهم آيات القرآن التى وصفت بدقة ما اكتشفوه مؤخراً، لم يؤمنوا بل مازالوا ينكرون ويكذبوا لذلك جاءت الآية الكريمة بـ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟... ﴾ [الأنبياء]. فلو أسلموا الكذبت الآية (حاشا لله) ولكنهم ظلوا على كفرهم لتظل هذه الآية حُجّة عليهم.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ... ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت].

والرواسى ← جمع راسى من الثبات والاستقرار.. فالجبال تمتد فى داخل القشرة الأرضية امتداداً أكبر من الذى يبدو على السطح لأنها تستخدم كوتد للتثبيت ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ].

ويؤكد القرآن فى عشرة مواضع أخرى على هذا الدور الذى تؤديه الجبال فى توازن الأرض:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر].

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء].

وهذه الجبال تتبع حركة الأرض فى دورانها حول محورها فيقول الحق:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل].



﴿... وَبَٰرَكَ فِيهَا ... ﴿١٠﴾﴾ [فصلت].

والبركة هى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء بنمائه وزيادته بغير أسباب مدركة، وقد جعل الله تعالى هذه الجبال زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع عن طريق الزروع والثمار المزروعة فوقها، والمياه التى تخرج من جوفها، والكنوز التى فى باطنها والمعادن.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات].

﴿... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

و(جدد) ← جمع جُدة، وهى الخط الفاصل بين لونين، ووجود الألوان المختلفة فى الجبال تعنى اختلاف الصخور والمعادن من جير وجرانيت ورخام. والغرابيب السود تعنى الشديدة السواد نسبة لما فيها من حديد ومعادن مختلفة وكلها كنوز مباركة.

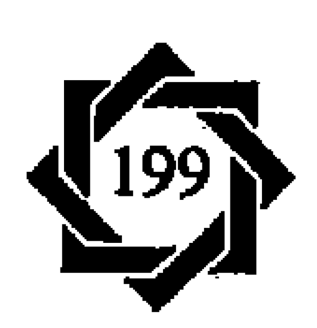
﴿... وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ... ﴿١٠﴾﴾ [فصلت].

وقد أثبت العلم أن الجبال هى مصدر الخير فى الأرض فمنه تأتى عناصر الخصوبة والغذاء والمدد لما ينقص من التربة... فحين يسقط المطر على الجبال تتفتت القشرة الخارجية ثم يحمل السيل هذا الفتات ويوزعه على المسطحات المنزرعة... مثل طمى النيل الذى جاء من منابع النيل من أعلى الجبال ثم تحرك مع النهر ومن هذا الطمى نشأت الدلتا.. وكذلك بفضل عوامل التعرية فى كل الجبال، حيث تتجرف القشرة الخارجية من الجبل بفعل السيول إلى الوديان فتتجدد التربة وتزداد خصوبتها وكأن الجبال مخازن لقوت البشر.

(فى أربعة أيام).

وكل هذه المراحل (خلق الأرض، وجعل الرواسى فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها الأقوات) تمت فى أربعة أيام.

(سواء)..... أى استوت وتمت بالعدل بينها (خلق كل منها فى يومين بالعدل بينهم) أى أن هذا الخلق تم فى هذه الأيام الأربعة وهى بلا شك ليست من أيام هذه الأرض (التى



تحسب بدوران الأرض حول نفسها وأمام الشمس) بل هى أيام مقاسة بمقياس آخر لا نعلمه ولكننا نتوقع أن يكون أطول بكثير من أيام الأرض فهى عبارة عن الأزمان التى مرت بها الأرض طورا بعد طور حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة.

(للسائلين)

وهذا الحصر - فى أربعة أيام - كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾..[فصلت].

وكلمة (استوت)........جاءت بمعنى(الاستواء على العرش) فى سبع سور وهى (الأعراف،يونس،الرعد،طه،الفرقان،السجدة، ثم الحديد) ويقول الحق فيها (استوى على العرش) وجاءت مرتين (الاستواء إلى السماء) ...29 البقرة، وهذه الآية فى سورة فصلت (آية 11).

* ومعنى الاستواء إلى السماء.........أى عندما تعلقت إرادته بخلقها قصد إليها بإرادته سبحانه وتعالى (وهى دخان)......وهو السديم الذى تكونت منه الأرض والجبال،ولا زال هذا الدخان يملأ الفراغات التى بين الأجرام وبعد أن تكونت السماء والأرض أمرهما الخالق سبحانه ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت].

فكان الرد ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾.وسرعة الاستجابة تدل على الانقياد التام للخالق. فالكون مسخر ولا اختيار له ولا هوى.

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت].

فأبدع وخلق السموات السبع فى يومين.

﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أى بيّن لكل سماء مهمتها، وخلق فيها الملائكة والرسل الذين سيكونون فيها ولقد اكتشف علماء الكون (مؤخرا) أن الكون به مجموعتان من السماوات السبع. الأولى هى... 1 - الطبقات السبع فى الكون الفسيح (المجرات والفضاء اللا نهائية).



الثانية هى.. 2 - الطبقات السبع المكونة للغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية فسواء كان الغلاف الجوى للكون الفسيح-هو المقصود، أم الغلاف الغازى المحيط بالأرض، فهذا يدل دلالة قاطعة على صدق الآيات القرآنية فى خلق السماوات سبعًا طباقًا، وهذا بدون شك من المعجزات القرآنية المبهرة.

وقد أوحى الله تعالى لكل سماء (من طبقات الغلاف الجوى للأرض) أمرها. ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ ﴾ [الطارق].

وقد فسرت الآيه قديما بأن الرجع هو المطر(ولكن الحق لم يقل والسماء ذات المطر)،ولكن العلم حديثا أثبت أن لكل طبقة من الطبقات السبع مهمة مختلفة عن الأخرى.

* فهناك مجموعة تُرجع إلى الأرض (1) الأصوات عن طريق الاهتزازات التى تحدث فتتلقاها طبلة الأذن (2) الرجع الحرارى إلى الأرض وعنها.......وتعمل هذه الطبقة فى طبقة المناخ (على بعد 10_12 كم) كدرع للمحافظة على درجات الحرارة المناسبة للحياة وتعمل كغطاء بالليل لتمسك حرارة الأرض من التشتت، فالصخور وتربة الأرض تمتص أشعة الشمس نهارًا ثم تعيد إشعاعها وتشتتها فى كل الاتجاهات ليلا، ولولا هذا لتجمدنا. أما بالنهار فهى تمتص جزءًا من أشعة الشمس إلى الأرض والباقى يعكس فى الفضاء الخارجي ويشتت ولولا هذا الرجع إلى الخارج لحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة ولبخرت المياه ولتخلخل الهواء،مثلما......لوتشتت جميعها إلى الكون الفسيح لتجمدت الأرض وما عليها.

(3) الرجع المائى.....جعل الله تعالى المسطحات المائية تغطى أكثر من ثلثى القشرة الأرضية فإذا تبخر الماء من البحار والمحيطات ودفعت الرياح وحملت السحب إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازى (وهى الطبقة الموكلة بهذه المهمة).......حيث يتكثف البخار ويعود إلى الأرض مطرا على سطح الأرض أنهارا وهذه الحركة الدائبة تحفظ الماء من التعفن أو الضياع فى طبقات الجو العليا.



(4) الرجع الإشعاعى...... تقوم (طبقة الأوزون) بهذه المهمة حيث تقوم باختصاص وتحويل الأشعة (فوق البنفسجية) فترد نسبة كبيرة منها إلى الخارج ولاتسمح إلا بمرور جزىء يسير منها الذى تحتاج إليه الأرض للتمثيل الضوئى فى النبات والعظام فى الإنسان... أما الإشعاعات المهلكة التى من الممكن أن تدمر الكون فترد ولا تسمح لها بالمرور.

(5) رجع الموجات اللاسلكية. تحدث فى الطبقة المتأينة حيث تعكس الإشارات الراديوية ذات الأمواج الطويلة وتردها إلى الأرض فتيسِّر عمليات البث الإذاعى والاتصالات اللاسلكية.

(6) رجع الأجسام الصلبة (النيازك) فى الطبقة الخارجية حيث ترد عن الأرض الجسيمات الكونية المتسارعة (النيازك) وذلك بصفها فلا يبقى منها إلا الرماد أو بعض الجسيمات الصغيرة التى تصل إلى الأرض أحيانا فتكون مادة يتعرف الإنسان بواسطتها على الأجزاء البعيده من الكون.

(7) طبقة الدرع الواقى لسطح الأرض(1000كم) ويحتوى هذا النطاق على زوجين من الأحزمة الإشعاعية (زوج على كل قطب من أقطاب الأرض) على شكل حزامين متقابلين نتجت من وجود اللب الحديدى فى مركز الأرض فتكونت فى هذه الأحزمة من الأشعة لتكون درعًا واقيًا يقى الأرض من كل أنواع الإشعاعات الضارة التى تصدر عن الشمس وغيرها من النجوم وهى إشعاعات مميتة للكائنات الحية وبدون هذا الدرع ما أمكن الحياة على سطح الأرض لتشكيله الحقل المغناطيسى الذى يساعد أيضًا على الاتزان.

وهكذا جعل الحق لكل طبقة من طبقات السماء مهمة ووظيفة لتحمى الحياة فوق الأرض أخبرنا بها القرآن فى هذه الآية ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت].

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ... ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت].



أى زيَّن الحق سبحانه السماء القريبة منا بالكواكب والنجوم (كالشمس والقمر) مضيئة كالمصابيح مع اختلافها، فنور الشمس يأتى مقترنًا بالحرارة لأنه ذاتى من تفاعلات الشمس لذلك يسمى (ضياء) أما نور القمر فهو نور خالٍ من الحرارة لأنه مجرد انعكاس لضوء الشمس لذلك يقول الحق ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ... ﴾ [يونس].

﴿ وَحِفْظًا ﴾أى حفظها من النيازك المهلكة ومن الجن الذى كان يتسمع إلى الملأ الأعلى فى السماء فيسمع من الملائكة أى خبر من أمور الخلق وينزل بها إلى الكهنة فيخبرون الناس بها على أنهم يعلمون الغيب،وقد أنهى الحق كل هذا وحفظ القرآن من أى خلط أو عبث وحمى منهج السماء... يقول الحق فى سوره الجن ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن].

وهكذا فصّل الحق فى هذه الآيات أن خلق الأرض وما عليها من الجبال والأقوات قد تم فى أربعه أيام، وأن خلق السماوات كان فى يومين فيكون المجموع ستة أيام من أيام الله.

وقد جاء ذلك فى آيات أخرى (فى سوره ق) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق].

وقد أخذ العلماء من هذا التفصيل (فى سوره فصلت) أن خلق الأرض كان قبل خلق السماوات ولكن لدينا آية فى سورة (النازعات) يقول فيها الحق أن الأرض خلقت بعد خلق السماوات فكيف الجمع بينهما؟

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات].

والرد على ذلك أنه تعالى: خلق الأرض أولاً غير مدحورة أى غير مستوية أو ممهدة ثم خلق السماوات وجعلها بناء خاليًا من الشقوق أو الثقوب أو التفاوت ثم رفع سمكها أى رفعها فى الفضاء بعيدة عن الأرض ارتفاعا عظيما مستوية الأرجاء، ثم جعل ليلها مظلمًا



أسود حالكًا وأخرج نهارها مضيئًا مشرقًا.. وأضاف سبحانه-الليل والضحى إلى السماء فقال (ليلها وضحاها) لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها.. ثم بعد هذا الخلق البديع دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغيرهما.

و(دحاها) معناها أخرج منها ماءها عن طريق تفجير العيون والآبار والبحار.

والعلم يؤكد أن كلاً من ماء الأرض قد أخرج من جوفها عبر الثورات البركانية،ثم أخرج منها.

(مرعاها) أى جميع ما يقتات به الناس بدليل قوله (متاعا لكم ولأنعامكم).

ثم ثبت الجبال فى الأرض حتى لا تميد الأرض ولا تضطرب.

* ومسألة خلق السماوات والأرض فى ستة أيام عولجت فى سبع سور من القرآن:

أربعة عن خلق السماوات والأرض فقط (الأعراف،يونس،هود،والحديد).

وثلاثة عن البينية (وما بينهما) (الفرقان، السجدة، ق).

واليوم مدلوله عند الناس مرتبط بحركة الشمس والأرض فكيف يقول الحق (فى ستة أيام) والأيام لم تخلق إلا بعد خلق الشمس والأرض؟

الإجابة أن الحدث بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى معالجة فهو سبحانه يقول للشىء (كنْ فيكون) الحق يقول الكلمة (كنْ) ثم يترك الأشياء تتفاعل حتى تنتهى من التكوين وهذه الأيام ليست أيامنا ولكن من أيام الله التى قال عنها سبحانه فى سورة الحج ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج].

هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج].

فالحق تعالى يخاطب الخلق بما يقرب الأشياء إلى أذهانهم.



وبعد هذا الحديث المتنوع عن قدرة الله فى الكون انتقلت الصورة إلى تهديد المشركين وإنذارهم.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت].

إلى هنا (وعتبة بن ربيعة) لا زال صامتا يستمع إلى ما تلاه رسول الله ﷺ إلى أن وصل إلى هذه الآية عندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله وقال: سألتك بالرحم ألا تكمل (عتبة كان على علم واسع بالشعر واللغة ويجيد أساليب الكهان والسحرة أى يعلم كل ما يتهمون به محمدًا ويعلم أن محمدا لا يقول شيئا إلا وقع) ثم عاد عتبة إلى أصحابه فقال لهم لقد سمعت منه قولا ما سمعت مثله قط فخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فقالوا: لقد سحرك محمد، لقد صبأ عتبة.

فقال: لا والله ما صبأت، ولكنى خفت على قومى إنذار محمد بصاعقة تحل بهم مثل صاعقة عاد وثمود،وكل ما يقوله محمد لابد أن يقع، فأنا أنجيكم من هذا بأن أجعله لا يكمل الآية..... وظل رسول الله ﷺ يقرأ السورة إلى السجدة... فقريش تعلم جيدا قصة (عاد) مع رسولهم (هود) لأنهم كانوا بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية، وقصة (ثمود) مع رسولهم (صالح) ومساكنهم كانت (بالحجر) فى الشمال يمرون عليها فى طريقهم إلى الشام.... وظل النبى ﷺ يقرأ فى سورة فصلت حتى قرأ آية السجدة.

وسأتناول بالتدبر بعض آيات (من سورة فصلت من آيه 19-38).

أولا: (مشهد من مشاهد النار):

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت].

﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وهو الكف والمنع.

والمعنى اذكر يا محمد يوم يحشر أعداء الله إلى النار ثم يحبسون فيها ويمنعون عن التحرك حتى آخرهم فيلحق بأولهم فيجتمع الجميع للحساب... ثم يصف الحق أحوالهم

عندما يعرضون على النار، واستخدم كلمة ﴿جَآءُوهَا﴾ زيادة فى التأكيد على مجيئهم فهو لا محالة...وهنا تبدأ المجادلات:

مجادلة العبد مع ربه... فيقول: أليس قد وعدتنى ألا تظلمنى؟ فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى..فيقول الله تعالى أو ليس كفى بى شهيدا؟وبالملائكة الكرام الكاتبين فيختم الله على الأفواه وتتكلم أبعاضه (أى جوارحه) بما كان يعمل:يقول الحق﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

يُنطِق الله تعالى الجوارح فتخبر بما اجترحوه من سيئات، وما فعلوه من قبائح.

(وشهادة الجلود) هى شهادة كل الجوارح المغطاة بالجلود - الأيدى والأرجل والفروج واللسان.

ويتعجب الكافرون من شهادة جوارحهم ويقولون:بُعدًا وسحقًا لماذا شهدتم علينا؟

وهنا ترد عليهم جوارحهم: بأن الله تعالى أنطقهم كما أنطق كل شيء بقدرته التى لا يعجزها شيء فهو الذى خلقكم ولم تكونوا شيئا وإليه وحده ترجعون ليحاسبكم على أعمالكم ويحكم فيكم بحكمه العادل.

ثم تقول لهم جوارحهم التى شهدت عليهم:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

أنتم لم تكونوا فى الدنيا تخفون أعمالكم السيئة خوفًا من أن نشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها لاعتقادكم أن الله لا يعلم ما تخفون أى أنه يعلم ما تظهرون فقط.

فقد كانوا يعتقدون أن الله يسمع الجهر من القول ولا يسمع السر، وأنه يرى الظاهر ولا يرى الخفى، أى أن الله لا يعلم الكثير من أعمالهم.. ولذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث القدسى: يقول الله تعالى:



(يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم).

وهذا الظن السيئ هو الذى أهلككم فأصبحتم من الخاسرين لكل شيء.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت].

فإن يصبروا على ماهم عليه فالنار هى المكان المعد لبقائهم فيه بقاءً أبديا.

وإن يطلبوا العتبى - (أى يطلبون العتاب عليهم لبيان الأعزار،لعلهم بعدأن يقدموا الأعزار قد تقبل منهم).

والهمزة فى (أعتب) هى همزة الإزالة - أى أزال العتب عليه - لكن هؤلاء فى الآخرة لن يقبل الله منهم عتابا ولن يزيل عتبهم.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت].

ثم يبين الحق سبحانه. ما هى الأسباب التى أوقعتهم فى هذا المصير المؤلم:

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ من القيض وهو قشر البيض الملازم له المحيط به.

أى بعثنا وهيأنا لهم قرناء يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض.

هؤلاء القرناء الملازمين لهم.

﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من القول والفعل السيئ فى الدنيا كالشرك بالله وتكذيب النبى.

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمور الآخرة،كإنكارهم للبعث والجزاء والحساب فترتب على استجابتهم لقرناء السوء وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع إن ثبت عليهم القول الذى قاله الله تعالى لإبليس وتحقق مقتضاه وهو:



﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص].

فدخلوا جهنم مع جميع الأمم الجاحدة من الجن ومن الإنس واستحقوا جميعا لعذاب جهنم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فصلت].

تواصى المشركون على أنه: إذا قرأ محمد القرآن فيصيحون فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول، أو يشوشو على من يقرأه بالتصفيق ورفع الصوت والصياح بالخرافات لعلهم بهذا العمل يتغلبون على المسلمين، ويجعلونهم ينصرفون عن سماع القرآن وقراءته.

* ولا شك أن هذا القول دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب، هذا التأثير الذى حمل كثيرًا منهم على الدخول فى الإسلام عند سماعه،ويدل أيضا على عجزهم عن معارضتهم أو عن الإتيان بسورة من مثله لذلك لجأوا إلى تلك الأساليب لصرف الناس عن سماعه.

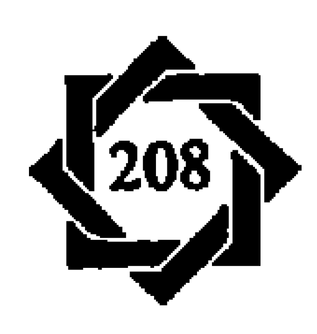
* فيرد الله تعالى على هذا الفعل بما يناسبهم من تهديد بأنه تعالى سيجعلهم يذوقون العذاب المهين ويحسون بالعذاب الأليم...ولن يجازيهم شىء على محاسن أعمالهم (كإغاثة الملهوف أو إكرام الضيف أو صلة الأرحام..).

فكل هذه الأعمال الحسنة قد حُبطت بسبب كفرهم بل سيجازيهم على أسوأ أعمالهم جزاء مناسبًا لهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت].

ثم يُصوّر الحق تلك المعارك الكلامية فى الآخرة بين الضّالين والمضلين بعد أن تحولت المحبة والصداقة إلى عداوة شديدة.

سيقولوا: ربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والإنس لننتقم منهما وندوسهما بأقدامنا ليكونا بذلك فى أسفل مكان فى النار.



* ويقول إبليس: ﴿...وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ...﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

* وتقول فرقة التابعين للذين أضلوهم: ﴿... قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وهكذا يلقى كل واحد منهم باللائمة على الآخر ويتنصل الجميع من المسئولية.

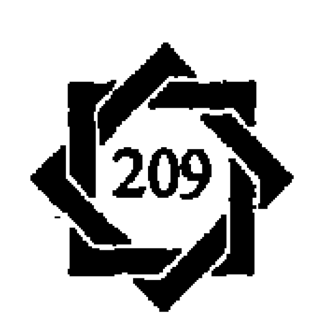
ثانيًا (مشهد من مشاهد الجنة):

* وكعادة القرآن بعد الحديث عن سوء عاقبة الأشرار يأتى الحديث عن حسن عاقبة الأخيار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

إن الذين آمنوا بكل صدق بعطاء الربوبية، وبتكاليف الألوهية وأخلصوا لله وحده،

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ثم تفيد الثبات على القول والعمل بما يقتضى هذا القول من طاعة الله واقتداء برسوله (أى أنهم قالوا وعملوا).

* قد بيّن لنا النبى ﷺ أن الاستقامة على أمر الله هى جماع الخير (قل آمنت بالله ثم استقم) هؤلاء تتنزل عليهم الملائكة بالبشارات فى حياتهم عن طريق الإلهام بما يشرح صدورهم ويطمئن نفوسهم، وعند الموت تبشرهم بما يدفع عنهم الخوف مما هم قادمون عليه أو الحزن على ما فارقوه فى الدنيا من أموال وأولاد وأيضا عند القبر، وعند البعث يقول (وَأَبْشِرُوا۟) عما قريب بالجنة التى كنتم توعدون بها فى الدنيا.



(نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) أى نعاونكم على الطاعة فى الدنيا التى توشكون على مفارقتها فنكون معكم فى الشدة فننصركم،وفى البلاء فنصبركم. أما فى الآخرة:

(وَفِى ٱلْآخِرَةِ) فنستقبلكم بالسلام.

﴿ ... سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد].

هذا سلام الملائكة ثم يسلم الله عليهم كذلك كما فى سورة (يس) ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس].

وسيجدون فيها ما تشتهيه أنفسهم وكل ما يتمنونه ويطلبونه فقوله تعالى:

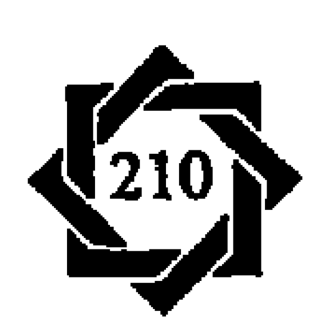
﴿تَدَّعُونَ) افتعال من الدعاء بمعنى الطلب ففيها من النعيم (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)....وكل هذا الرزق مهيّأ من الله الواسع المغفرة والرحمة.

جماع الخير ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

ثم تسمو السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق، فلا أحد أحسن منهم قولا ولا أعظم منهم منزلة، أى أنه يكون فى نفسه مهتديًا بما يقوله فيكون نفعه لازمًا لنفسه ومتعديًا لغيره.

ويقول ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾أى ينسب خيره وصلاحه للإسلام.

* ثم يرشد الحق إلى ما ينمى روح المحبة بين الداعى والمدعوين، وبين المسلم وغيره فيقول: إن الخصال الحسنة لا تستوى مع الخصال السيئة لا فى ذواتها ولا فى الآثار المترتبة عليها، فما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة فعليك أيها المسلم أن تدفع



السيئة إذا جاءتك من المسيء، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات بأن تقابل ذنبه بالعفو وغضبه بالصبر، وقطعه بالصلة، والفظاظة بالسماحة.

فأنت إذا دفعت السيئة بالحسنة صار هذا العدو الذى أساء إليك كأنه قريب منك لأن من الفطرة أن النفوس تحب من أحسن إليها، ومن عفا عنها ومن قابل شرها بالخير، ومن منعها بالعطاء.

* ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس عقب الحق على هذه التوجيهات السامية بقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت].

وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة والتى أولها القيام بالدعوة إلى الله..،ومقابلة السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على المكاره وعلى الأذى. وما يستطيعها إلا صاحب الحظ الوافر من توفيق الله تعالى له إلى مكارم الأخلاق.

* ثم يرشد الحق عباده إن تعرض لهم الشيطان بالوسوسة مما يحملهم على خلاف ما أمرهم الله فالوسيلة هى:

-أن يستعيذ بالله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

فمن رحمة الله بنا أنه ينبهنا لهذا العدو ويعطينا الحصانة منه.. فمن يحدث له ضعف أمام الشيطان فليستعن عليه باللجوء إلى حمى الله والاستجارة به فقل (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وعند المداومة عليها سييأس الشيطان منك ويبتعد عنك.. وهو سبحانه السميع للدعاء العليم بكل الأحوال، القادر على دفع كيد الشيطان.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت].

(وَمِنْ) تفيد التبعيض. أى أن هذه بعض من آياته المتناهية فى الكون التى تثبت طلاقة قدرته سبحانه فهنا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر فتعرض لليل والنهار أيضًا الخسوف



والكسوف للإيذان بأن الجميع يسير بنظام محكم ويؤدى وظيفته أدء دقيقًا ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].

ويعلمنا سبحانه الحكمة من خلق الليل والنهار فيقول سبحانه فى سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

* والشمس والقمر من أعظم المخلوقات،وعرف عنهما الثبات والدقة والعظمة فى الخلق لذلك عبدهما بعض فرق المشركين،فيعتريهم الله أحيانا ببعض الظواهر التى تغير من أدائهم مثل الكسوف والخسوف ليثبت أنه مهما كانت الشمس ومهما كان القمر فهما مخلوقان متغيران، والمتغير لا يكون معبودا أبدا..لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى أول الآية أن الشمس والقمر آيتان عجيبتان فى الخلق بديعتان فى النظام والإحكام ولكن هذه المخلوقات لا تُعظّم إلا بتعظيم الله لهما لكن لا يجوز أن يتعدى هذا التعظيم إلى حد العبادة والسجود.

* ويعتقد البعض أن الليل خلق قبل النهار بدليل أننا نثبت (مثلا) دخول رمضان بليله لا بنهاره، ولكن الحق سبحانه ينهى هذا الشك بقوله تعالى: (أن الشمس لا تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل يسير فى مداره) لأنهما وجدا فى بداية الخلق معًا فى وقت واحد، ثم دار كل منهما مع الآخر بحيث يصبح كل منهما خلفة للآخر ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾[الفرقان].

* ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معًا ساعة خلق الأرض، وحركة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس هى التى ينتج عنا هذا التعاقب وهذه الخلفة.

* وقد أثبت العلم الحديث أن الشمس والقمر يجريان وأن الشمس محال أن تدرك القمر لأن سرعة القمر أكبر من سرعة الشمس (القمر يجرى بسرعة 18 كم / ث،والشمس تجرى بسرعة 12 كم / ث).

فمهما جرت الشمس لن تدرك القمر لأنه أسرع منها.



* ونلاحظ أيضا أن الحق يقول﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾[فصلت].

لماذا لم يقل (خلقهما) وهو تعالى يتحدث عن الشمس والقمر؟

فقد أثبت علماء الفلك أن فى مجموعتنا الشمسيه أقمارا كثيرة غير قمرنا رصد العلم منها 59 قمرا تجرى فى أنحاء المجرة ولذلك جاء بضمير الجمع المؤنث.

* وهذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ثم تعرض لليل والنهار للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لها فهما لا يقومان بذاتهما إلا مخلوقات فهما من مخلوقات الله تعالى.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾[فصلت].وهؤلاء هم الملائكة الذين يعبدون ويسجدون بدون سأم ولا كلل، والعندية للمكانة وليس للمكان.



أحداث العام السابع من البعثة [في شعب أبى طالب]

المقاطعة العامة - والصحيفة الظالمة

لما رأت قريش انتشار الإسلام وأن عمر وحمزة قد أسلما، وبلغها ما لقى المهاجرون فى بلاد الحبشة من تأمين وإكرام، اشتد حنقها على المسلمين... فقاموا بإجراء انتقام ظالم لايفعله إلا من أصابه خيبة أمل، حيث اجتمع رجالها واتخذوا قرارا بكتابة معاهدة يتعاقدون فيها على (بنى هاشم وبنى عبد المطلب) لتصميمهم على حفظ النبى والقيام دونه، فتحالفوا على ألا يناكحوهم، ولايبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم لا بالكلام معهم أو التزاور حتى يُسلّموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل.. وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق ألا يقبلوا منهم صلحا أبدا حتى يسلموه لهم... ثم عُلقت هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدًا على ذلك... فلما فعلت قريش ذلك اتفق (بنو هاشم وبنو عبد المطلب) مع أبى طالب أن يدخلوا معه فى شعبه (رجال ونساء وأطفال -المسلم منهم والكافر) وذهبوا جميعًا ما عدا (أبى لهب) عم النبى ﷺ.. فأقاموا فى الشعب حوالى ثلاث سنوات مضروبًا عليهم الحصار فعانوا من الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال، حتى إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر،وكان يسمع بكاء الأطفال من الجوع.

* وحدث أن (حكيم بن حزام بن خويلد) أحضر طعاما لعمته (خديجة بنت خويلد) وهى مع رسول الله ﷺفى الشعب وقابله (أبو جهل بن هشام) فتعلق به ونال منه حتى جاء (أبو البخترى بن هشام) ومنعه عنه.

* وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم، وفيمن نصب عداوته للإسلام.

وسأتناول بعض الآيات التى نزلت فى هذه الفترة مع أسباب نزولها:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[مريم].



سبب النزول:- أن (خبّاب بن الأرتّ) كان حدادا يعمل السيوف ويسنّها، وكان قد باع سيوفا (للعاص بن وائل) فجاءه ليتقاضى حقا له عنده... فقال له: ياخباب أليس يزعم محمد صاحبك هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا ومن كل الثمرات؟ قال: بلى.قال: فأنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب، فإذا بعثت جنتنى ولى هناك مال وولد فأعطيك حقك فوالله لا تكون أنت وصاحبك أحسن عند الله منى، ولا أعظم حظا فى ذلك. فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات... ونلاحظ أن القرآن لم يذكر اسم الشخص ولم يعينه، وإن كان معلوما لرسول الله.. وذلك أن القائل لا أهمية له ولكن المهم هو القول نفسه..

﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ استفهام للتعجب.

والمعنى. أنظرت يا محمد فرأيت هذا الجاحد الجهول الذى كفر بالله وبالبعث ولم يكتف بهذا الكفر بل قال بتبجح وإصرار على الباطل واستهزاء بالدين.

﴿ وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

إنه يقسم إن كان هناك بعث فسوف يكون -كما فى الدنيا -صاحب مال وولد، كما قال صاحب الجنة لأخيه ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف].

فرد عليه الحق بقوله ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم].

هذا الجاهل أيقول ذلك مستندا إلى اطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه فى الآخرة مالا وولدا؟ أم مستندًا إلى عهد أعطاه الله تعالى له بذلك؟ ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾ [مريم].

ولأن كل الأمرين لم يحدثا بل قال ذلك افتراء على الله، فيثبت الله عليه ذلك بقوله (كلا) سيكتب ويسجل عليه هذا القول ويحاسبه عليه حسابا عسيرا.



وسوف يقرأه بنفسه ويُعرض عليه مسجلا بالصوت والصورة، حتى يكون حُجّة عليه لا يستطيع إنكارها.

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾[مريم].

ويدلاً من قوله ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا ﴾ سيؤخذ منه المال وسيورث منه، ويخرج من الدنيا خالي الوفاض.

﴿وَوَلَدًا﴾ مقابلها﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى سيأتى إلى الحساب يوم القيامة منفردا بدون مال أو ولد أو خدم مما كان يتفاخر به فى الدنيا.

2 - لقى (أبو جهل بن هشام) رسول الله..فقال له:والله يا محمد إن لم تكف عن سب آلهتنا لنسبن إلهك الذى تعبد فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[الأنعام].

وتتضمن هذه الآية حكما من أحكام الله فيما يتعلق بمنهج الدعوة إلى الله..بلغه النبى عن الحق، وأمانة الدعوة تقتضى من كل مسلم يعلم حكمًا من أحكام الله أن يُبلغه لغيره، فلا يفوت من يعلم قضية من قضايا الدين أن يبلغها إلى الناس، وليعمل بها ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره.

(سبب النزول) كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيسبُّ الكفار الله عدوانًا بغير علم فنزلت الآية:

فيعلمنا الحق أننا حين ندعو إلى الإيمان بالله من ابتعدوا عن المنهج أو من أشرك بالله أن لا نسب ما يعبده الذين أشركوا لأن الأصنام لا ذنب لها، والذنب يقع على الخارجين عن المنهج.فيعلمنا الحق ويوضح لنا أنك إن سببت آلهتهم فإنهم بغباوتهم سيسبون إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا وهم قد سبوا الإله الحق.فيحذرنا القرآن من الوقوع فى ذلك. لأنهم سيفعلون ذلك عدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الإله الحق وقدسيته سبحانه



وتعالى،لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سبِّ الألهة حتى لا تجرؤ الألسنة التى لا تؤمن بالله على سب الله.

الحق يريد أن يعلمنا اللطف فى منهج الدعوة... لأننا نريد أن نرقق قلوبهم ونستميلهم إلى المنهج ولن يكون ذاك إلا بالأسلوب الطيب والمجادلة اللطيفة التى تجعل المجادل يخجل من نفسه ولكن من يثور ويتعصب يجعل للطرف الآخر عذرا فى الحفيظة عليه والغضب والهجوم والانصراف عن منهج الله وقد حدث ذلك عندما رأى بعض الجهلة من العوام أن بعض الرافضة من الشيعة يسبون الشيخين (أبا بكر وعمر) فغاظهم ذلك وسبوا (علىّ) حتى يغيظوهم!

وعلى ذلك فلا يحل لمسلم أن يسب الصلبان ولا الكنائس وما شابه ذلك لأن ذلك بمنزلة التحريض على المعصية.

3 - استمر رسول الله على وضعه يدعو قومه ليلا ونهارا، وسرا وجهرا يدعو إلى الله مبديًا أمره، لا يخشى فيه أحدا من الناس..وزادت قريش - حين منعه الله منها وحال بينهم وبينه -فى خصومتها فجعل الله تعالى القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم والرسول ﷺ يتلو ما ينزله الله عليه من آيات محذرا قريشًا مما أصاب الأمم الخالية وكيف أن سنَّة الله فى الأرض أن تتنزل السماء بالعقاب لكل من يخالف الرسول الذى أرسل إليه: فنزلت فى هذه الفترة كثير من السور التى تتحدث عن سوء عاقبة الكافرين وعن الحكمة فى إرسال الرسل وعن مظاهر قدرة الله.. فنزلت سورة (نوح) ومن بعدها سورة (إبراهيم) لتسلية الرسول عما يلاقيه من مشركى قريش، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين...ثم نزلت سورة [الأنبياء] بعد سورة إبراهيم وقيل عن (أسباب نزولها):

أن رجلا من العرب نزل ضيفا على (عامر بن ربيعة) فأكرمه عامر وحدثه عن رسول الله فجاءه الرجل بعد ذلك وقال: إنى استقطعت (أى أعطيت) رسول الله واديا - ما فى بلاد العرب واد أفضل منه وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك..



فقال (عامر): لا حاجة لى فى ذلك، فقد نزلت اليوم سورة أزهلتنا عن الدنيا ثم قرأ عليه ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾[الأنبياء].

هنا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها،وأن الناس فى غفلة عنها ولا يستعدون لها ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم، هؤلاء الغافلون المعرضون لا يصل إلى أسماعهم شيء من القرآن الحديث العهد بالنزول على النبى إلا وهم يلعبون.

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يعبر بالماضى (ٱقْتَرَبَ) ليدل على هذا أن الأمر لازم ولابد..فقد كتبه الله أزلا فيتحدث عنه هكذا بالجزم وكأنه قد حدث فعلا.. وهذا القول لا يقوله إلا الله الذى يملك الأحداث..وذلك مثل قوله تعالى: **(أتي أمر الله فلا تستعجلوه)** سورة النحل، **(اقتربت الساعة وانشق القمر)** سورة القمر **(اقترب للناس حسابهم)**.

والحساب سيكون بناءً على علم الله بما فعلوه أو تركوه، فإن كان خيرا فيحاسب الله بالفضل والزيادة ومضاعفة الحسنات،وإن كان شرا فسيكون جزاءً وفاقا.

ومن رحمة الله بخلقه أنه تعالى يحذرهم من أسباب الهلاك، فهو تعالى لا يأخذهم غفلة ولن يفاجئهم بالحساب على غرة إنما يبين لهم المنهج والحلال والحرام ويخبرهم بيوم الحساب حتى يستعدوا له فما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يقدر هذا الاقتراب ويعمل له ويعلم أن الأعمال لها وقت محدود هو على قدر عمر الإنسان فى الدنيا ومن يموت فقد قامت قيامته..لأن العمل لا يكون إلا فى الحياة أمّا المدة التى يقضيها فى القبر فهو لا يشعر بها، فهى كساعة من نهار.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾[الأنبياء].

(الغفلة) غير السهو والنسيان.. فالغفلة هى الإهمال المتعمد أمّا النسيان فهو خارج عن الإرادة فهؤلاء المشركون غافلون ومعرضون عن أصل وقمة الدين وهو الإيمان بالألوهية وليس فقط غفلة عن الأحكام وهذه هى المعاصى.



﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾[الأنبياء].

لا يأتيهم أى ذكر من القرآن يسمعونه لأول مرة إلا استمعوه وهم يلعبون لا يلقون له بالا، ويُحرّضون بعضهم بعضا بألا يستمعوه حتى لا يتأثروا به فيؤمنوا، فهم لا يستطيعون الثبات أمام إعجازه وبلاغته، ولا تأثيره على النفوس لذلك يصرفون الناس عن سماعه.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ... ﴿٣﴾ ﴾[الأنبياء].

وبالإضافة إلى الغفلة، والإعراض، واللعب فهم أيضًا لاهون عنه، وإن كان (اللعب) هو العمل غير النافع الذى لا غاية له، فـ(اللهو) هو أيضا لا غاية له ولكنه يشغل عمّا هو أهم. فهو لا يجلب فائدة بل غايته ضارة ويجلب شرًا.

وإذ لهت القلوب فإن الجوارح لن تعمل لأن القلوب هى التى توجه الجوارح (لذلك قال سيدنا عمر لرجل يعبث بذقنه أثناء الصلاة، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب.

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى... ﴿٣﴾ ﴾[الأنبياء].

فوق كل هذا (الغفلة والإعراض واللعب واللهو) فهم أيضا يتناجون فى الإثم ويتآمرون على الحق ليفسدوه.

فهم يظنون أنهم مستورون عن الله لأن الله لا يرى السر وما أخفى.

وما داموا يخفونه فلا بد أنه مخالف للفطرة وباطل فلو كانت حقا لقالوه علانية..

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ... ﴿٣﴾ ﴾ الأنبياء.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ جملة مستأنفة وكأن سائلاً سأل: ومن الذى أسر؟ فأجاب:

الذين ظلموا. فهى عامة فى الظلم (لمن ظلم نفسه أو ظلم الناس أو ظلم حق الله..) فهى تشمل كل أنواع المظالم.



وذلك لأن هناك قاعدة نحوية وهى: أن (الذين ظلموا) هنا ليس الفاعل لأسروا لأن الفعل إذا تقدم على الفاعل لزم صورة المفرد فيقال: (لعب التلاميذ ولا يقال لعبوا التلاميذ)..فلو كانت هى الفاعل لقال: (وأسر الذين ظلموا....).

هؤلاء القوم قالوا سرا:

﴿... هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء].

هذه مقولة قالوها فى أنفسهم وأسروها؟ فكيف عرفها محمد؟ لقد أخبره بها ربه الإله الأعلى الذى لا تخفى عليه خافية...فكان عليهم أن يلتفتوا إلى هذا الإله الحق الذى يعلم خبايا كل شىء فينتهوا إلى الإيمان به.

لقد أنكروا أن يكون (محمد) رسولا لأنه بشر..والرسول كان ينبغى أن يكون ملكا.. ثم سموا القرآن (سحرا) لأنهم يرون أنه كالسحر يفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى تبصرون أن القرآن يفعل هذا؟

ثم يرد محمد ﷺ على ما أسروه فى نفوسهم:

(قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم).

وأن الله الذى لا تخفى عليه خافية هو الذى أعلمه بما يدور سرا فى أنفسهم أو فيما بينهم.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾[الأنبياء].

وهذا أيضا ما قالوه سرًا.

1- ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ اي أن هذا القرآن ما هو إلا أحلام مختلطة وغير مميزة.

2 - ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أى أنه اختلقه وتعمد الكذب بأنه قال إنه أوحى إليه.



3- ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ والآن يقولون إنه شاعر.. ويقول الحق: (وما هو بقول شاعر)، (وما علمناه الشعر وما ينبغي له).

أقوال واتهامات متضاربة فى ماهية القرآن؟وهذا دليل تخبطهم.وقد سبق أن فندنا كل هذه الاتهامات وقلنا إنها تحمل فى طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله ﷺ ثم يقولون﴿... فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

وكأن آية القرآن لم تقنعهم فيطلبون آية أخرى مثل معجزات الرسل السابقين.(آية كونية) وهذه الخوارق لم يؤمن بها السابقون فأهلكوا بها ، فيرد عليهم الحق: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

هذه التجربة مرت مع غيرهم من الأمم السابقة،والسوابق تؤكد أنهم لن يؤمنوا مهما جاء من الآيات،فلو أنهم كانوا سيؤمنون لأرسل الله عليهم الآية التى يقترحونها ولكنهم هم كأمثالهم من السابقين (لا يقلون عنهم عتوا وعنادا) الذين يقترحون الآية وتنزل عليهم فلا يؤمنوا بها..فتكون هى سبب عذابهم وإهلاكهم..(وهذه هى سنة الله التى وعد بها كل من يقترح آية ثم لا يؤمن بها)، وقد وعد الله تعالى نبيه الكريم بأنه لن يعذبهم ما دام فيهم لذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا من الآيات،لأن الله لا يخلف وعده..ولذلك يقول الحق:

﴿ ... وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

يرد الحق على اعتراضهم على بشرية الرسول بأن الرسول ليس مصلحا اجتماعيا، إنما هو رجل مبلغ عن الله..فقد كانت الرسل السابقة جميعها رجالا..لأن المفروض فى الرسول أن يكون قدوة وأسوة سلوكية ليطبق على نفس المنهج فيقتدوا به. وشرط أساسى فى القدوة أن يكون المتأسى أن يكون من جنس المتأسى به (ليتمكنوا من التخاطب والتفاهم معه) ولو كان الرسول ملكا لجاء فى سورة بشر ثم يلتبس عليهم أمره فتظل الشبهة موجودة.

فإن كنتم فى شك من هذا فاسألوا أهل الكتب السابقة (اليهود والنصارى) هل كانت رسلهم ملائكة؟ أم بشر مثلهم؟ وسماهم (أهل الذكر) لأنهم كانوا يذكرون خبر



الرسل السابقين مما لا تعرفه قريش، وكان كفار قريش يراجعونهم فى أمر النبى.

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

فلم نجعل الرسل أجسادًا مصبوبة لا تأكل ولا تشرب ولا تتحرك (أى ليسوا أصناما).

أو قد يكون المعنى ما جعلناهم كالملائكة، وما جعلناهم أيضا خالدين فى هذه الحياة بدون موت، فالخلود ليس من سمة البشر.

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنبياء]. ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم فأنجيناهم من العذاب الذى أنزل عن أعدائهم وأنجينا معهم من نشاء، وأهلكنا المسرفين الذين تجاوزوا الحد فى اضطهادهم وهذا الوعد قال عنه الحق:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات].

وبعد أن أنذر الحق الناس، وحذرهم من الغفلة والإعراض، وحكى ما قاله المشركون من تهم باطلة تتعلق بالرسول، وما جاء به من عند ربه، ثم بيَّن سبحانه ما حدث للأمم السابقة التى كذبت بالخوارق والمعجزات بأن أهلكهم إهلاك استئصال.. ثم يقول الحق:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

وبعد أن ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عن القرآن واستهزاءهم به يبين الحق علو مرتبته..فيبدأ الكلام بالتوكيد القسمى (لقد) لأن المخاطبين فى أقصى مراتب النكير.



يقول الحق: إن ما أرسلنه عليكم من آية إنما هى من جنس ما نبغتم فيه بدليل أنكم فهمتموه وعرفتم مراميه (بدون الحاجة إلى تفسير) ولذلك فأنتم لم تستقبلوه بالغرابة أو بالاعتراض مع أنكم تلتمسون له أىّ زلة أو خطأ.. فمثلا لم يعترض أحد منهم على الحروف المتقطعة فى صدر السور دليل على أنهم فهموها ولم يجدوا فيها غرابة، لأن العرب فى أسلوبهم ولغتهم يستخدمون هذه الحروف للتنبيه.. فلم يجدوا أى شىء يردوه على رسول الله مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه.

﴿ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

أى فيه تذكير لكم بالله خالقكم. وبمنهجه. ولو أنكم تنبهتم لما جاء فى القرآن أن القرآن لم يتعصب ضدكم بل أقرّ بعض الأمور الصحيحة ووافقكم عليها مثل: الديّة فى القتل، ومسائل الخطبة والزواج والمهر.. وكثير من الأمور التى تقرها الفطرة السليمة.

أو يكون ﴿ذِكْرُكُمْ﴾

بمعنى شرفكم وعلو منزلتكم لأن القرآن نزل للدنيا كلها بلغتكم، كأن الله يحس الناس جميعا على تعلم لغتهم وتاريخهم.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ استفهام استنكارى لإنكار عدم تدبرهم فى شأن هذا الكتاب الذى يزيدهم شرفا فأى شرف أكبر من أن يكون القرآن عربيًا، والنبى عربيًا. وأن الدين نزل بلغتهم وأن المعجزة الخالدة والكتاب الذى يحمله الناس كمنهج إلى أن تقوم الساعة نزل فيهم وتحدث عنهم وسجل تاريخهم ليتعبد به كل المسلمين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء].

و(القصم) هو كسر الشىء حتى ينقطع وينفصل، أما (الفصم) فهو الكسر بدون انفصال.



يريد الحق: أن يضع أمام أعينهم ما فعله فى الأمم المكذبة ليأخذوا منها العبرة والعظة فيقول: إن كثيرا من القرى التى تجاوزت الحد فى الكفر أبدناها وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فاحذروا أن ننزل بكم ما نزل بهم.

ثم يصور الحق حال هؤلاء الظالمين عندما أحسوا بالعذاب وهو نازل عليهم..

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) ﴾ [الأنبياء].

فلما أدركوا أن العذاب سيقع بهم وأيقنوا وقوعه بهم إذا هم يخرجون من قريتهم يهربون بسرعة وذعر يظنون أن ذلك سينجيهم..فيقول لهم الملائكة أو المؤمنون:

﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ (١٣) ﴾ [الأنبياء].

يقال لهم: ارجعوا إلى قريتكم وإلى ما أترفتم فيه من النعيم والعيش الهنىء الذى أبطركم وجعلكم تجحدون النعم.

(الترف) هو النعيم، فإذا زيدت عليها همزة الإزالة وأصبحت (أترف) فيكون معناها زال النعيم وأبطره ليكون عقابا له.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾

قيل لهم ذلك تهكما وتوبيخا.. أى ارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تتفاخرون بها لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا على السائل عن علم ومشاهدة أين ذهبت مساكنكم؟ وأين ذهب النعيم؟.. ولكن ما هم فيه الآن من خزى سيخرس ألسنتهم ولن يقولوا شيئا عما حدث لهم. لأنهم أدركوا أن الأمر جد لا هزل وأن العذاب بدأ فى النزول فعلا.. وأن القائلين لهم لا تركضوا إنما يتهكمون بهم،وعندئذ أخذ هؤلاء الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين:

﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

(والويل) هو الفضيحة والمصيبة التى يعقبها الهلاك.



أى يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين للعذاب بسبب إعراضنا عن الحق.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتحسر وتفجع وسميت هذه الكلمات (دعوى) لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا: أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوى.

فظلوا يرددون هذه الكلمات حتى جعلناهم فى الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل وكالنار الخامدة بعد إشعالها.. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم يسوق الحق بعد ذلك ما دلَّ على طلاقة قدرته وعلى أن السماوات والأرض لا يستكبرون عن عبادته.

ثم فى نهاية السورة يبين الحق عاقبة الذين يعرضون عن عبادة الإله الحق ويعبدون من دونه أصناما.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنبياء].

.. أى أن الله تعالى سيجمع المشركين مع ما يعبدون فى جهنم.

والمعروف أن النار تأكل ما فيها ثم تنتهى، أما هذه النار فلا نهاية لها فكلما نضجت جلودهم يبدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وتظل النار متوقده لا تنطفىء.

(الردّ على من عبد الملائكة أو قال إنهنّ بنات الله)

وفى يوم جلس أئمة الكفر (الوليد بن المغيرة)، (النضر بن الحارث) وآخرون وأقبل عليهم (عبدالله بن الزبعرى السهمى) فجلس يتشاور معهم فى أمر محمد ﷺ فقال عبدالله: إن محمدًا يقول: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء].



فنحن(بنو مليح) نعبد الملائكة (بنات الله)، واليهود تعبد (عزير)، والنصارى تعبد (عيسى بن مريم) فأما والله لو قابلته لخصمته فى ذلك.

فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول (عبدالله الزبعرى)، ورأوا أنه قد احتج وخاصم..فذكر ذلك لرسول الله فقال: كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، ثم أنزل الله تعالى (سورة الزخرف) وفيها عشر آيات هى من أجمع الآيات التى ترد على هذه الأقوال الباطلة ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزخرف].

أولا: أنهم نسبوا إلى الله تعالى الولد، ذلك لأن الولد جزء من أبيه سواء كان ذكرا أو أنثى، وفى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال: [**أن فاطمة بضعة منى (أى قطعة منى) فمن أغضبها أغضبنى، ويؤذينى ما آذاها**]. وهؤلاء المشركون بلغ من تناقضهم أنهم قالوا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف].

والملائكة من مخلوقاته التى يشملها خلق الكون. فكيف بعد أن اعترفوا أن الله هو خالق الكون بما فيه،ثم يجعلون له صفات المخلوقين؟ ويشركون فى عبادته أحدًا من خلقه؟

إذا لا يعقل ما زعموه بأن الملائكة جزء من الله أو بنات الله ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزخرف].

ثانيا: ثم إن هؤلاء المشركين –لمّا نسبوا لله الولد – نسبوا له الأنثى دون الذكر.

فيستفهم الحق على سبيل الإنكار والتوبيخ..فهل يعقل أن أراد الله أن يتخذ أولادا، أن يتخذهم من البنات اللاتى هنّ – فى تقديركم وتصوركم – أنهن أقل منزلة من الذكور؟ فإن من شأن من يختار لنفسه أن يختار الأعلى منزلة – حسب تقييمكم.



فأنتم تنسبون لله البنات، والحال أنكم إذا بشرتم بالأنثى تصير وجوهكم سوادًا من شدة الحزن والنكد – ويصف الحق هنا فى سورة النحل:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل].

وكان هذا هو حالهم فإذا بشر الرجل بالأنثى يظل ممتلئا بالهم والكرب.. فكأن الحق يقول:

أننا لو فرضنا جدلا وتمثيلا – أن الله اتخذ لنفسه ولدا – أفلا تستحون من الشطط فى القسمة؟

فكيف تنسبون لله ما لا تقبلونه لأنفسكم؟.. لذلك عبَّر القرآن عن هذه القسمة بأنها قسمة جائرة ظالمة بقوله تعالى فى سورة النجم﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم].

واختار هذا الفظ الغريب الذى لم يأت فى القرآن إلا مرة واحدة ليدل بغرابة اللفظ على غرابة القسمة.

ثم يضيف الحق إلى تبكيتهم السابق تبكيتا آخر فيقول: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزخرف].

أى هل الإناث اللاتى ينشأن فى الزينة والدعة والنعومة،فصرن بمقتضى هذه النشأة لا يقدرن على الجدال والخصام أو القتال، فهى غير متدربة على رد الخصم، أو الدفاع عن نفسها.

والمقصود من الآية تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء أدبهم عمَّا نسبوه إلى الله من الإناث اللاتى من شأنهن النشأة فى الرفاهية والنعمة، بينما نسبوا لأنفسهم الذكور الذين هم قوّامون على الإناث!



وهذا لا يعنى أن هذه قاعدة عامة فى الجنس كله، فطلاقة قدرة الله عز وجل تجعل من هذا الضعف قوه تتفوق على قدرة الرجال، فنرى من النساء من كانت ملكة على قومها مثل:

(ملكة سبأ) التى تفوقت بذكائها على الرجال وكان لها قدرة على الجدل والفطنة والسياسة واللباقة.

(شجرة الدر) التى كان لها رأى سديد وحنكة مكنتها من تجاوز الأزمة لما مات زوجها الملك الصالح (نجم الدين أيوب) فأخفت نبأ موته وأدارت هى دفة الحكم فى البلاد،وكانت هى أول من أوصلت المصريين بالكعبة - فكانت أول من أرسلت كسوتها من مصر.

(وأم سلمة) زوجة النبى ﷺ عندما كاد الصحابة يخرجون على طاعة النبى ﷺ فى صلح الحديبية فأعطت هى النصيحة التى أنهت المشكلة.

وهذه الشاعرة العباسية التى كتبت موسوعة شعرية، عندما هجرها زوجها (أبو حمزة) وتزوج بأخرى لما ولدت له بنتا، فأخبرت بما أثبته العلم حديثا عن أن المرأة غير مسئولة عن تحديد نوع الجنين فقالت:

مـــا لأبى حمـزة لا يأتينـــا	ويظل فى البيت الذى يلينا
غضـبـان ألا نلـد لـــه البنين	تالله ما ذلـك فى أيدينـا
فنحـن كـالأرض لغارسينـــا	نعـطى الـذى غرسـوه فينـا

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف].

ثالثا: وزعم هؤلاء المشركون أن الملائكة إناث. فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقهم الله؟ لقد جعلهم عبادا للرحمن.. فالملائكة مخلوقات من نور لا هى ذكور ولا هى إناث فكيف علموا أنهن إناث، وهم لم يشهدوا خلقهن؟ ويقول الحق فى سورة الكهف:



﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف].

وجاء الواقع يثبت صدق هذه الآية ورأينا المضلين فى كل زمان يضلون الناس ويصرفونهم عن الحق فمنهم من نسب لله الولد، ومنهم من نسب له الإناث، ومنهم من قال أن الإنسان أصله قرد.

ثم يهددهم الحق بأن كل هذه الأقوال ستكتب فى صحائف أعمالهم التى يسألون عنها يوم القيامة ويحاسبون على كل هذه الافتراءات.

4 - ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف].

رابعا: ثم يذكر الحق معاذيرهم التى اعتذروا بها عندما حاصرتهم الحجج الدامغة. فقد قالوا على سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة: لو شاء الله أن لا نعبد الملائكة أو الأصنام ما عبدناهم، هم يقولون هذا من غير علم ولا برهان. فمشيئة الله تعالى اقتضت أن يجعل الإنسان مختارا.

وعلّمه الحق بكل وسائل الإدراك التمييز بين طريق الحق و طريق الباطل.. ثم تركهم يختارون، فاختاروا طريق الباطل واستحبوا الكفر على الإيمان دون أى إكراه.

فيرد عليهم الحق بما يخرس ألسنتهم بأن ما قالوه ما هو إلا نوع من أنواع حرصهم وكذبهم ظنونهم الفاسدة.

5- ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف].

خامسا: لماذا يفعلون هذا؟

(يعبدون الملائكة ويقولون أنهن بنات الله) هل جاءهم بذلك رسول يقول لهم هذا الكلام؟



أو هل جاءهم كتاب من قبل القرآن يجيز لهم هذه العبارة؟ فهم بهذا الكتاب مستمسكون؟

كلا.. إننا لم نعطهم شيئًا من ذلك بل إن مستندهم الحقيقى هو تقليدهم الأعمى لآبائهم وسيرهم على طريقهم فقد قالوا عندما دعاهم الرسول إلى الدين الحق:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف].

إذًا فهم ليس عندهم أى مستند لا من العقل أو من النقل فلا حجة ولا دليل.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف].

ثم يسوق الحق هذه الآية لتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من الأذى والإعراض فيقول:

وما أرسلنا من قبلك من رسول فى قوم من الأقوام إلاّ أن قال المنعمون منهم، المنغمسون فى الشهوات، والذين أبطرهم الترف.. وهم دائما قادة الكفر والتكذيب.

قالوا: إنا وجدنا آباءنا على هذا الدين، وإنا على نهجهم لمقتدون. فيردّ عليهم الرسول:

﴿ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف].

وهذا الرد يدل على تصميمهم على الإعراض وتمسكهم بدين آبائهم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف].

فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.. فمنهم من أرسل عليهم حاصبا ومنهم من أخذتهم



الصيحة، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أغرقهم، وهذه هى سنة الله فى كل مكذب للرسل.

ثم نزلت آيات أخرى فى سورة الأنبياء.. تؤكد على المعنى السابق وتنزه الله أن يكون له ولد من الإناث (الملائكة) بل هم عباد مكرمون:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الأنبياء].

يرد الحق تعالى على قول المشركين الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق وقالوا:

إن الملائكة بنات الله... فيقول سبحانه: إنه ليس له ولد من الملائكة ولكنهم عباد مكرمون مخلوقون له، ومقربون إليه، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. ولا يقولون إلا ما يقوله لهم ولا يتقدمون عليه بالقول،ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به، فإن أمر فعلوا وإن نهى تركوا. فهم:﴿ ...لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التحريم].

وهو سبحانه يعلم أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها،متقدمها ومتأخرها.أى هم فى متابعة دائمة.

ولم يترك لهم الشفاعة يدخلون فيها من أحبوا إنما:

﴿ ...وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ... ﴾[الأنبياء].

أى لمن ارتضاه الله وأحبه. فلا تفهموا أنكم حين تقولون إن الملائكة بنات الله أو تعبدونهم من دون الله إنهم يكونون لكم شفعاء عند الله.. فهم لا يشفعون إلا لمن أحب الله من أهل الإيمان...فلا تظنون أنهم يفعلون ما يحلوا لهم لأنهم ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها.فهم مطيعون وملتزمون ولكنهم مع هذه الطاعة﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾.

فهم ليسوا مطمئنين آمنين بل مشفقون وجلون من خشية الله.



وبالرغم من كل هذا الإكرام لو ادعى أحد منهم - على سبيل الفرض وإن كان هذا لم يحدث - لو ادعى أنه إله من دون الله، لعاقبهم الله عقابا شديدا، وسيكون جزاؤهم الإلقاء فى جهنم كسائر المجرمين،ولا يغنى عنهم كونهم ملائكة ومكرمين، ومثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزى به كل ظالم يضع الأمور فى غير موضعها سواء أكان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا.

وبعد أن رد القرآن هذا الرد الحاسم.. على قول (عبد الله الزبعرى) عندما قال: إن بنى المليح عبدوا الملائكة، وإن اليهود عبدوا عزيرًا، والنصارى عبدوا المسيح وجاء هذا الرجل للنبى ﷺ وقال يا محمد: لقد سمعتك تقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

أهذه الآية لنا أم لجميع الخلق؟... فقال النبى ﷺ: لجميع الخلق.

فقال الرجل: فإن كان هؤلاء فى النار،فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار!

فقال النبى ﷺ: ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن (ما) لما لا يعقل؟ أى لغير العاقل.

فلا يدخل فى الحكم عيسى، ولا عزير ولا الملائكة.

[الردّ على مَن اتخذ عيسى إلهًا من دون الله].

ثم أنزل الله آيات محكمات ترد على من عبد عيسى من دون الله فى سورة الزخرف:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف].

لا زال أئمة الكفر جالسين يتناقشون فى أمر دين محمد ﷺ وقال (ابن الزبعرى) إن النصارى عبدوا عيسى، فتعلق المشركون بهذا القول وقالوا: إذًا ما يريد محمد ﷺ إلا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى (عيسى بن مريم) فأنزل الله تعالى هذه الآيات:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[الزخرف].



وحين ضرب (ابن الزبعرى) عيسى بن مريم مثلا وحاجّ النبى ﷺ بعبادة النصارى له، والحق سبحانه وتعالى هو الذى جعل ابن مريم مثلا لأنه ولد من أم بدون أب وجاء من نفخة الحق سبحانه فى مريم. فنسبوه إلى الله فرد عليهم بأن عيسى فى الخلق مثل آدم فقال تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

فإذا كان عيسى بلا أب، فآدم بلا أب ولا أم فلا تفتتنوا فيه... ولكن أتباعه فتنوا فيه وعبدوه كإله.. فجاء كفار قريش بالصياح والضجيج والضحك فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى وظنا منهم أنهم قد انتصروا عليه فى الخصومة والمجادلة.

ثم بيَّن سبحانه أقوالهم التى بنوا عليها باطلهم فقال:

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف].

وقالوا: لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من الله، وأنه خير من آلهتنا.

فإن كان فى النار يوم القيامة، لأن الله يقول:

﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. فرضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار!

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف].

أى لا تهتم أيها الرسول الكريم بما قالوه فهم يعلمون أنه (أى عيسى) ليس بوارد على هذه الآية، لأنها مما لا يُعقل؛ لأن (ما) تطلق فى اللغة العربية على غير العاقل، فلم يقل (ومن تعبدون).



ثم هى (الآية) خطاب لقريش، وهم كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه.. إذًا فمقالتهم إنما كانت مجرد جدال لموضوع لا يعتقدون صحته.

فهى مجادلة بالباطل وليس من أجل الوصول إلى حق.. لذلك قال الرسول ﷺ: **(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل)**. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال ﷺ **(لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض،فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل)**.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

هذه جملة مؤكدة لما قبلها من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل لا لطلب الحق فهم قوم مجلوبون على الخصومة وعلى اللجاج فى الباطل.

﴿خَصِمُونَ﴾ جمع (خصيم) وهو الإنسان المبالغ فى الجدل والخصومة دون أن يكون هدفه الوصول للحق.

ثم بيَّن الحق سبحانه حقيقة (عيسى) عليه السلام فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[الزخرف].

أى أن عيسى ليس إلا عبد الله كسائر الخلق أنعمنا عليه بنعمة النبوة.

﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى جعلناه عبرة أوعجيبة من عجائب الخلق تظل باقية، حيث خلق من غير أب، وتكلم فى المهد، وأول كلامه كان ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم]. أى أنه أثبت عبوديته لله، (وهذه المسألة يخفيها النصارى لأنها تتعارض مع معتقداتهم فى المسيح)، وأعطيناه المعجزات الباهرات التى منها: إبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

ذلك لأنه أرسل لبنى إسرائيل، وهم قوم ماديون لا يؤمنون بالغيبيات بل يريدون دائما الشىء المادى الملموس (والآية تنفى عنه غلو المغالين فى شأنه،وإنقاص المنقصين من قدره).



﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الزخرف].

ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا، وجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم،ولكنّا لم نشأ ذلك.﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[الزخرف].

وإن عيسى عليه السلام -عند نزوله فى آخر الزمان حيّا ليكونن علامة من علاماتها،يدل على قرب قيام الساعة،ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع.فلا تشكوا فى وقوعها ولا تجادلوا فيها لأنها حق لا يقبل الشكوك.

وقد أخبر الرسول ﷺ بنزوله فى آخر الزمان فقال:

(لينزلنّ ابن مريم، حكمًا عدلاً فليُكسرنّ الصليب، وليقتلنّ الخنزير، وليضعن الجزية، وليذهبنّ الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد).

وذلك كما قال تبارك وتعالى﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[النساء].

فكل كتابى عندما تحضره الوفاة – يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته،وأنه عبد لله، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده،وكذلك كل كتابى يشهد بنزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه.

﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

فكونوا تابعين لى مقتنعين بكلامى،فما جئتكم به هو الطريق المستقيم.

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[الزخرف].

ولا يمنعكم الشيطان بسبب وسوسته لكم عن طاعتى واتباعى. فالشيطان عداوته ظاهرة وهى عداوة قديمة راسخة فلا تعطوه الفرصة لأن يصدكم عن الحق.



﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزخرف].

وحين جاء عيسى إلى قومه قال لهم: يا قوم:لقد جئتكم بـ:

1 - بالمعجزات البينات الواضحة التى تشهد بصدقى وتؤكد أننى مرسل من الله.

2 - وجئتكم بالحكمة (والحكمة هى وضع الشيء فى موضعه) والمقصود بها الإنجيل المشتمل على الآداب والمواعظ.

3 - ولأبين لكم وأصحح بعض الأمور التى اختلفتم فيها،ولم يقل كل الأمور (مثل أشياء حرمت على اليهود).

فقد جاء عيسى بعد اليهودية التي كانت مسرفة فى المادية التى دعتهم أن يطلبوا أن يروا الله جهرة، فهم لا يؤمنون بالغيبيات،حتى فى طعامهم وشرابهم لما أنزل الله عليهم المن والسلوى لم يقتنعوا به بل أرادوا طعاما يصنعونه بأيديهم لأنهم لا يؤمنون بالرزق المباشر من الله.

ولذلك لا يوجد فى التوراة أى ذكر لليوم الآخر، وكذلك التلمود.. مع أن اليوم الآخر والإيمان به ركن من أركان الإيمان. لكنهم لماديتهم لا يصدقون به ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الدخان].

لذلك لما جاءت رسالة عيسى عليه السلام جاءت كلها روحانيات ليجبر النقص الروحى فى اليهودية ولا يوجد فى الإنجيل شيء عن التشريعات والتقنينات،ولذلك اضطروا مع ما بينهم من عداء - إلى أن يجمعوا بين التوراة والإنجيل فى كتاب واحد هو (العهد القديم).

فقدسئل عيسى مرة عن الميراث فقال: أنا لم أبعث مورثًا.



فلما طغت المادية قابلها بروحانية ليحدث الاعتدال.لذلك جاءت رسالة عيسى تربى المواجيد الدينية وترفع الروحانيات.. فالحياة تحتاج للجانبين معا:

الحركة المادية التى تتفاعل مع الكون والطبيعة، وتضع التشريعات والقوانين والأحكام.

والروحانيات التى تعطى القيم وتهذب النفوس.

ولأن اليهودية بالغت فى المادية، جاءت المسيحية مبالغة أيضًا فى الروحانية وليس فيها أى قوانين.

وزيادة فى الروحانية ابتدعوا الرهبانية التى لم يكتبها الله عليهم إنما تطوعوا بها ولكن آفة ذلك أنهم لم يراعوها حق رعايتها يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد].

إذًا الذى أُخذ عليهم ليس الرهبانية إنما أخذ عليهم أنهم ما رعوها حق رعايتها.

ولأن اليهودية جاءت مادية صرفة، والمسيحية جاءت روحانية صرفة لذلك احتاجت البشرية لرسالة جديدة تراعى الجانبين الروحانى والمادى، فكانت هى رسالة الإسلام.

ونتأمل كيف وصف الحق أمة محمد ﷺ مرة على لسان اليهود فى التوراة، ومرة على لسان النصارى فى الإنجيل.. يقول الحق فى (سورة الفتح):

أولاً: مثلهم فى التوراة:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].



ثانيًا: مثلهم فى الإنجيل:

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

ونتأمل دقة التعبير القرآنى.. لأن اليهود قوم ماديون فأعطى الجانب الروحى من الأمة الإسلامية.

أما فى الإنجيل فذكر الجانب المادى فى الإسلام.. فصور النبى ﷺ كالزرع الذى أخرج وتفرع منه الفروع والأغصان والورق (شطء الزرع)، فآزره وأيده ونصره حتى قويت شوكتهم وظهر دينهم.

فكأن الإسلام بجمعه بين المادية والروحانية هو المنهج المناسب الصالح لقيادة حركة الحياة.

(فالعابد يحتاج إلى العمل وإلى التعبد).

ثم جاء القرآن بما قاله عيسى -عليه السلام- وهو يدعو قومه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزخرف].

وما دام الله هو ربى ربكم فأخلصوا له العبادة وصونوا أنفسكم من كل ما يغضبه. وهذا هو الطريق القويم.

فماذا كان موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى؟ ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف].

فاختلف الجميع من بعده وتجمعت كل فرقة على الباطل فاختلف اليهود على أمر عيسى واختلف النصارى أيضا فى شأنه فمنهم من قال هو: الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال ثالث ثلاثة.

ومنهم من قال: إنه (لاهوت صرف) وآخرون قالوا بل فيه (ناسوت) لأن أمه من الناس.



ويتوعدهم الله بالعذاب الشديد بسبب هذه الافتراءات على عيسى بسبب اختلافهم وبغيهم فما أشد حسرتهم فى هذا اليوم العصيب؟!

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم].

هذه العلة والحقيقة التى من أجلها يكاد الكون كله أن يتزلزل ويثور غاضبًا لهذه المقولة.. فلم ينفِ الحقُ -فقط- اتخاذه للولد، بل نفى أيضًا انبغاء ذلك له.

* فإن أراد الحق أن يكون له ولد لكان، ذلك مثل قوله تعالى فى شأن النبى ﷺ.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس].

فلا يظن أحد أن النبى ﷺ لا يقول الشعر لأنه لا يستطيع أو لأن أدوات الشعر من اللغة ورقة الإحساس غير متوافرة لديه فهو قادر على ذلك إن أراد لكنه لا ينبغى له ذلك.

* أيضا إن أراد الله أن يتخذ ولدًا لفعل ذلك ولكنه لا ينبغى له.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف].

أى قل يا محمد، ولو على سبيل الفرض إن كان للرحمن ولد، فسيخبرنى بهذه الحقيقة -لأنى آخذ ثقافتى وأوامرى منه- فسأكون أنا أول العابدين له.

* ويخبرنا القرآن أن الجن كانوا أوعى من الإنس فى هذه المسألة فقد لفت الجن ذلك ونزهت الله من الصاحب وعن الولد. وجاء ذلك فى (سورة الجن):

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن].

أى تعالى عظمةُ ومجدُ ربنا أن يتخذ صاحبة (يعنى زوجة) ولا ولدًا.. لأن الصاحبة والولد قد يكونان من أسباب الفساد فى الكون لذلك يقول الحق فى (سورة التغابن):



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن].

إذًا فالحق ليس فى حاجة إلى ابن ليعوله فى شيخوخته، ثم الذين قالوا إن عيسى هو الله أو ابن الله، ما قولهم فى الزمن قبل عيسى أو بعد عيسى؟ ألم يكن لله فيه ولد؟، وما بعد عيسى أين الولد الذى اتخذه الله؟ إذًا هذا كله افتراء على الله.

* يقول النبى ﷺ فى الحديث القدسى:

(قالت السماء: يا رب اءذن لى أن أسقط كسفًا على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وقالت الأرض: يارب اءذن لى أن أخسف بابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك، وقالت الجبال: يارب اءذن لى أن أخرَّ على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك، وقالت البحار: يارب اءذن لى أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك، فقال لهم: دعونى وخلقى، لو خلقتموهم لرحمتموهم فإن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم) .

وفى حديث قدسى آخر: يقول النبى ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى:

(كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته، وأمّا شتمه أياىّ فقوله: (اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).

* ثم أنزل الحق آيات ردت على هذه الافتراءات أبلغ رد وأحكمه لينهى هذا الجدل فى (سورة مريم):

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (٩٣) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا (٩٤) وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (٩٥) ﴾ [مريم].



ويقول الحق: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ والضمير يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء أن كانوا من المشركين (عابدى الملائكة)، أو من اليهود (عابدى عُزير)، أو من النصارى (الذين اتخذوا المسيح إلهًا) فهذا الكلام منهم عبث وافتراء لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد؟ فى أىّ قرن من القرون من ميلاد المسيح؟ فهذه المقولة لم تأتِ من النصارى إلاّ بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح، فما الموقف قبلها؟ وما الذى زاد فى مُلك الله بعد أن جاء هذا الولد؟ وهل كانت هناك أى صفة مُعطّلة واكتملت بمجيء هذا الولد؟ فصفات الكمال كلها كانت موجودة قبل أن يُخلق أى شيء؟!

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء فى (سورة الكهف):

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف].

إنها قمة المعاصى أن يخوضوا فى ذات الله العليا بمثل تلك المقولة .. فمن أين أتوا بها؟ لقد ادّعوها ولا علم لهم بها أو يكونوا قد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فهى مسألة فظيعة كبيره متناهية فى الإثم لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ولو أنهم كتموها فى أنفسهم واستعظموا أن تخرج منهم لكان وضعهم أفضل.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ [مريم].

والإد هو الأمر المتناهى فى الثقل والضخامة. مثل قوله تعالى: ﴿ ... وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة].

أى لا يثقل عليه..

* فالإنسان يتخذ الولد ليكون له عُزوة وقوة، أو ليكون امتدادًا له بعيونه، والحق تعالى لا يحتاج إلى أحد فهو الباقى الدائم.. إذًا فاتخاذ الولد بالنسبة له لا علّة له.

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾ [مريم].



* فليس الإنسان فقط هو الذى ينكر هذا الأمر، بل الجماد أيضًا.

فالسماوات بقوتها وعظمتها تتشقق وتكاد تخر لهول ما قيل، وتقرب أن تنفطر ولكنها لا تنفطر بالفعل لأن الله يمسكها .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر].

* والأرض تقرب أن تتصدع وتنخسف بهؤلاء القائلين ذلك القول العظيم.

* والجبال تسقط وتتهدم لزعم هؤلاء الضالين أن لله ولدًا.

خاتمة

أريد أن أعترف – اعترافًا مبدئيًا – أنني توقفت قبل أن أخط فى هذا الكتاب حرفًا واحدًا، توقفت أمام هذا التساؤل: كيف أجرؤ... من واقع القصور البشرى والخطيئة أن أتصدى للكتابة فى موضوع يجمع بين أحداث السيرة، والكتابة عن قمة النقاء فى الأرض... ثم أتناول معها القرآن الكريم بالتفسير الموضوعى.... وقد لازمنى شعور بالتصور، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلي، ولكنى حرصت على أن ازداد فقهًا فى كلا الاتجاهين (سيرة الرسول ﷺ)، والتدبر فى القرآن الكريم.

وقلت... قد أرتاد طريقًا لم أسبق إليه، افتح به بابًا من أبواب الخير، والقرآن لا تنقضي عجائبه، ولن نبلغ – مهما بذلنا مداه!!

والهدف الذى سعيت إليه أن أقدم أحداث السيرة ثم أتناول آيات القرآن وكيف كان الحق يترك الأحداث تحدث أولاً ثم يسقط عليها آيات القرآن لبيان كيف يكون المنهج متفاعلاً مع الأحداث العملية، ويعلم رسوله الكريم كيف يكون قدوة وأسوة سلوكية فيتعلم منه المؤمنون منهج الله... ويُثبتهم، ويجيب على أسئلتهم...

وقد شعرت – على ضوء ما أحسست من نفسى – أننا بحاجة إلى هذا اللون من التفسير... فزايلنى التردد وبدأت أكتب... فواجهت مشكلة قلة المصادر ونُدرتها، وإن وجدت بعض المصادر، أجد أن معظمها كُتبت بلغة قديمة، ومن الصعب علينا أن نقرأ كتابًا بشريًا وضعت أفكاره بلغة الماضى، إن صعوبة الأسلوب القديم، تمثل عقبة أمامنا. فأنا أريد أن أخاطب المستقبل وليس الماضى القديم، وهناك كتب وجدتها تضع الحقائق جنبًا إلى جنب مع الأساطير، وتمزج الحق بما لا علاقة له بالحق، ومعظمها تمد يدها لمأدبة الإسرائيليات الحافلة بالخرافة، فتُسوّد الصفحات بخرافات تدعو الذهن إلى الشرود.

وهناك كتب تقليدية كُتبت بعلم لا يتوهج بالحب، أو بحب طائش يفتقر إلى العلم والبرهان. فقلت لنفسي: لو استطعت أن أكتب كتابًا، بلغة هذا العصر، وأنجو فيه مما شاب الكتب السابقة، من اختلافات أو تطويل أو خرافات، فإني أكون قد قدمت عملاً جديدًا،



ولقد قادتني هذه النظرة إلى اختيار منهج هذا الكتاب، فجدّدت منهج الكتابة بأن أمزج سيرة المصطفى ﷺ بالمنهج القرآني، وأن أتتبع أحداث السيرة وأُفسر أي غموض أو صعوبة في التعبير، أو إسهاب أو تطويل.

ومن بين المشاكل التي واجهتها، هذه الفجوات الصامتة في تاريخ نزول الآيات وهي فجوات رأيت أنه لا حرج على الخيال أن ينشط لتصورها، وتصور أوقات نزولها، وكثيرًا ما توقف القلم أيامًا عديدة، محاولاً أن يبحث عن إجابة لسؤال حائر يتعلق بترتيب حادث زمني معين وقع فنزلت سورة بعينها في هذا الوقت.

أبحرت وسط هذه الصعوبات، في محاولة للوصول إلى أقرب ما يكون من الترتيب الصحيح لنزول السور، وقد رأيت أن الترتيب ليس هو ما يعنينا في هذا المقام ولكن ما يعنينا هو معنى الآيات، وإن حدث أي خطأ غير مقصود فعزائي أنه سبحانه وتعالى يرحم، ويعفو، ويتوب، ويهدي.

ولست أعرف صراحة، هل يرحمني الله تعالى بهذا الكتاب ويثيبني عليه، أم يعذبني به، أو لا يلتفت إليه أصلاً؟

إن الدوافع الظاهرة التي أملت عليّ كتابته هي الرغبة في عرض السيرة والتفسير مجتمعين بأسلوب معاصر حيّ، بدافع الدعوة إلى الله، وبدافع التيسير لمن يحب أن يحيا بالقرآن، وأن يتخلق به، فلابد أن نفهم مغزاه حتى يدخل قلوبنا، فالقرآن مثل الروح التي تضيف إلى أرواحنا قوة وإرادة جديدة.

والآن، سأختم الحديث عن سيرة النبي ﷺ، بعد سبعة أعوام.. بدأها وحيدًا في غار (حراء)، ثم صبر على البلاء، وثبت على الحق، وسما فوق الأحداث، وباعد الحق بينه وبين زيغ الهوى، فتحمل أعباء الدعوة، وأضاف إلى تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها، لذلك أصبح لمن أراد النجاة من هذه الدنيا أن يتبع منهجه الرباني في جميع شئونه، وأن يتأسى بالرسول الأعظم ﷺ، وأن يتفكر ويتدبر في منهجه القويم فلا يبتعد أحد عنه ولا يتخلف.



لقد حاولت - ما استطعت - أن أحيط بالموضوع بقدر الإمكان، ولكن قلة المصادر وعدم القدرة على مراجعة كل ما هو موجود، مع وجود فجوة وفراغات في بعض الأوقات، وبقيت في نفسي رغبة إلى ملء تلك الفجوة والفراغ، فأحيانًا أُقدِّم بعض الأحداث أو أؤخرها، أو أضيف أو أعدِّل أشياء، وهي وإن لم تكن عين ما كانت تحدث واقعيًا، لكنني لجأت إلى كتب الإعجاز العلمي، واستفدت بها في شرح وتفسير بعض الآيات، لعلها تعطينا عمقًا جديدًا في معناها.

وسيكون الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله مشتملاً على بعض سور العقيدة، التي نزلت في الفترة المكية (قبل سنوات المقاطعة والحصار) فاشتملت على معظم الآيات التي يزخر بها القرآن الكريم وتشير إلى العديد من الظواهر الكونية، التي أحصاها الدارسون إلى حوالي الألف آية صريحة، وقد وردت هذه الآيات في معرض التذكير بقدرة الله وحتمية البعث.

واليوم - وقد ظهر الإعجاز العلمي للقرآن - وسيظل ظاهرًا حتى قيام الساعة، إثباتًا لصدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، ودعوته لدين الإسلام بلغة العصر، رأيت أن من واجبي المساهمة في نشر هذا الإعجاز العلمي وجعله في متناول الجميع لندرك جميعًا عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وليكون إيماننا بكتاب الله قائمًا على معرفته وفهمه، والإحساس الصادق بما تحمله كلماته وآياته.

وفي خشوع وإجلال، أقول للمعلم العظيم، خاتم المرسلين: جزاك الله عما أعطيتنا، وهديتنا خير الجزاء. وأسأل الله تعالى التوبة، إن كنت أخطأت، والجزاء والثواب إن كنت أصبت، وأدعو لقارئ هذا الكتاب أن يكون بالعمل أفضل من كاتبته.

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وينفع بنا، إنه على ما يشاء قدير.

سامية طنطاوي



المراجع

* الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري.

* هذا الحبيب محمد: أبو بكر الجزائري.

* السيرة النبوية: ابن هشام.

* البداية والنهاية ابن كثير.

* على خطى الحبيب: الأستاذ/ عمرو خالد.

* خواطر قرآنية: الشيخ محمد متولي الشعراوي.

* التفسير الوسيط: الدكتور/ سيد طنطاوي.

* في ظلال القرآن: سيد قطب.

* مختارات من تفسير الآيات الكونية في القرآن: د. زغلول النجار.

* معجزة القرآن: الشيخ الشعراوي.

* موسوعة الإعجاز العلمي (آيات الله في الآفاق): الأستاذ الدكتور/ راتب النابلسي.

* الإعجاز العلمي في القرآن: د. عاطف قاسم المليجي.

* الموسوعة الذهبية في معجزة القرآن والسنة: د. أحمد مصطفى متولي.

* خواطر قرآنية: الأستاذ/ عمرو خالد.

* أسباب النزول: للإمام السيوطي.

* التفسير الموضوعي: للشيخ محمد الغزالي.

* الإعجاز العلمي في أسرار القرآن والسنة: للأستاذ/ محمد حسني يوسف.



المحتويات







- سامية أحمد مصطفى طنطاوى.
- بكالريوس الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة 1970 م.
- ماجستير فى الدراسات والعلوم الإسلامية ، جامعة هامبورج - ألمانيا الغربية 1985.
- دبلوم معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة 2004 م .
- حاصلة على إجازة إلقاء المحاضرات فى المحافل العامة .
- منذ 2006 م التخصص فى إلقاء محاضرات تفسير القرآن حتى الآن.

أموت ويبقى ما كتبته فياليت من قرأ دعا ليا
عسى الله أن يعفو عنى ويغفر لى سوء فعاليا

هذا الكتاب

اليوم - وقد ظهر الإعجاز العلمى للقرآن - وسيظل ظاهراً حتى قيام الساعة ، إثباتاً لصدق نبوة سيدنا محمد (ص) ،ودعوته لدين الإسلام بلغة العصر .. رأيت أن من واجبى المساهمة فى نشر هذا الإعجاز العلمى وجعله فى متناول الجميع لندرك جميعاً عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وليكون إيماناً بكتاب الله قائماً على معرفته وفهمه والإحساس الصادق بما تحمله كلماته وآياته.



